رواية

آخر بني سراج

﴿ تأليف ﴾

الفيكونت دو شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير

مترجمة ومذيلة بخلاصة من تاريخ الاندلس

الى سقوط غرناطة

بقلم صاحب السعادة الامير شكيب ارسلان

﴿ الكاتب المتفنن والمؤرخ الشهير ﴾

طبعت اولا بمطبعة الاهرام بالاسكندرية سنة ١٨٩٧

الطبعة الثانية فى

مطبعة المنار بمصر

سنة ١٣٤٣ هـ — سنة ١٩٢٤ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه قصة لطيفة من نوع القصص المعروف ، على أسلوب الوضع المألوف ، ألفها (الفيكونت دو شاتوبريان) الكاتب الفرنسي الشهير وسماها (وقائع آخر بني سراج) وأدارها على سياحة شاب تام الرجولية ، باهر الفروسية ، من بقايا آل سراج الغرناطيين ، من أكرم بيوتات العرب الباقين ، كانوا بالاندلس لعهد خلوها من الاسلام ، ونبوّها عن حمر الاعلام ، هب من تونس حيث كان جالية الاندلس قد نزل اكثرهم سائحا الى وطنه القديم ، متعللا بالعظام الرميم ، طائعا هوى النفس في الذهاب اين ساقه التذكار والحنين ، هائما على وجهه في تلك الارض التي عمرها آباؤه مئين من السنين ؛ وبينما هو يجول في شوارع غرناطة مسكن أهله قبل الجلاء الاخير ، وثالة ما كان بقي في يد الاسلام من ذلك النعيم والملك الكبير ، كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من سريات الاسبانيول فعلقت بقلبه ، ووقع نظره منها على مثله فتعاشقا وتوزعت القصة بين حبها وحبه ، وحال دون اقترانهما اعجاب كل بدينه واخلاصه لربه ، ثم ما تبين لابن سراج بعد طول العشرة من كون معشوقته سلالة من آل بيفار الفاتكين لدن الجلاء بآبائه ، فرأى اختلاط دم القاتل بدم المقتول غير خليق بإبائه ، ولا ممتزج بشيمة وفائه ، بل

مضي كل من المتعاشقين بحبيبه صباً ، قد اختلطت مهجتاهما حبا ، ولم يفرق بينهما الا الدين والا المودة في القربى

أصبت هـذه القصة في بعض المظان فاخترت نقلها الى اللسان العربي المبين ، لاطف معناها ، وشرف مغزاها ، وما تضمنته من آداب المحبين ، وايثاراً لما فيها من مكارم الاخلاق ، ومزايا الاشراف من الفرسان ، واطلاعا على كثير من الصفات الملكية متزحزحة عن افق الملا العلوي الى عالم الانسان ، استدلالا على بديع صنع الله حين يجمع بين الحسن والاحسان ، ثم تعريفا بحال الفروسية إذ ذاك ، وما انطوى من مكارم الاخلاق بين الالجام والاسراج ، وتلذذا بذكرى السلف ، واستقراء لآثار العرب ، على نحو الغرض الذي حدا بقية بني سراج ، ووصلتها بذيل من أخبار الاندلس اللازمة للقصة الزائدة في طلاوتها ، المساعدة في فهمها وتسوغ حلاوتها ، فجاء فيها من لطف الحقيقة ما لا يقصر عن لطف الخيال ، وأعيد بها كثير من صدى الاندلس قبل تأذن الله بالزيال ، والله سبحانه يرشدنا الى طريق الخير وهو المسؤل بحسن المآل ،

آمين

﴿ القصة ﴾

لما اضطرّ السلطان ابو عبد الله صاحب غرناطة آخر ملوك الاسلام بالاندلس الى مهاجرة ملك اجداده ،والجلاء عن بلاده، وقف يبكي على الاحبة والمنازل من ذروة جبل (بادول) المشرف على البحر، اذ كان هذا الملك المشؤوم الطالع يروم الاجازة الى بر العدوة ،وكانت تبدو من هناك غرناطة ومرجها (الفيجة) ونهرها (الشنيل) على ضفتيه مضروبة قباب (فرديناند) طاغية الاسبانيول وقرينته الملكة (ايزابلا) فلما تأمل ابو عبدالله رونق ذلك المنظر، وسرّح جواد الطرف في مسارح تلك اللمحات ، وشاهد أشجار السرو الباسقة فوق مقابر المسلمين - أجهش بالبكاء والعويل ، واستعبر اذ اعتبر ذهاب ذلك الملك العريض الطويل ، فقالت له أمه عائشة ، التي كانت في صحبته مع كبار الحاشية « ابك الآن بكاء النساء ، الملك الذي لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال » ثم هبطوا الساحل وغابت غرناطة عن أعينهم غيبة انقطاع

وأما مغاربة اسبانية الذين أصابهم ما أصاب ملكهم أبا عبد الله من فقد الملك ، وانتثار السلك ، فقد تفرقوا شماطيط في أقطار افريقية ، فنزل منهم بنو (الزغري) غمارة بأراضي فاس التي يقال إن أصلهم منها . أما البنغاز والعباس فانتشروا بسيف البحر من وهران الى الجزائر، وأما بنو سراج فأقاموا ببرض تونس واستعمروا هناك حيال دمن قرطاجنة محلة يمتاز أهلها عن سائر أهل المغرب بجمال الشارة ولطف الخلق

وفي هذا أيضا لم تزل على شيء من شأنهـا الاول لان الفرسان كانوا بأنفسهم يضمدون جراحات الاقران، بعد ان يصرعوهم في ساحة النزال

وبعد ان كان لهذا البيت الكريم السراجي القصور الشاهقة الى العنان ، والصروح البالغة فى تطاول البنيان، صار يأوي الى كوخ منفرد لم يكن في وسط قرية المهاجرين بسفح جبل (ماماليف) بل كان قائما وسط أطلال (قرطاجنة) بسيف البحر فى المكان الذي هلك فيه (مار لويس) ضجيع الرماد ، وفيه الآن فترة ناسك من عباد المسلمين ، وكان معلقا على حيطان الكوخ درقات من جلد أسد مصورٌ عليها في رقعة زرقاء شكل وحشين مفترسين أمامهما دبوس قد سخرا به مدينة وبجانب هذه الصورة مكتوب هكذا « متاع قليل » وهـذه كانت أسلحة سمة بني سراج — وكان مصفوفا بجانب تلك التروس بين البواتر اللامعة والخناجر البراقة ، اسنة معلمة باشارات بيض وزرق ، وبرانس محررة من الاطلس الخالص ، وهناك أيضا كفوف حديدية ، ولجم محلاة مرصعة بالجواهر ، وركب ضخمة مفضضة ، وسيوف طوال الشفار ، موشيّات الغلف بأنامل بنات الامراء ، ومهاميز من ذهب قد اصطنعت في الغابر برسم خول الفرسان ، وعلى موائد منصوبة بجانب هـذه الآثار الدالة على مجد عريق ، وحسب أصيل ، أدوات حضرية ، وآثار عيشة هادئة ، منهـا حشائش مقتطعة من أعراف جبال الاطلس ، ومنهـا مقتلعة من الصحراء ، ومنها ما هو مجلوب من مرج غرناطة ، بعضها يناسب آلام البدن ، وبعضها ذو خواص تتناول تفريج هموم الانفس . وكان المعتمد عليه والمتنافس فيه عند بني سراج ما كان منها ذا مسكة في

تسكين الاشجان ، وتيسير السلوان ، والاخذ بالخواطر عن شديد التخيلات ، وكاذب الاماني التي تحيي الرجاء ولا تحققه ، الا انه لسوء البخت كانت تتلاقى في هذه الاعشاب خواص متناقضة ،فانه كثيرا ما كان عرف نبات عرفوه في وطنهم القديم أشد على هؤلاء المهاجرين الاشراف ، من السم الزعاف

وكان قد مضى على استخلاص غرناطة من يد المسلمين اربعة وعشرون عاماً هلك في أثنائها من بني سراج اربعة عشر سريا من تأثير الاقليم الجديد في امزجتهم ، وتقلب احوال المهاجرة بهم ، ولاسيما شدة الحزن الذي لامثيل له في هدّ القوى الانسانية الباطنة ، ولم يبق من هذا البيت الاثيل ، سوى فرع واحد كان رجاء آله الوحيد ، وسند قومه الوطيد ، واسمه (ابن حامد) وهذا هو ابن السراجي الذي رماه بنو الزغري بمنازلة الملكة فهيمة ، كان جامعا في نفسه الجمال الزاهر ، والاقدام الباهر ، والادب الغض ، الى كرم العنصر وشرف المنزع ، مع الرقة في الابهة ، والتواضع في الجلال ، تلوح على معارفه ملامح الحزن اللائحة على من تجمل واعتزم في احتمال غدرات الزمان ،لم يكن له من العمر عند وفاة ابيه سوى اثنين وعشرين ربيعا ، فنوى السفر لزيارة بلاد آبائه قضاء لحاجة في نفس يعقوب ، واتماماً لامر اعتنى بكتمانه عن والدته ، فأبحر من جون تونس ، وجرت الفلك به ريح طيبة حتى قرطاجنة الاندلس ، وهناك وطيء البر وشمر قاصداً غرناطة ، وكان يعرف نفسه بانه نباتي مغربي جاء لانتجاع مساقط الغيث ، وارتياد التعاشيب التي بين صخور شلير وغيره من جبال الاندلس ، وكان ممتطياً بغلة هادئة تسير به الهوينا حيث

كان آباؤه السراجيون يطيرون على جياد مطهمة ، وجرد مسوّمة ، وكان احد الادلاء يسير امامه ببغلين من فاره الحيوان ، عليهما الجلاجل وغزل من الصوف مختلف الالوان ، فجاز ابن حامد في مسيره غابات النخيل المشتبك في اراضي مرسية وتأمل في قدم تلك الاشجار ، حاسبا انها غرس آبائه ، فاستشعر فؤاده الحزن وهاجت خواطره بلابل الاشجان ، ثم لم ينشب ان أبصر برجا عاليا كان يسهر فيه الحراس أيام حروب المغاربة والنصارى ، وآثار أبنية تدل صنعة بنائها على كونها عربية ، وهي أيضا محل آخر لشجن ابن سراج الذي ما زالت تلك المناظر تولعه وتشجيه ، حتى اضطر أن يترجل عن بغلته ، وأن يتوارى ساعة وراء تلك الرسوم ، بحجة التنقير عن الاعشاب ليفسح مجال الجرى للدمع السجوم ، متمثلا بقول حبيب:

ما في وقوفك ساعة من باس تبكي رسوم الاربع الادراس (*)

ثم استأنف السير وهو مستغرق في التمل والاذكار ، يطوي البلاد على صليل الجلاجل ، وتغني دليله المستمر على وتيرة واحدة ، لا ينقطع حداؤه الالحث البغال بأن يناديها تارة ياجيدة ياسريعة ، ويزجرها طور بقوله : عدس

وكانت على احد جانبي الطريق قطعان من الضأن يُسيمها راع في بقاع صفراء جرداء ، وقد عرض في اثناء الطريق بعض عابري السبيل ، وكأني بهذا الطريق قد ازداد لهم وحشة ووحدة ، بدلا من أن يزداد بهم حركة وانسا ، وكان كل واحد من هؤلاء المسافرين متقلداً سيفا ومتلففا في عباءة ، وعلى رأسه قبعة مسترخية تقنع نحو النصف من وجهه ، وكانوا في اثناء

(*) كذا فى الاصل ، وفى الديوان المطبوع : تقضي ذمام الأربع الأدراس

مرورهم يلقون السلام على ابن حامد رمزاً وهمساً بحيث لم يميز من سلامهم سوى لفظ الجلالة وكلمتي سيد وفارس . وعند المساء عرّسوا في أحد الفنادق فجلس ابن سراج بينهم غريبا بدون أن يتكاده قلة احتفالهم به وتطلعهم الى زيه ، وكونهم لم يسألوه عن شيء ولا شافهوه بشيء ، وان عمامته وغنبازه (١) وشكته لم تكن لتحرك منهم ساكنا ، فحيث جرى قضاء الله بأن لا تبقى تلك المملكة الفيحاء للمسلمين لم يعد في وسع ابن حامد إلا أن يعتبر ما يراه من رصانة فأحيها ويعجب بما عليهم من السكينة والوقار

على أن غاية انفعالات الفارس السراجي لم تكن هناك بل كانت تنتظره عند خاتمة مطافه ، وإلقاء عصا تسياره على باب غرناطة . وغرناطة الحمراء مبنيـة في سفح جبل (سيار نيفادة) الشارات (٢) على رابيتين مستطيلين صُعُداً يفصل بينهما واد عميق والابنية ممتدة على الصبب من الجانبين وآخذة برقاب السفوح الى قعر الوادي على شكل يعطي البلدة للناظر هيئة الرمانة — ومنها اشتق اسمها اذ معنى لفظة غرناطة رمانة

وقد أحاط بالمدينة نهران أحدهما يسمى الشنيل والآخر الدورو (او حدره) وتحدر الاول عن مثل سبائك المسجد ، وتصبب الثاني على مثل رمال اللجين ، وبعد أن تطهرت بمياههما سفوح الآكام اجتمعا وتعانقا ، ثم انفصلا وتفارقا ، وتكون كل منهما واديا يلتوي بجانبها التواء الشجاع ؛ وتطرد منه عيون واقنية يسقى بها مرج غرناطة الافيح ويطيب حفافيها الانتجاع ، وهذا المرج الذي تشرف عليـه غرناطة كأس من ملتف

---

(١) لباس لاهل المغرب (٢) وجبل غرناطة هو شليز من سلسلة الشارات

الدوح ،وفينان السرح ،واشجار الكرم والرمان،والتين والتوت والليمون، حلة خضراء سندسية وقد حفت به جبال مدهشة المنظر ، شائقة المسح، فاذا مر السائح من هناك قلب طرفه فى صحو تلك السماء ، وصفاء ذلك الماء ، وتبسم ذاك الافق واعتلال ذلك الهواء ، لم يتمالك أن يستشعر قلبه الانحلال ونفسه الالتياث ، بل يحس أن عواطف الرقة في هـذه البلاد تتغلب على حفائظ الشجاعة ، وأن مناخها يحل عقود العزائم ، وينكث مفتول الشكائم ، لولا ان من لوازم العشق لكي يتحقق بوجوهه أن يكون دائما بصحبة المجد وأن تكون الظبي خفراً لظباء الخفر ؛ وتقوم شفا الاجفان ، سياجا دون شفار الاجفان

ولما شاهد ابن حامد عن بعد اعالي ابراج غرناطة بلغ خفقان قلبه واضطراب اعضائه إلى التزم الوقوف ببغلته ثم رديديه نحو زوره وشخص بصره نحو المدينة المقدسـة والبلدة الطيبة وبهت حائرا صامتا ، فوقف الدليل لوقوفه. واذ كان الاسبانيول يستشفون بسهولة العواطف العالية، والخواطر السامية، لاح عليه أثر الانفعال وفهم أن المغربى قد قامت قيامته عند مارأى وطنه القديم ، فالتفت نحوه ابن سراج وشرع في الحديث قائلا سعديك أيها الدليل واصدقني المقال فلا ريب عندي لقد كان ميمونا يوم ميلادك : سكنت فيه العواصف ، ودخل البدر في تمامه، قل لي رعاك الله ماهذه الابراج التي تسفر كالنجوم في سماء تلك الروضة الغناء؟ فأجابه الدليل هي الحمراء ، قال ابن حامد وما هو ذلك القصر الاخر ؟ قال الاسباني هو قصر الجنراليف (١) الذي فيه غيضة الريحان التى زعموا

(١) جنة العريف حرفها الاسبانيول فقالوا الجنراليف

أن ابن سراج فوجيء فيها مع الملكة فهيمة ، ثم هنالك محلة البيازين ومن الجهة الثانية الابراج الحمر

فكانت كل كلمة من كلمات الدليل سهما نافذا في فؤاد ابن حامد، وما أشد على المرء من الالتجاء الى الاجنبي في الاستعلام عن منازل آبائه، وأخذ صحاح الاحاديث عن سلفه ! ثم وقف الدليل بابن حامد عن زيادة الاستعبار والتأمل ، وهتف قائلا له هيا بنا أيها السيد المغربي هيا بنا ، هكذا قضى الله فاربط جأشك ، واستتر عزمك ، ألا ترى الى فرنسيس ملك فرانسة أسيرا اليوم في مادريد (مجريط) عاصمتنا ؟ بذلك جرى حكم الله الذي لا معقب لحكمه ؛ ثم رفع قبعته ورسم اشارة الصليب على صدره وزجر بغاله ومضى ، وعندها حثحث السراجي أيضا مطيته قائلا « مكتوب » وانحدرا صوب غرناطة

وفي الطرق مرّا حذاء شجرة لسان الطير الشهيرة بالواقعة التي جرت تحتها بين موسى وبين صاحب كالاتراغا (١) في الكائنة الاخيرة عند خروج المسلمين من غرناطة ودارا حول البلدة متنزهين ثم دخلاها من باب البيرة (٢) وصعدا الرملة ووصلا الى مكان تكتنفه من كل جهة ابنية عربية ، وكان هنالك خان مفتوح لاجل نزول مغاربة افريقية الذين كانت تجارة الحرير في مرج غرناطة تحدوهم الى هنالك زرافات فذهب الدليل بابن حامد الى ذلك الخان

وكان ابن سراج سابحا في لجة الهواجس سبحا طويلا وقد أقضت ذكرى الاوطان مضجعه ، وزادت رؤية الاطلال توجعه وتفجعه ، فلم

---

(١) قلعة رباح راجع الذيل (٢) احدى كور غرناطة

كالمدعوين الى عرس حافل شبت في محفله نار فازدحموا للخروج وأفلتوا وهم يتعثرون بأذيال زينتهم

فكانت أشباه هذه الاشباح تزدحم فى مخيلة ابن حامد ولم يكن له همٌّ لما كان بالغاً به من الوجد والبث سوى اتمام المقصد الذي ساقهُ الى زيارة غرناطة. وبينماهو على هذه الحال اذ راعهُ فلق الصبح وهو يتعسف الجوادَ وقد بعد عن الخان وصار الى ربض متراخ عن المدينة ، والسكل رقود ، والابواب والمنافذ مغلقات ، ولا يُحسُّ فى الشوارع ركز ، ولا تسمع نبأة الا صياح الديك ، فقد صار يرتفع من بعض بيوت الفقراء منبهاً الناس لمعاودة الكد والشغل

وبعد ان هام ابن حامد طويلا لا يهتدي الى الطريق ، ولا يأنس برفيق سمع حركة باب ينفتح ، واذا بغادة حسناء رائعة الشباب ، ناعمة الاهاب ، اشبه فى ثيابها بينات ملوك القوط المنقوشة صورهن على جدران اديرتنا القديمة

لها منظرٌ قيد النواظر لم يزل يروح ويغدو فى خفارته الحب

متوشحة بصدارة من المخمل الفاحم قد شدَّت به رشيق قوامها ، وقصر سراويلها الضيق الخالي من الثنايا يكشف نعمة الساق ولطافة القدم ، وكان على رأسها عصابة تمسكها باليد اليسرى سوداء ملتفة دائرة الى ماتحت الذقن بحيث لم يكن يرى من وجهها كله سوى احداقها النجل وثغرها الالمى ، وكانت معها مهذبتها وتابع يحمل بين يديها كتاباً دينياً ، ووراءها اثنان من الوصفاء يتبعانها عن بعد ، وهي ذاهبة الى صلاة الصبح فى دير قريب ابتدأ قرع ناقوسه

بأبي من همتُ فيهِ سحراً يتهادى كنسيم السحر

اقبس الصبح ضياء ساطعاً فأضا والفجر لم ينفجر
واستعار الروض منه نفحة بثها بين الصبا والزهر
ايها الطالع بدراً نيراً لاحللت الدهر الا بصري

فلما وقعت عليها عين ابن حامد خيل اليه انها الملك اسرافيل ، او حوراء من قاصرات الطرف غفل عنها رضوان ؛ فقرت من الجنان ، وقد حركها منه ماحركه منها ، ورأى بعينها ورات بعينه ، واخذت ترنو الى ابن سراج وعمامته وطيلسانه واسلحته تزيد صباحة وجهه وبهاء طلعته رونقا وجلالا ، ثم ثابت من دهشها الذي اصابها لاول وهلة فأشارت الى ذلك الغريب الديار ان يدنو منها وقالت له بلطافة وهشاشة تمتاز بها نساء تلك الاحياء : ايها السيد المغربي يظهر لي انك قادم جديداً الى غرناطة وربما كنت اضعت الطريق

فأجابها ابن حامد ايه يا مليكة الجمال وملك الجنان ونعيم العيون والنصرانية الحسناء التي فاقت عذارى الكرج لقد اصبتِ فاني غريب بهذه البلدة قد ضللتُ الطريق ما بين هذه القصور فلم اهتدِ الى خان المغاربة اسأل الله بحرمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يستعطف قلبكِ ويجزيك عن كلامك خيرا

اجابت الاسبانية ان المغاربة موصوفون بالكياسة والادب ، فأنا لستُ مليكة الجمال ولا حسناء اتبعني ايها الفارس فانني ذاهبة بك الى خان المغاربة. ثم تقدمته ومشت الى ان وصلت به الى باب الخان ودلته عليه باليد ثم رجعت من وراء مصنع هناك وتوارت عن العين

انتقلنا من الم الى الم آخر ولا راحة في الدنيا وانما هي سلسلة آلام. الآن ليس الوطن وحده هو الشاغل قلب ابن حامد ؛ وغرناطة لم تعد

وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو الهوى قلبي وهم بين أضلعي

ففي ذات يوم كان يفتش عن الاعشاب في وادي حدره وكان قصر الحمراء وقصر الجنراليف الى جهة الجنوب على تلك الحزون الاريضة وعلى أكمة لجهة الشمال محلة البيازين برياضها النضيرة ، وكهوفها التي كانت في الماضي معمورة، وعلى الطرف الغربي من الوادي قباب نواقيس غرناطة قائمة بين أدواح السرو والسنديان، ونحو الطرف الآخر الى جهة الشرق تسرح العين في مشاهد مختلفة من رؤوس صخور وأديرة ومناسك واخربة من بقايا البيرة القديمة . وعلى مسافة بعيدة من قنن جبل شلير ثم النهر المتسلسل عليه الطواحين والاشلة الثرارة ، وحنايا قناة رومانية دارسة وبقايا قنطرة من ايام العرب

وكان ابن حامد قد اصبح وسطا في حالته ، فلا هي شدة ولا هو رخاء، ولا هي سعادة ولا هو شقاء ، فلم يكن ممن يلتذ حينئذ بالانفراد فكان يتنزه على تلك الضفاف المريعة مرخيا للنفس عنانها في ميدان الحظ ، وبينما هو يهيم بين الغياض تبع صفا من الاشجار ممتدا على ربوة (البيازين) واذا ببيت في البرية احتفت به غيضة نارنج قد عرض له فاقترب منه حتى سمع صوت غناء وضرب آلة ، ولا يخفى ان بين اصوات الغيد وبين حركاتهن تناسبا لا يخفى على احد دلهه الغرام ، ففي الحال قال ابن حامد : هذه غادتي الحوراء ، ثم ألقى السمع والقلب مضطرب فسمع اسم « ابن سراج » مكررا فازداد خفقان قلبه، وكانت تلك الناعمة تغني زجلا قشتاليا في تاريخ بني سراج وبني الزغرى فعندها استرخى ابن حامد وغلب عليه الدهش ثم وثب فوق سياج من الريحان

To: www.al-mostafa.com

غائلة او يداري خطر الموت لكنه كان يرتعش فرقا من الفراق، وتستهل دموعه اذا تذكر البعد عن سلالة (الدون لذريق)

للمحبين من حذار الفراق عبرات تجول بين المآقي

وكانت (الدونا ادماء) سلالة بيت يتصل نسبه بسيدنا (بيفار) وامراته (شيمانة) ابنة الكونت (غو ماز دوغور ماس) وكانت سلالة فاتح (بلنسية) الغناء بما كوفئت به من الاعراض والغمط ونسيان الجميل من دار مملكة (فشتالة) قد وصلت الى حد الفقر ، بل قد مسها الضر ، حتى اختفى اثرها، ودرس ذكرها ، فظن انها انقطعت من شدة اهمالها في زوايا الخمول . لكن لعهد فتوح غرناطة نال أحد حفدة آل بيفار وهو جد ادماء شهرة معظمها مكسوب غير منسوب ، وأكثرها ثمرة جده ، لا بركة جده، فالملك (فرديناند) بعد إجلاء المسلمين أوسع له في الاقطاع من أملاك البيوت المغربية واقبه (بدوز صنتافي) فتمكن الدوق الجديد في غرناطة وتوفي في ريعان الشباب مخلفا ولداً وحيدا وهو والد بلانكا أو ادماء

وكان هذا الولد الوحيد يسمى (لذريق) وقد تزوج بالدونة (تيريزه دوكسيرس) فولدت له غلاما دعي (لذريق) أيضا لكن لقبوه (بكارلوس) تمييزا له عن أبيه ، وتعرض (الدون كارلوس) منذ حداثة سنه لشهود الحوادث الكبار ، وممارسة الخطوب الجلائل ، وركوب أثباج الاخطار ، فازدادت عنده بذلك رصانة طبع وصعوبة قياد مركوزتان في أصل الفطرة، فلم يكن تجاوز الرابعة عشرة من العمر حينما صحب (كورتيز) الى غزاة المكسيك وهناك اقتعد جميع الغوارب ، وحمل نفسه

ولما ذعر الفتيات الاسبانيات بغتة ابن حامد لهنّ في الغيضة النارنجية لدى سماع الالحان الشجية لمرغ الدون لذريق اليهنّ فقالت له ادماء يا أبتِ هاهو ذا الشريف المغربي الذي حدثتك عنه لقد سمع صوتي فعرفه ودخل الروضة يشكرني على ارشادي إياه الى طريقه ذلك اليوم

فلقي (دون صفاقي) ابن سراج لقاء قومه الاسبانيول بما اعتادوه من الرصانة في السذاجة، فانه لا يوجد عند هذا القبيل شيء من أطوار التذلل ولا يسمع من أحد منهم كلام يدل على إسفاف الهمة وتسفل النفس ، بل لسان الصعلوك المسكين منهم أشبه بلسان السيد الشريف ، والهمام الغطريف ، والسلام والحمد والعادات والاصطلاحات واحدة ، وعلى قدر ما عندهم من الامانة وحسن العهد وكرم الاخلاق والبر بالغريب، تجد عندهم من حدة الانتقام والاخذ بالترات والجزاء على الاساءة والخيانة ، قوم أولو بأس شديد ، وقلوب من حديد ، لا ينكسرون أمام البخت ، ولا يولون الادبار ، اذا لم تساعف الاقدار ، فلهم الصدر أو القبر ، لا يتصفون بفرط الدهاء ، لكن أهواءهم الشديدة وقلوبهم المشيعة ، تقوم لديهم مقام الافكار الثاقبة، والآراء الصائبة ، فتغنيهم نار الحميّة، عن نور الالمعيّة ، وقد يكون الاسباني قضى سحابة يومه لم يكلم انسيّ ولا رأى بشراً ولا مال الى الاطلاع ولا إلى الاستماع ولا قرأ ولا تبحر ولا قايس ولا استنبط ولكنه يجد في علو همته وسمو مقاصده وإبعاد مراميه المؤونة اللازمة لاستقبال طوارق الدهر

وكان ذلك في اليوم الموافق يوم ولادة الدون لذريق حيث احتفلت ادماء بعيد مختصر في ذلك المجلس الانيس بين الظل الممدود والماء العذب

وتلوح كمن أرادت نداء غائب، ثم تميل بجيد الغزال الاعفر دانية بخدها الورديّ الى أن يخال امكان تقبيله ، ثم تنهزم وقد صبغهـا الحياء بعندم ، وتعود ساطعة الوجه فتمشي مشية راسخ، وتتقدم كالجندي الباسل ، ثم تطير على ذلك المرج النضير وهي تناسب بين حركاتها وغنائها وأصوات العود ، وتجود بكل نغمة يترنح لها الجلمود ، زد على هـذا الموسيقى الاسبانية في طبيعتها بما اشتملت عليه من الايقاع المهيج ، والانشاد المحزن، والغناء المتقطع ، تجمع الاضداد من فرح وشجن ، وتقرن ورقاء ايك الى هزار فتن ، فكان في هذا العزف والرقص ما فيـه كفاية لتوطين نفس ابن سراج على الغرام ، بل ربما أثرت تلك العشرة في أربط منه جاشاً، وأقل انتعاشا ، وهوى ذلك الهوى بأثبت عزماً، وأوفر حلماً، وقد قيل :

أنا ان لم أهو غزلان النقا أيّ فرق بين قلبي والجماد

وعند الاصيل عادوا الى غرناطة من طريق وادي حدره وقد فتن (الدون لذريق) من آداب ابن حامد وكياسته ورجاحته ما زاد تعلقه به وملازمته له ، حتى كان يرتاح جدا الى مجالسته لادماء ومسامرته لها في أحوال المشرق (وكل بلاد الاسلام عند الاوروبيين مشرق) وكان السري المغربي أحب شيء اليـه اجابة دعوة الدوق ، بل ثاني يوم ذلك المجلس توجه الى الصرح ، الذي فيه ادماء أضوأ في عينيه من الصبح

واذا بادماء قد أخذ منها الهوى مأخذا شديدا مع ما كانت تظن من استحالة بلوغ الحب عندها الى هذا الحد ، فلقد كان يظهر لها ان الكلف برجل مسلم غريب الوطن مجهول الاصل من البعد عن الامكان ، بحيث لم تقاتله بشيء من أسنة التوقي ولم تقم دونه شيئا من استحكامات الاحتياط

هذه ولا اندحة أعز عليه منها.

وعند مجيء ساعة سيرهما الى الحمراء امتطت ابنة لذريق رمكة مطيعة سريعة عودتها تسلق الهضاب وملس الجنادل اعتياد المعز وصحبها ابن حامد على جواد أندلسي مطهم مسروج ومزين على نمط الاتراك ، وبينما كان يركض جواده كانت جبته الحمراء تنتشر وراءه، وسيفه الاحدب يصلصل على صهوته السامية، والهواء يعبث بعذبة عمامته، والناس يقولون عند مروره بهم هذا أمير من أمراء المسلمين تريد الدوقة بلانكة أن تهديه الى النصرانية

وأخذ بشارع طويل منسوب الى أحد البيوتات المغربية الشهيرة ينتهي الى سور الحمراء الخارجي فاخترقا غابة من ملتف الشجر وانتهيا الى عين ثم وصلا الى السور الداخلي قصر أبي عبد الله ، واذا بجدار عليه أبراج وله شرفات ينفتح منه باب اسمه باب الحساب، فولجا هذا الباب، وتقدما في طريق ضيق يلتوي بين جدران عالية ، وأطلال بالية ، ومن هناك أشرفا على دار الجب الذي مرّد (شراكان) بجانبها صرحا ، ومن ثمة انعطفا نحو الشمال ووقفا في ميدان أخلى من جوف العير حذاء حائط بسيط الصنعة أخنى على نضارته قدم الايام، فقفز ابن حامد على الارض ومد ساعده الى ادماء يعينها على النزول عن رمكتها ثم قرع الخادم بابا عتيقا قد اعشوشبت عتبته فانفتح الباب وظهرت في الحال سرائر الحمراء، وانبسطت دخائل ذلك البناء

ففاض قلب ابن حامد حنينا وتذكارا، وتنبهت عواطف الجنسية مع الحب ، ووقف صامتا ساكتا يدير لحاظه في ذلك المكان الجني، فخيل له أنه نقل الى مدخل أحد القصور الواردة أوصافها في أقاصيص العرب

من رواقات لطيفة، وأقنية رخام بديعة، منقوش عليها زهر النارنج والاترج، وسوح متفرقة تعرض من كل جهة للنظر، وعقود أبواب مستطيلة الشكل وذهاليز ذات لطافة ورونق يقصر القلم عن وصفها، وقد كانت زرقة لازوردية تظهر خلال الاساطين المعقودة فوقها القناطر والجدران المزخرفة أشبه ما يكون بالحلل الشرقية التي تطرزها الحرم، وبالاجمال فكانت تتأنق على تلك الاماكن السحرية، مسحة دينية، ممتزجة بهيئة عسكرية، وجلوة (؟) غرامية أشبه بخلوة عشق ومنتبذ مناجاة كان ملوك المغاربة ينغمسون بها في اللذات، ويسترسلون الى النعيم قبل أن خلت منهم الديار، وأجلوا الى ما وراء البحار

قصور خلت من ساكنيها فما بها ... سوى الادم تمشي حول واقفة الدمى
تجيب بها الهامُ الصدى ولطالما ... أجاب القيان الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى ... بها الوفد جمعا والخميس عرمرما

فبعد هنيهة قضيا فيها العجب ولازما الصمت دخل العاشقان مركز تلك الدولة الماضية، والسعادة الخالية، فطافا أولا في بهو «المسوكار» بين عرف أزاهر، وخرير نوافر

قصر لو أنك قد كحلت بنوره ... أعمى لعاد الى المقام بصيراً
واشتق من معنى الجنان نسيمه ... فيكاد يحدث بالعظام نشوراً
لو أن بالايوان توبل حسنه ... ما كان شيئا عنده مذكوراً
أعيت مصانعه على الفرس الاولى ... رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ... لملوكهم شبها له ونظيراً
تجري الخواطر مطلقات أعنة ... فيه فتكبو عن مداه قصوراً

يغازلون السذج من النساء. فلم يصغ ابن حامد الى قولها وجثا على ركبتيه ولثم بخشوع أثر دم آبائه، ثم قام وصاح : يا ادماء ودم هؤلاء الابطال لاحبنك حب ابن سراج في ثباته ووفائه وحرارة فؤاده. قالت له : تحبني اذن ؟ ثم ضمت إحدى كفيها الى الاخرى ونظرت الى السماء وقالت : أما إنه لا بد أن تتأمل انك رجل مغربي مسلم عدو، وأنا مسيحية اسبانية، قال ابن حامد : أيها النبي الكريم كن شهيداً علي فقطعت عليه ادماء الكلام وقالت له : أي ثقة لي في يمين من يعذب الهي(١) هلم تعلم ان كنت أحبك فمن ذا الذي أعطاك الامان أن تخاطبني بكلام كهذا ؟ فوجم ابن حامد ثم قال لها : حقا ما أنا الا عبدك وأنت لم تختاريني فارساً لك . قالت : أيها المغربي خفف عنك فانما الحيلة في ترك الحيل وأنت قد قرأت فوق لحاظي سورة حبك وفهمت أن جنوني بك فوق كل حد ، ألا فكن مسيحيا وأي مانع من أكون لك ؟ لكن اعلم أنه ان كانت كريمة (دوق صنتافي) تخاطبك بطلاقة كهذه فهي أيضاً اذا أرادت تمكنت من قمع شهوتها ولم تدع الهوى يتسلط على عقلها ودينها : ألا انه لن يمكن عدو المسيحيين أن ينال منها شيئا. فعندها أخذ ابن حامد بيدها وقد استطار الحب لبه ووضعها أولا على عمامته ثم على قلبه قائلا : ان الله على كل شيء قدير وابن حامد سعيد. ثم قال : عرف أيها الرسول هذه النصرانية دينك القيم ونور قلبها بنورك ولا شيء يمكنه(١) . . .

(١) هذا الكلام من مؤلف القصة الفرنسي مبني على مايظن بالمسلمين من انهم يطلبون من النبي (ص) مايطلب النصارى من المسيح عليهما السلام او من القديسين. والحق ان المسلمين لا يطلبون الهداية لانفسهم ولا لغيرهم الا من الله تعالى القائل في كتابه لنبيه (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء * انك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء)

قلدت جيدها اللآلي وما كا ن المحلي والله غير المحلى (١)

وهناك ابيات اخر ممحوة بتقادم العهد فقال ابن حامد كانت هذه الكتابة لاجلك ياملكة الحسن الباهر، وهذه القصور في شبابها لم تكن في الرونق التي هي عليه الآن في خرابها. اصغي الى خرير الماء الذي مال بمجراه الطحلب، انظري الى الجنان التي تلوح من خلال هذه الحنايا المتهدمة، والمحي كوكب الصبح الذي يغرب وراء هذه الابواب. تالله ماالحلى الطواف معك في هذه المقاصير التي تتعطر بانفاسك كما تتأرج باعراف الورد! ما ألذ حديثك الذي أجد فيه بعض نغمات لسان آبائي! مرورثوبك على المرمر يحرك كل عرق في فؤادي. إني لأجد النسيم معطرا بمس غدائرك، وأرى لك جمال الحور العين في هذه الجنان. لكن هل لابن حامد أن يتصرف بقلبك؟ من تراه هو عندك؟ لقد أتهم وانجد وعرف خواص أعشاب البرية لكن ليس معه إلا عشبة واحدة تشفيه من الجرح الذي جرحته. هو يحمل السلاح وليس بفارس. كنت أقول لنفسي سابقا ان ماء بحر الراكد في جوف صخرة بعيدة سالم من العواصف حال كون كل ما يجاور البحر الكبير أضعوبة للريح، فانت يا ابن حامد اعتزل الناس تكن ذا عيشة راضية، وتعش مجهولا في زاوية من الارض لا تتصرف بك الحوادث، حواشي الملوك تلعب بهم العواصف وتلقى ريحهم كل إعصار. كنت اناجي نفسي بمثل هذا ياأخت الروم لكن حققت لي أن الاعاصير تعصف أيضا بنقطة الماء المجهولة في جوف الصخرة البعيدة

وكانت أدماء كلها أذنا لهذا الكلام الذى لم تسمعه من قبل

(١) البيتان للمترجم

وكانت أساليبه الشرقية ومناهجه العربية تتآخى في غرابة المنحى ولطافة الذوق مع المكان الذي كانا يدوران فيه اذ المصدر واحد، فاجتمع عندها الشرق كله بيانا، وبنيانا واتسقت لديها القريحة العربية مقاما ومقالا، وكان الحب يلج قلبها من كل جانب وينيخ عليها بقوته حتى صارت تشعر باصطكاك ركبتيها ووهن عزمها عن القيام، وأخذت تميل بكل ميلها على حبيبها، فكان ابن حامد يحتمل بارتياح هذا الحمل اللطيف ويردد أثناء مشيه * ياليتني كنت قمى سراج * قالت له ادماء اذا لم تكن عندى كاليوم بل كان عذابي أشد ابق مجهولا عندى وعش لاجلي فكم من فارس شهير نسي الحب لاجل الشهرة (وكم ممن نسي الشهرة لاجل الحب) وقدم المجد على الوجد. قال ابن حامد لاتخافي هذا. قالت وكيف كان يمكن أن تهواني لو كنت سراجيا؟ أجاب نعم كنت احبك حبا فوق المجد ولكن دون الشرف. وكانت الشمس آذنت بالغروب أثناء نزهة العاشقين بعد أن طافا بالحمراء كلها متخاصرين كما قال

ثم خاصرتها الى القبة الحم ... راء تمشي في مرمر مسنون
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوّ ... اص ميزت من جوهر مكنون
واذا ما نسبتها لم تجدها ... في سناء من المكارم دون

فلله كم هاج مرأى تلك القصور من اشجان ابن سراج، واستورى من زند تذكاره شرر الالتهاب، خصوصا عند ماكان يتصور الملكة فلانة جالسة في هذا البهو يرتفع اليها من مخارم الرخام دخان مجامر الطيب وتوافح المسك، وفلانة الاخرى متبرجة بجميع حلي المشرق تتهادى بين الرياحين والازهار، هذا وادماء التي يعبدها عبادة المسيحي للعذراء كانت

هي نفسها تقص عليه تلك الاقاصيص

ثم طلع القمر فنشر حلته البيضاء على تلك الابهاء، ورسمت أشعته الفضية على نبات الحدائق وجدران المقاصير تخريم الابنية واعطاف السواري، وظل الماء الجاري، وحركات الاغصان المائسة بمرور النسائم، وكان لذلك منظر يأخذ بالابصار، والهزار يغرد في رأس شجرة سرو باسقة فوق قبة مسجد بال والصدى يجاوب، فكتب ابن حامد في ضوء القمر اسم ادماء على مرمر مملس في قاعة الشقيقتين نقشه بأحرف عربية ليزداد الزائر المتنزه سرا على سر في هذا القصر الكثير الاسرار

فقالت ادماء : ما أشد هذه النزهة علي! لنخرج من هذه الاماكن، آه ابنَ حامد لقد تقررت حالتي في هواك وقضى الله أمراً كان مفعولا، فاحفظ مني هذه الكلمات : أنا حبيبتك وخليمة فيك ولا أبالي ؛ فان تنصرت فأنا حليلة لك سعيدة بك ولا أبالي

اجابها ابن حامد : وأنا عبدك الحزين فان أسلمت فأنا بعلك المجيد

ثم خرج العاشقان النبيلان من ذلك المكان الخطير ، وصار هوى ادماء يشتد يوماً عن يوم ، وغرام ابن حامد يتزايد بدرجته ، وكان في نفسه معجباً جدا بكونه معشوقا لذاته لا لسبب آخر ، وان الذي أمال من غصن كريمة (الدوق صنتافي) لم يكن ناشئاً عن علة خارجية فانه لم يكشف لها سر محتده ، وكان يجد لذة لطيفة أن لا يعرفها باسمه الشريف إلا بغتة يوم ترضى به بعلا، لكن ما عتم أن ورد عليه كتاب من تونس ينبئه أن والدته قد أصيبت بمرض ممضل وقد أشفت فتريد عناق ولدها والرضى عنه قبل مفارقة الحياة ، فجاء ابن حامد الى قصر ادماء وقال لها:

مولاتي ان والدتي على شفا جرف الحياة وهي تدعوني لاجل أن أغمضها بيدي فهل أنت حافظة في المغيب ودادي ؟ قالت له ادماء : تفارقني أصفر اللون فهل أنا مشاهدتك بعد ؟ فقال لها ابن حامد : اتبعيني أبتغي منك يميناً لا يحل عقده الا الموت ، فخرجا ووصلا الى مقبرة كانت للمغاربة وهناك أعمدة صغيرة مطروحة كأعجاز نخل منقعر من أعمدة الضرائح على شكل عمائم العرب ؛ لكن الاسبانيول تبدلوا الصلبان بالعمائم ، فجاء ابن حامد بمولاته الى ما بين هذه العمد وقال لها : ههنا مراقد آبائي أقسم لك بعظام أولئك العظام اني أحفظ حبك الى يوم يبعثون ، الى يوم يدعوني الملك الى الحساب الاخير ، أعدك أنني لا أدخل قلبي حب سواك ، وانني أتخذك زوجا لي حالما يستنير قلبك بنور محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي كل عام أعود الى غرناطة في مثل هذا الفصل لأعلم ما اذا كنت لم تسلي ودي ، ولم تخفري عهدي ، وكنت أقلعت عن ضلالك القديم

قالت ادماء وأنا أنتظرك في كل عام وأحفظ لك الى الرمق الاخير من عمري العهد الذي عاهدتكه وأتخذك بعلاً لي حينما يكون رب النصارى الذي هو أشد حولا من حبيبتك قد تمكن من جذب فؤادك

ثم ودع كل منهما الآخر وللبكاء والعويل حديث طويل ، وركب البحر فألقته الرياح على شواطيء افريقية

في كنف الله وفي حفظه ... مسراك والعودُ بعزم صريح
لو جاز أن تسلك أجفاننا ... كنا فرشنا كل جفن قريح
لكنها بالبعد معتلة ... وأنت لا تسلك الا الصحيح

فوجد السيدة والدته قضت نحبها ، فأخذ يبكيها ويندبها ويقبل

نعشها ، ومضت على ذلك الايام ودرجت الليالي وهو يهيم تارة بين أطلال قرطاجنة ويجلس طوراً مطرقا فوق قبر مارلويس ملك الفرنسيس (دار ابن لقمان التونسية) ولا يزال ينتظر أوان رجوعه الى غرناطة حتى جاء ذلك الموعد فاستطلى ابن حامد ترى سفينة أدار سكانها نحول مالقة

فحدث ما شئت عن بهجته وطربه وخفقان فؤاده عند ما لاحت له أنوف بر اسبانية فهل يا ترى ادماء تترقب طلوعه على تلك الارياف؟ أو هل تذكر ذلك العربي الذي بقي متيما أثرها متبولا تحت نخيل الصحراء ؟ نعم ان ابنة الدوق لم تخفر عهده بل سألت والدها أن يصحبها الى ثغر مالقة وكانت من أعالي الجبال المشرفة على البحر تتبع بأبصارها قاصي السفين والاشرعة التي تبدو آونة وتخفى ، فاذا هاج عاصف اخذت تراقب البحر بوجل المحب على المحبوب ، فكانت تود لو تتجلبب حجب الغيم وتقتعد بساط الريح ، وتؤثر التعرض للخطر الاكيد ، وتهوى السباحة في ذلك البحر الهائج الذي يخشى منه على حياة الحبيب ، فاذا رات طائر البحر مصفقا يرف على وجه المياه قاطعاً نحو افريقية حملته من كلمات الحب ودعاء الهيام ما لا يوزن بميزان ، وزودته من عبارات الغرام المرسلة على السحية ما لا يخرج منه معنى منتظم ولا يصدر الا عن قلب توقدت فيه نيران الجوى

وبينما هي ذات يوم تتنزه على الرمل اذ ابصرت من بعيد ، فلكا مستطيلة عالية الجؤجؤ مائلة الصاري ، عرفت من قلاعها ولطف صنعتها أنها من سفن المغاربة ، فأسرعت ادماء الى المرسى واذ بالفلك المغربية قد دخلت الجون والبحر يرغي تحتها ويزبد من سرعة الجري ، وكان سيد

مغربي نبيه الثوب بادى السراوة واقفا على مقدم السفينة ووراءه زنجيان ماسكان بلجام جواد عربي كريم كان انتفاخ منخريه وانتشار معرفته دليلين على حدة طبعه وذعره من جلبة الامواج ثم وصلت السفينة وخفضت شراعها ولصقت بالمرفإ وهوت بأحد حرفيها فقفز السيد المغربي الى البر وقد سمعت صلصلة سلاحه ، واخرج الزنجيان الجواد المتنمر يصهل ويجمز عند وصوله الى البر ، ونزل عبيد آخرون معهم زنبيل فيه ظبية عفراء بين سعفان نخل ، ساقاها الدقيقان مربوطان ومطويان تحتها خوفا من ان تتكسرا من ارتجاج الفلك وكان فى جيدها عقد من حب عود الند ، وعلى قطعة ذهبية تصل بين طرفي العقد محفور اسم بالعربي وطلسم

فعرفت ادماء ابن حامدها لكنها لم تتجرأ ان تدنو منه امام الجماعة لئلا يخونها عزمها بل انفردت وارسلت (دوروته) احدى جواريها تقول للسراجي انها تنتظره فى قصر المغاربة ، وكان ابن حامد فى ذلك الحين يطلع حافظ البلدة على أوراقه . ثم اجتمع العاشقان فلا تسل عن فرح كل بصاحبه ! وعن بهجته برؤية محبوبه مقيما على العهد ! وكم من يمين تجددت على دوام العهد والارتباط . ثم قاد الزنجيان الحصان عليه بدلا من السرج جلد أسود مربوط بنطاق أرجوان ، وأتي بالظبية فقال ابن حامد : يامليكة الحسن هذه عنز برية من بلادنا هي من الخفة واللطف بدرجتك ، فمدت ادماء بيدها عقال ذلك الحيوان البديع ، وهو يرنو اليها كأنه يشكر صنيعها ، وكانت ادماء في غيبة ابن سراج قد ابتدأت بدرس العربي فلما نظرت الى طوق الغزالة قرأت اسمها عليه فبلل عينيها الدمع ، ولما فك عنها العقال ، كادت ساقاها لا تقيمانها من طول الاعتقال ، فاضطجعت

على الارض ،وأسندت رأسها الى ركبتي أدماء ،فناولتها سيدتها تمراً جديدا وأخذت تدلل هذه المنز البرية التي كان جلدها الرقيق قد حفظ طيب الند وعرف الورد من تونس

ثم سافر ابن سراج والدوق صنتافي وابنته الى غرناطة وقضى الصاحبان أيامهما بالمسرات والرغد كالسنة السابقة ، وكانا يتنزهان كالعادة وأوقاتهما بين حنين وتذكار ، وأسف على أوطان وأوطار ؛ وحب دائم ، وغرام ملازم ، بل متفاقم

ومع هذا فكل منهما مشتد في دينه ، متين في اعتلاقه حبل ملته ، فأدماء تقول لابن حامد : كن مسيحيا ، وابن حامد يقول لها : بل تحولي الى الاسلام ، ثم ينفصلان بدون أن يذعن احدهما للآخر

وفي السنة الثالثة كانت عودة ابن حامد الى اسبانية اوبة قواطع الطير التي تؤوب الى بلادها حنينا الى اوكارها ، نعم انه لم يجد ادماء على الشاطيء تترقب قدومه ، لكنه علم من كتاب بعثت به اليه ان والدها دوق صنتافي شخص الى مدريد وان الدون كارلوس شقيق ادماء وصل الى غرناطة وكان يصحب الدون كارلوس اسير فرنسي صديق له فلما قرأ النبيل المغربي الكتاب انقبض صدره وسار من مالقة الى غرناطة وهو كئيب سيء الظن في العواقب ، وكانت الجبال تبدو له اوحش من جوف حمار ؛ وهو يلتفت وراءه الى البحر الذي اخترقه

وكانت ادماء في غيبة ابيها لا تحسن فراق اخيها الذي كانت تحبه حبا شديداً وهو يريد التخلي عن جميع تركته لها ، وكان مقدمه عليها بعد غيبة سبع سنين ، وكان في (الدون كارلوس) جميع اعراق بيته

من البسالة وحمية الانف وعزة النفس وكأنه يقول :

لي نفس لا ترتضي الدهر عمرا وجميع الانام طرا عبيدا
لو ترقت فوق السماك محلا لم تزل تبتغي هناك صعودا
أنا من تعلمون شيدت مجدي في مكاني ما بين قومي وليدا

فتاكا سفاكا نظير سائر فاتحي أميركا ، دينا متشددا كسائر فرسان الاسبانيول الذين استخلصوا الاندلس لانفسهم بانتزاعها من أيدي المسلمين ، شديد العداوة لاهل الاسلام تراثا عن جده الملقب بالسيد (١)

وكان (توما دولو ترك) من آل (فواكس) البيت العريق ذي الحسب الصميم المشهور بشجاعة رجاله وجمال نسائه حلفا عن سلف والاخ الثاني لكونتة دو فواكس وللمقدام الشهير الصريع (أوده دو فواكس) سيد آل لوترك هو الاسير الفرنسي الذي حضر بصحبة الدون كارلوس وكان توما هذا قد لقب فارسا وسلحه بيار البطل الفرنسي المشهور في تلك الغزاة المشؤمة التي هلك فيها ذلك البطل، « غير هياب ولا وكل »، وما لبث توما أن سقط في تلك الواقعة مثخنا وقيداً ، وأخذ الى (بافيا) أسيرا وهو يناضل عن ملك الفرسان أو فارس الملوك الذي باء وقتئذ بخسران كل شيء « عدا الشرف »

وكان (الدون كارلوس دو بيفار) شاهدا اقدام الشاب (لوترك) وخوضه غمرات الموت فاعتنى بتضميد جراحاته وتكون بينهما هذا الوداد المتين الذي قلما تحصف حباله الا بين مثليهما من الانجاد الابطال مبنيا على

---

(١) هو لذريق سيد آل بيفار ولد سنة ١٠٤٠ وتوفى سنة ١٠٩٩ صحب شانجه ملك قشتالة ثم الاذفنش السادس واشتهر في جهاد المغاربة وهو بطل رواية كورنيل

قاعدتي الشرف والفضيلة ، وكان فرنسيس الاول قد رجع الى فرانسة وأبقى شرلكان في ربقة الاسر سائر الاسراء ، وحصل للوترك نصيب من شرف صحبة سلطانه في النكبة والقيام على خدمته في الغربة ، وحيث بقي في اسبانية بعد سفر الامبراطور فقد سلم الى الدون كارلوس بعهد منه وحضر به الى غرناطة

فلما وصل ابن حامد الى قصر الدون لذريق وأدخل الى الغرفة التي كانت فيها كريمة دوق صنتافي استشعر قلبه ضجرا وانكماشا لم يكن يعهدهما الى ذلك اليوم، وذلك أنه رأى حذاء الدونة بلا نكه شابا جالسا ينظر اليها صامت اللسان منشرح الصدر وكان ذلك الشاب مرتديا تبانا من جلد الجاموس مشدودا بمنطقة علق بها سيفا من طبع بيت ملك فرانسة ومشتملا ببرنس حريري وقد تقنع بقبعة دقيقة الاطراف مظللة بالريش، ولبس وشاحا محزما محمولا على صدره يظهر عنقه من ورائه، وهو ذو سبال سود كلون الابنوس الحالك تستشف منها الرجولية والبسالة مع اللطف والرقة، وكان منتعلا خفا منثنيا حول رجله وله مهماز من ذهب شعار الفروسية

وهناك فارس آخر منتصبا على رجليه متوكئا على قائم سيفه وهو بزي الفارس الاول لكن الظاهر عليه أنه أعلى منه سنا وكانت تلوح على معارفه الحماسة والشدة مع التزمت والوقار ، وكانت علامة الصليب الاحمر المسمى بقلمة رباح مطرزة فوق تبانه مكتوبا بجانبها هكذا «له وللملك» فلما أبصرت ادماء ابن حامد صاحت من حيث لم تشعر قائلة : أيها الفرسان ها هو ذا المسلم الذي طالما حدثتكم عنه احذروا أن يكون له السبق فان بني

سراج الاولين كانوا كلهم من هـذا الطراز ولم يكن أحد يفوقهـم في الامانة والاستقامة والكياسة والشهامة ، فتقدم الدون كارلوس نحو ابن حامد وقال له : أيها السيد المغربي قد عرفت من والدي وشقيقتي اسمك واللائح عليك كرم المحتد وسراوة الاصل. وأنت بذاتك لك مزية اللطف والرقة ، فقربيا مولاي الامبراطور شرلكان يغزو تونس وهناك تتلاقى في مجال واسع للمجد، فوضع ابن حامد يده في حجره وجلس محـدقا في ادماء ولوترك، وكان هذا كثير التطلع كطبيعة الفرنسيس، فأخذ ينظر الى جبة الشريف المغربي واسلحته الباهرة ويرنو الى جمال طلعته بابتهـاج عظيم ، وأما ادماء فكانت في غاية الارتياح الى مرآه والاهتشاش له وعيناها تترجمان عن ذات صدرها ، وكانت هذه الاندلسية الحسناء صادقة الوداد لا تحاول كتمان جواها ، ولا تداجي في سر هواها

وأفرطت من وجدي به فدرى بنا على ساعة اللقيان من لم يكن يدري
وما الحب ما وريت عنه تستراً ولكنه ما ملت فيه الى الجهر (١)

وبعد هنيهـة من سكوت علا ذلك المجلس قام ابن حامد فاستوى أمام بنت الدون لذريق ثم انحنى وانصرف فأذهـل لوترك ما رأى من حالة المغربي مع أدماء وخامره عارض شك صار عن قريب يقينا

فبقي الدون كارلوس منفردا مع شقيقته فالتفت نحوها وقال لها : ادماء خبريني لماذا ظهر عليك التغير والاضطراب عند رؤية هذا الفارس الغريب ؟ قالت له : يا أخي اني أحب ابن حامد ولا أبالي وان صبأ عن ديانته فأنا حليلة له

---

(١) هذان البيتان للمعرب ايضا

قال كارلوس : ماذا تقولين؟ تهوين ابن حامد ؟ فتاة آل بيفار تحب مغربيا مسلما غريبا عدو انحن قد طردناه من هذه القصور؟ فقالت ادما أيها الدون رويدك أنا أحب ابن حامد وهو يحبني وهو منذ ثلاث سنين يتركني ولا يترك دينه، رجل فيه الشرف والشهامة والفروسية واني لمغرمة به مولهة عليه الى آخر نفس من حياتي

انك والاحتفال في عذلي غير مقيم زيني ولا مَلي
بلى ان اسطعت أوقدرت فخذ من خابل سلوة لمختبل

وكان الدون كارلوس ممن يقدر عزم ابن حامد قدره وان كان في نفسه آسفا من هيامه في أخته، فقال لها : الى أين يسوقك هذا الحب فلقد كنت أملت أن صاحبي لو ترك يصير أخا لي ،

قالت له ادماء : أخطأت فيما ظننت لا يمكن لي أن أحب هذا الغريب، وأما صبابتي بابن حامد فليس لاحد أن يناقشني عليها الحساب، وأما أنت فاحفظ عهد الفروسية مع صاحبك كما أحفظ عهد الحب مع صاحبي، لكن كن على يقين لاجل عزاء نفسك أن ادماء لا تنكح أبدا غير رجل مسيحي . قال لها كارلوس : اذا فأسرتنا تتلاشى من على وجه الارض قالت : عليك أنت باستحيائها ،وبعد فماذا يهم ولد لا تراه عينك ولا تسري اليه خلائقك؟ انني لأخشى أن نكون آخر سلالة بيننا ،فاننا قريبو العهد بالطبقة العامة ولا أمل لي أن ينجب لنا نسل من بعد ، لقد كان (السيد) مبدأ أسرتنا وربما كان السيد آخرها . ثم خرجت ادماء من حضرته

فمضى الدون كارلوس الى ابن سراج وقال له : يا مغربي دع عنك

أختي أو سر معي الى البراز .قال له ابن حامد : هل أنت مكلف من جهة أختك أن تستعيد العهود التي آتتها لي؟ قال كارلوس : حاشا هي أعظم ما كانت لك حبا و بك ولها. فهتف ابن حامد: مهلا أخا ادماء سأنشد ضالة سعادتي كلها بين دمك ولحمك ، واظفر بأمنيتي في منيتك ، فيا سعد ابن حامد ويا يمن طائره اقد كنت ظننت وبعض الظن اثم ان أدماء خفرت ذمتي حبا بهذا الفارس الفرنسي . فصاح الدون كارلوس وقد كاد يخرج من ثيابه وهذا هو بلاؤك أيها الغر ،فان (لو ترك) صديقي ،ولولاك كان الا ن أخي، وأنا أريد أن أقتص منك عن الدموع التي استذرفتها محاجر أهلي

قال ابن حامد : لبيك لكن مع كوني سلالة قوم ربما يكونون قد قاتلوا آباءك، فلست من الفرسان ولا أجد هنا من يعطيني العلامة التي تجعل برازك معي غير حطة في قدرك

فبهت الدون كارلوس من تنبيه المغربي و نظر اليه من طرف أخزر وقد اختلط منه العجب بالغضب وقال : ها أنا ذا اسلحك فارسا فأنت أهل لذلك فانحنى ابن حامد أمام الدون كارلوس فعانقه وأمر صفحة سيفه ثلاث مرات على منكبيه ثم قلده نفس هذا السيف الذي ربما أغمده السراجي في أحشائه وهكذا كان الشرف القديم

ثم امتطى كل منهما جواده وخرجا من عمارة غرناطة قاصدين عين الصنوبر وكانت مبارزات المسلمين والنصارى قد جعلت لهذه العين شهرة وذكرا حقبة من الدهر

وهناك كان مالك العباس (رحمه الله) قد تبارز مع (بونش) دوليون وصاحب قلعة رباح قد فتك بأبي يادوس، وكانت لاتزال قصد وبقايا من

أسلحة الفارس المغربي معلقة بأغصان الصنوبرة ولم يزل ظاهراً على لحاء الشجرة بعض أحرف كتابة قديمة فدل الدون كارلوس ابن سراج على قبر أبي يادوس وقال له : اقتدبهذا المسلم الفحل وخذالنصرانية أوالموت من يدي . أجابه ابن حامد أما الموت فربما أخذت وأما النصرانية فلا اله الا الله محمد رسول الله

ثم تحفزا وتواثبا كأنهما ليثان حردان ولم يكن في أيديهما غير السيوف فكانا كما قيل

اذا رأيت ليثاً رام ليثاً هزبراً اغلباً لاقى هزبراً

وكان ابن حامد أقل مرانا على النزال من الدون كارلوس لكن مضاء نصاله المشحوذة في الشام وخفة جواده العربي الصريح جعلا له الرجحان على دون كارلوس فرمى بجواده على عادة المغاربة وقطع بركابه العريض الحاد جنب حصان الدون كارلوس الايمن من تحت الركب فلما جرح الحصان هوى تحت فارسه كالبناء المشمخرّ اذاسقط فنهض الدون وتقدم نحو ابن حامد والسيف مشهور في يده فقفز ابن حامد عن ظهر جواده وصدم الدون كارلوس صدمة عنترية متلقيا ضربات الفارس الاسباني الاولى الى أن تكسرت نصاله على النصال الدمشقية وصار الفارس المغربي هو الاعلى وانقلب الدون يحرق الارّم غيظا ويبكي حنقا وهو يصيح بقرنه: ضربا أيها المغربي ضربا يطير فراش الهام . الدون كارلوس أعزل يدعوك نزال أنت وكل قومك

قال ابن سراج : لو تمكنت لما أبقيت علي أما أنا فخاشا أن يمر ببالي أن أدمي فيك جرحا

وقال له يعز علي أني أراك معفراً شطراً فشطراً
واستحي المروءة أن تراني قتلت مناسبي جلداً وقهرا(١)

ولذلك أمسكت ، وقصاراي ان أفهمك أنني جدير بأن اكون أخاك ، وأن لا أظل صغيراً في عينك ، فلم يكن كلا ولا حتى أبصرا عن بعد عجاجة سوداء واذا بلوترك وادماء ممتطين عتيقين من خيل فارس تسابقان الغزلان قد أقبلا على عين الصنوبرة وقد كف القرنان وارتفع النزال ، فقال الدون كارلوس : أنا المغلوب وحياتي من عند هذا الفارس الملك يا ادماء أسعد مني حالا ؟ فقال لوترك بدون عنف ولا كبر : ان جراحاتي تأذن لي أن أرفض البراز مع هذا الفارس الكريم ، ثم قال وقد علت الحمرة وجهه : لا أريد أن أقف على سبب ضغينتكما واستطلع سرا ربما كان فيه حتفي بل قريبا يكون غيابي عنكم داعيا للسلام فيما بينكم ، هذا اذا لم تأمر ادماء بأن أبقى بين يديها

قالت له ادماء : أيها الفارس ابق ما شئت عند أخي وأنا أختك ان جميع من حواهم هذا المكان منطوو الجوانح على سلّ فتعلم منا احتمال آلام هذه الحياة الدنيا

وكان متصد ادماء أن تصلح ذات بين الفرسان الثلاثة فرفض كل من ثلاثتهم الصلح وصاح دون كارلوس : لا أحب ابن حامد ، وقال لوترك : أما أنا فأغبطه ، فقال ابن سراج : أما أنا فأحترم الدون كارلوس وأرثي للوترك ولا أحب الاثنين

قالت ادماء : لنبق معاً والاحترام جالب الحب . وأسأل الله أن

(١) من قصيدة بشر تشطير محمد قبادو التونسي

قد زاوجت فى ذلك المكان فن البنـاء القوطي ولم تفقد شيئاً من طلاوتها بل زادها هذا الاقتران فخامة وضخامة تقضيان بزيادة التأمل، ولم يكن سوى مصابيح معدودات تنير زوايا الدهاليز الا ان المذبح لم يزل لامعا بأشعة الشموع وقد تلألأ بالذهب وما رصع به من الجواهر، ولا يخفى ان الاسبانيول يبذلون جميع ما تملك ايديهم ويجردون انفسهم من كل نفيس لاجل زينة اماكن عبادتهم ، فتجد صورة الاله منصوبة وراء السجوف المحزمة البديعة بين اكاليل الدر واضاميم الياقوت

ولم يكن يوجد كرسي واحد في وسط الحظيرة بل كان مقعد من المرمر مغطى به بعض التوابيت لاجل جلوس الكبار والصغار ، فتقدم ابن حامد رويدا رويدا في صحن الكنيسة الذي كان صداه يجيب حركة مشيه وكان خاطره منقسما بين الذكر والحنين بما تهيجه فيه رؤية هـذا الاثر القديم الباقي عن المغاربة وبين الاحساس الذي كانت ديانة المسيحيين ابتدأت تولده فيه

ثم وقعت منه التفاتة نحو احدى الاساطين فأبصر حذاءها شبحا ساكنا جامداً ظنه تمثالا فوق ضريح فدنا منه فاذا بفارس غض الشباب ريان الاقتبال جاثيا على ركبتيه يداه مشتبكتان على صدره . فلم يُنبض دنو ابن حامد منه عرقا ، ولم يخالج طرفا، وكان من استغراقه في الصلاة لا يلتفت ولا ينعطف ، وسيفه بجانبـه على الارض . وقبعته المراشة موضوعة على الرخام قريبا منه. وكان يُخال انه راكز على هذه الصورة بفعل سحري ،وكان هذا الفارس هو لوترك بعينه فقال السراجي عند رؤيته فى نفسه : لا بد ان يكون هذا الشاب الفرنسي ضارعا الى الله

ان النزاع الذي طيّ جوانحي يهدم اركان وجودي ، وإن هواك الذي ولّه فؤادي لايقوى على احتماله نحيف جسمي ، فانظر رعاك الله أيها المغربي واتق الله في أعز الناس لديك، إن النار التى تشعل الجذوة هي التى تجعلها رماداً منثورا

ناهيك من حرق أبيت اقاسى ... وجروح حب مالهن أواس
إما لحظت فانت جُؤذرُ رملة ... واذا صددت فانت ظبي كِناس
قد كان مني الحزن غبّ تذكر ... اذ كان منك الصبر غبّ تناس
تجري دموعي حين دمعك جامد ... ويلين قلبي حين قلبك قاس
اسمعت عاذلة فهل طاوعتها ... ورأيت شانئة فهل من باس

ثم دخلت ادماء الى الكنيسة وغادرت ابن حامد مطرقا أسفاً من كلماتها الاخيرة ، ولقد هم مرة اخرى أن يصبأ عن معتقده ، وطالما نازع نفسه وشاغب عزمه ، إلا أن حرصه على حياة أدماء كان في نفسه فوق كل حرص ومن دونه كل عزيز ، وكانت عنده علق الاعلاق ، ثم كان يناجي نفسه قائلا: لعل رب النصاري هو الحق وعلى كل الاحوال هو معبود نفوس شريفة عالية كأدماء والدون كارلوس ولوترك

وكان ابن حامد تائها في بيداء الافكار ينتظر بأمرّ الصبر انبلاج الصباح ليأتي ادماء فيكاشفها بما عقد عليه نيته ويتبدل بحياة غم دائم ، ودمع سائل، عيشة راضية ، وحالة هادية ، فلم يتمكن من الذهاب الى قصر دوق صنتافي إلا في المساء ، فاخبر أن ادماء ذهبت الى قصر الجنراليف حيث كان (لوترك) قد أعد وليمة فهاجت ابن حامد خواطر جديدة وجد في أثر حبيبته حتى اذا أقبل عليهم توردت وجنة (لوترك) وهجس في ضميره

ولما أتم لوترك غناء البيت الاخير كفكف بقفاز يده عبرة استذرفتها من عينه ذكرى بلاده الطيبة، وأوطانه البهجة، وابن حامد يقدر الوطن قدره، ويفهم معنى فراقه، بما يقيسه على نفسه، اذ كلاهما غريب، وكلاهما شاعر بألم فراق الاوطان، فطلب منه الغناء والضرب على العود فاعتذر قائلا إنه لا يعرف إلا زجلا واحداً ربما لا يحلو سماعه عند النصارى. فقال له الدون كارلوس ان كان غير المؤمنين يئنون ويتوجعون من غلبنا عليهم فلك أن تغني فان للمغلوب رخصة في البكاء

قالت ادماء نعم ولذلك ترك لنا آباؤنا الاولون الخانعون لسلطان العرب كثيراً من المراثي

فغنى ابن حامد هذه الموشحة التي حفظها من أحد شعراء بني سراج (*

انما الطاغي (جوان) قدما طالما من فوق اجرى فرس
ارتقى فوق الرياض علما فرأى غرناطة الاندلس

***

بلدٌ قال له اذ خطبه للولا ياحبذا من بلد
اجعل المهر لديك قُرطبة واوليك فؤادي ويدى
وكذا اشبيلية وشاطبه وسواها من حُلى وعدد
زينة فاخرة وانما دراً زاهية في الملبس
كلُّ ذا ابغي به مقدما للهوى وحلية للعُرس

***

جاوبت غرناطةٌ قولا متين أيها الاعظم تملك المغرب
كن على علم باحوالي يقين إنني قرينة للمغربي

(١) روعيت مطابقة الشعر الاصلي بقدر الامكان

دع هداياك مع الحلي الثمين الموشى والطراز المذهب
انني اغنى واسنى مغنما وطراز من نفيس انفس
ان لي ابناءَ صدق كرما وحواليّ نطاق الحرس

***

قد كذبت وحنثت في اليمين وجعلت خيبة في نفس راج
وتركت اليوم ذا العلج الامين حاكما في ملك ابناء سراج
هكذا قدّر رب العالمين ليس فيما قدّر الله علاج
لن ترى بعدُ النياق الرُّسما في طريق الحرم المقدّس
حاملات الحاج عادوا للحمى وهو من أوبتهم في انس

***

حقاً العلجُ قد استولى على ارض ابناء سراج غلبا
ايه ياحمراء يا أفق العلى أيها القصر المسامي الشهبا
جنة العيون والعين ولا مثل نهر باللاجين انسكبا
ان علجاً مارقا لج وما زال حتى صار وسط المجلس
نال ميراث سراج قسما خطّ ذا في اللوح باري النفس

فرق لهذا الرثاء حتى قلب الدون كارلوس التارز رغما عما تضمنه من لعن الاعلاج وكان يتمنى اعفاءه من الغناء لكن تأدبا مع لو ترك التزم الاجابة فأخذ العود من يد ابن حامد وانباع يترنم بمديح (السيد) جده الاعلى

تأهب السيد يبغي في العرب غزو السواحل
وقد تلألأ بدراً في مطلع البدر كامل

امسك عوداً يغني امام شيمان زاجل
شعراً غدا وحيه من سما الشهامة نازل
أوحته شيمان قالت للغرب فاذهب وقاتل
قاتل عداتك وارجم للنصر والغنم نائل
لو كنت آثرت حبا على العلى والفضائل
لكنت تعبد حسني ولست تسمع عاذل
هات الاسنة والبـ ـيض وزرق المناصل
سيعلم القوم قلبي وما به من شواغل
وفي القتال اذا ما ضججتُ بالسيف صائل
يكون صوتي لعرضي وللعلى اذ انازل
يامغربيا تباهي برقة في الشمائل
ضجيج صوت النصارى على لحونك دائل
يكون يوما لاهل اسـ ـبانيةٍ أيَّ خابل
فالحب والمجد فيه كلاهما بات مائل
غدا باعطاف واذي اندلس في المحافل
ترى شيوخ النصارى يروون عني الجلائل
جعلت روحي فداء اوردت عمري الغوائل
لله والملك والمجـ ـد وتاج العقائل
فقل ألا في سبيـ ـل الكمال ماأنافاعل (١)

---

(١) هاتان القصيدتان هما تعريب قصيدتين فرنسيتين في الاصل بقلم المعرب

وكان الدون كارلوس عند انشاده هذه الابيات معجبا مترنما بصوت جهوري رنان حتى كأن السيد بعث من قبره. وأما (لوترك) فشاطر صاحبه تلك الخيلاء وهاتيك الحماسة، وامتقع لون ابن سراج عند سماعه اسم السيد ثم قال ان هذا الفارس الذي يلقبه النصارى بزهرة الوقائع هو مشهور عندنا بالقسوة والجسو فلو كان حلمه على مقدار بأسه لكان ...

فقطع عليه كارلوس الكلام قائلا : حلمه كان يفوق بأسه ولم يكن إلا لمغربي مثلك أن يهجو بطلا اليه منتمى أسرتي وعشيرتي

فقال ابن حامد وقد قفز عن المقعد الذي كان مضطجعا عليه : هل تعد السيد من أجدادك ؟

قال الدون كارلوس : إن دمه ليجري في عروقي وانني لأعرف نفسي من هذا الدم الزكي الطاهر بما أحس به من الشنآن لاعداء الهي وديني

قال ابن حامد لادماء : اذاً يا أخت الاسبانيول أنت من بقية ال بيفار الذين بعد فتح غرناطة أغاروا على منازل بني سراج المساكين وفتكوا بفارس منهم ممن كان يذب عن قبور أجداده

فصاح الدون كارلوس وقد كاد يتميز من الغيظ : اعلم أنه لاسبيل لسؤالي وان كان في يدي الآن سلب بني سراج فان أهلى ملكوه بثمن النجيع الاحمر، ولم يجنوه إلا من ورق الحديد الاخضر، قال ابن حامد : أستزيدك علما لقد جهلنا بمكاننا من البعد والتغريب أن آل بيفار تلقبوا في غيبتنا بصنتافي، وهذا ما أدخل علي الوهم

قال الدون : نعم وان بيفار هذا غالب بني سراج هو الذي منحه فرديناند الكاثوليكي هذا اللقب

فأطرق ابن حامد بين الدون كارلوس ولوترك وادماء وهم في دهشة منه ثم انحدرت سيول الدموع من ما قيه على الخنجر المعلق بنطاقه ثم قال لهم : عفواً ليس للرجال ذرف الدموع ، ولن تستعبر عيني بعد ، وان بقي عليها بكاء كثير ولكن اصغوا لمقالتي:

ادماء حبي لك يحكي حرارة السموم الهابة في بادية العرب. كنت متيمابك لا أقدر على الحياة بدونك، وما كان بالامس من رؤية هذا الفارس الفرنسي مصليا خاشعا ومن كلماتك لي عند المقبرة كاد يحملني على الاعتراف بربك وتأدية يمين الامانة بين يديك

فلم يتم ابن حامد هذه الفقرة حتى تهلل وجه ادماء سروراً ، وظهر الدهش على دون كارلوس، وحجب لوترك وجهه بيديه، فعرف السيد المغربي كنه حركته وهز رأسه وتبسم ابتسام اليائسين الذي يحرق الفؤاد ويقطع الاكباد

ثم قال : أيها الفارس لا تصرم حبل رجائك، وأنت يا ادماء اندبي الى الابد آخر بني سراج

ففي الحال رفع كل من ادماء والدون كارلوس ولوترك جميعا أيديهم الى السماء وهتفوا « آخر بني سراج »

ثم علت السكينة المجلس وأخذت عواطف الخوف والامل والبغض والحب والدهش والحسد كلها تتناهب قلوب الحاضرين. ثم جثت ادماء على رجليها وقالت : أيها الرب الكريم لقد عرفت عدالة قلبي ونبل حبي فما كنت ممن يعشق الا سلالة الابطال

فصاح الدون بأخته وقد أحفظه قولها: اذكري أنك بحضرة لوترك

فقال له ابن حامد : كارلوس اسكن جأشك فأنا وحدي منقذك مما أنت فيه، ومريحك مما تعانيه . ثم انعطف نحو ادماء وكانت جلست ثانية وقال : ياحوراء الجنة وجنية الحسن سيكون ابن حامد تيماً لك الى آخر نسمة من حياته . لكن اعلمي شدة مصابي وعظيم خطبي ، فان الشيخ الذي أجهز عليه جدك — وهو يناضل دون عقر داره، ويذب عن حريمه — هو جدي . ثم اعلمي سراً آخر أخفيته عنك أو أذهلتني عنه وهو أني عندما جئت لاول مرة زائراً هذا الوطن كان من جملة عزمي الاستقصاء عن أحد بني بيفار أداقه الحساب عن دم آبائي الذى أهرقه آباؤه

قالت له ادماء بصوت حزن ورنة كآبة لكن مع جلد النفس الكبيرة : وما هو قصدك الآن ؟ قال ابن حامد : العزم الاجدر بك أن أرد لك عهودك ومواثيقك ، وأوفيَ بغيبتي المنقطعة حقوق العداوة بين قومي وقومك ووطني ووطنك . لكن ان امحت صورتي من فؤادك ، أو أخنى على ذكراي الزمان الذى يخني على كل شيء ويذهب بكل شيء ، فيكون هذا الفارس الفرنسي . . . ويكون هذا الفداء كله من أجل أخيك

فقام لوترك وألقى بنفسه بين ذراعي الشريف المغربي قائلا له : يا ابن حامد لا تظنن أنك تغلبني في المروءة والكرم ، أنا فرنسي قلدني بيار سيف الفراسة، سفكت دمي أمام مليكي ، وسأكون مثل مولاي وأميري لا أخاف الموت ، ولا أرضى العار ، فان شئت أن تبقى في هذه الارض رجوت لك من الدون كارلوس أن يزوجك أخته ، وان رحلت عن غرناطة فان يزعج محبوبتك مني أنة حب ولا زفرة جوى، فلا تذهب

ظانا أن(لوترك)لقلة احتفاله بالمروءة ومبالاته بالعهد طمع في الاستفادة من بلائك ، وعمد الى الاتصال بما قطعه عنك حسن ولائك

وأخذ هذا الفارس يعانق ابن حامد ويضمه الى صدره بجميع ما ركب في طباع الفرنسيس من اللجاج والحرارة

قال الدون كارلوس : أيها الفارسان الكريمان ما كنت لانتظر صدور أقل من هذا عن مثل سلالتكما السرية،وأعراقكما الزكية،لكن يا ابن حامد بأي علامة أوقن أنك حقا آخر قوم سراج ؟

قال ابن حامد : تعلم ذلك من سيرتى

ومن يستبن أصلي ونجدى فدونه خلائق مثل الروض كلل بالزهر
نقاء كماء المزن في صلب سيرتى وعفة نفس دونها عفة الزهر
وان حياتى كيف حاولت كلها لمتترك بين الشهامة والفخر
فذا بحر أنسابى فعالي دليله وليس يكون الدر الا من البحر(١)

قال الدون : انني لمعجب بها جدا لكن هل لك ما عدا ذلك أن تطلعني على اشارة أخرى الى نسبك الكريم ؟

فأبرز ابن حامد من تحت نطاقه شجرة نسب بني سراج التي يحملها معه معلقة بسلسلة من ذهب

فعندها مد الدون يده وصافح ابن حامد قائلا : أيها السيد الفارس الغطريف أنت عندى الرجل الصادق ، سلالة الملوك ، وثمالة الابطال، ولقد شرفتني بما كاشفتني به من أفكارك ومطوى عزمك فى حق بني بيفار أسرتى ، وها أنا ذا أقبل البراز الذى كنت آنيا في طلبه فان خرجت

---

(١) للعرب

حسب عادة مدافن المسلمين وماء المطر يجتمع فى هذا الجرن الصغير فترتوي منه بنات تلك السماء المحرقة طير السماء

اقصرَ سراج لا عزاءَ لمغرم ... ولا قصر عن دمع وان كان من دم
أفي كل عام لا تزال مروّعا ... بفذّ نعيّ تارة أو بتوأم
مضى أهلك الأخيار الا أقلهم ... وبادوا كما بادت أوائل جرهم
فصرت كعش خانته فراخهُ ... بعلياء فرع الاثلة المتهشم
احب بنوك المكرمات ففرقت ... جماعتهم فى كل دهياءَ صيلم
تدانت منايام بهم وتباعدت ... مضاجعهم عن تربك المتنسم
فكل له قبرٌ غريب ببلدة ... فمن منجد ناتي الضريح ومُتهم
قبور بأطراف البلاد كأنما ... مواقعها منها مواقع أنجم
بتونس الخضراء قبر ابن حامد ... بعيداً عن الباكين في كل مأتم
تشق عليه الريح كل عشية ... جيوبَ الغمام بين بكر وأيّم(١)

انتهت القصة ويتبعها الذيل

---

(١) الابيات للبحتري وانما بدلت فيها بعض الفاظ بما يوافق المقام

ذيـــل

(لرواية آخر بني سراج)

فيه خلاصة فى خاتمة تاريخ العرب فى الاندلس

تمهيد

انما حدا بي الى تذييل هذه الرواية أمران : الاول إعانة القاريء على فهم الحوادث ومعرفة المواقع بما تفقد بدونه لذة المطالعة ، والثاني ما رأيته من اختصار جرم الرواية فآثرت إردافها بذيل يطيل من قدها ويزيد في حجمها ، ويكون فيه من حقائق الوقائع التاريخية، ما لا يقصر فكاهة عن موهوم الرواية الغرامية، فجاءت روايتنا ذيّالا وان لم نرج أن تكون طاووساً ، وليست هذه أول مرة جرت فيها الروايات أذيالا ، واتخذت القصص عصاعص طوالا

وما أقصد بهذا الذيل استقصاء تاريخ الاندلس الاجمالي الا ما اضطر اليه مساق الكلام، فقد كنت منذ نشأتي ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال ، كأنما اعده تكراراً لسابق أو اعادة لصدى ؛ وخلواً من كل براعة. وأخبار الاندلس مستفيضة في التواريخ شرقا وغربا ومعروفة عند الادباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب ، وانما يستحب الانشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعز البحث وطمست الاعلام ، فاذا قرأته العامة بل الخاصة سقطت منه على جديد ذي طلاوة ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الاخرى مدارسة كتب القواعد التي لا تتغير

فأشد الاقسام عوزاً الى البحث من تاريخ هذه البلاد — التي لا

نزال نحسبها عربية لـكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها — انما هو القسم الاخير واحوج طائفة من أخبارها الى التدوين ما تعلق بدور الجلاء وعصر الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة سنة،لان هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الاسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية ، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة عند معشر الناطقين بالضاد ، ولدى اقحاط البلاد بالادمغة المتوقدة ، وعقم الامة عن الرؤس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة فانه لا عطر بعد عروس

نعم لا أنكر أن (كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب) للعلامة المقري هو من أوفى الكتب بأخبار الاندلس وآدابها : حقيبة أنباء، وقطر حوادث وخزانة آداب، وكشكول لطائف وديوان أشعار، وقد كان عهد تصنيفه على إثر النازلة الكبرى بباقي الاندلس واقتصاص سؤر الكأس وعفاء الاثر الاخير من سلطان المسلمين فيها بحيث أمكن لصاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة واستيلاء الاسبانيول على الجميع وختم الدولة الاسلامية في تلك الديار، ولكنه ككثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الاشياء، ولا ينتبهون الى قاعدة أن الحسن انما هو تناسب الاعضاء، فقد بحث في هذا الخطب الجلل والحادث العمم بحثاً هو دون حقه بدركات، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسطة البال من الوقائع التي أشار اليها في بطن كتابه واستوعبه في أوراق يسيرة كانت لطافتها في كثافتها، فان التناسب يقضي باعطاء كل مقام من المقال ما يكافيه ويقوم بحقه ويجيء على قدره. ولو فسح الفاضل المقري

رحمه الله لواقعة سقوط مملكة غرناطة وحادث انقراض أمر الاسلام بالاندلس ما فسحه في تاريخه للنثر الكثير الذي يغني عن كله بعضه من المخاطبات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب أو وجهت اليه أو الى غيره، أو الشعر الغزير الذي كثير منه حقيق بالاسقاط من ذلك المجموع، أو القصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول اناة غريب في الاستقصاء، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم الى السماء، لكان ذلك أجزل فائدة وأسنى وقعاً، وكانت الناس قد شفت غليلها من خبر هذه الطامة التي لكل الحوادث سلوان يسهلها وليس لها سلوان كما قال أبو البقاء الرندي، ولكفينا مؤنة النقل عن كتب الافرنج فيما يختص بالعرب، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبد الله بن الاحمر وعمه الزغل وذهاب تلك المملكة وما جرى في ضمنه من الحروب وما حصر من المدن في مسافة من التاريخ استوعبت أطول منها رسالة واحدة صادرة عن ذلك السلطان الى الشيخ الوطاسي صاحب فاس في موضوع ابرد ما فيه مع طوله انه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالاندلس على يده بأن الخطب غير نادر المثال وان بغداد دار خلافة بني العباس قد اصابها ما أصاب غرناطة، فانظروا هل هذا مما يؤثر على طوله، او مما ترتاح الانفس لى قبوله، على فرض صحة تمثيله؟ وان كان العذر في ذلك ما يقال من ان صاحب النفح قد ألفه وهو نضو اسفار خال من الاسفار، ليس لديه من العدة ما يستعين به على الاطالة والاخذ بالاطراف، فسبحان الله كم يتلهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع، عن تعلق ما ينفع؟ وهذا الفاضل المقري قد املى عن ظهر قلبه اربعة مجلدات كبار اودعها من

التاريخ، الجغرافية والقصص والنكات وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوف غثا وسمينا، ما لا اظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغين، وتركنا في التاريخ المهم من تفصيل الوقائع الشداد والمارك التي سالت فيها انهر الدماء في دور المنزع الاخير عيالا على الافرنج مضطرين الى الاخذ عن مصنفاتهم، فكنا وإياهم في اخذ تاريخنا عنهم كما كنا في اخذ لغتنا عن صحاح الجوهري(١)

ولا نشك ان في ديار المغرب من التواريخ عن كائنة الاندلس الاخيرة ما يستوفي شرحها، ولكنه لم يشتهر عندنا في المشرق غير (نفح الطيب) من متأخر تآليف وهذه الحال معه، فلاعجب ان ساقنا حب الاستقصاء واقتفاء اثر أبناء الجلدة الى اخذ اخبارنا عن الاجانب وتلونا: (هذه بضاعتنا ردت الينا)

الفصل الاول

﴿ في ذكر بني سراج الذين تنسب الى آخرهم هذه الرواية ﴾

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الاندلسيين عند الافرنج وأبعدهم صيتا وقد يتوهمونهم لعهد دولة بني الاحمر في غرناطة بمقام العشيرة الثانية للاسرة المالكة ويعزون اليهم الوقائع ويبنون عليهم القصص والحكايات ومن جملتها قصة الملكة التي من بنات ملوك غرناطة علقت بحب أحد

« ١ » يعني أخذ العرب لغتهم عن الجوهري وهو أعجمي النسب ولكنه صار من العرب لغة وأدبا ودينا وكتابه الصحاح احد معاجم اللغة وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغني عنه وليس فيه شيء لا يوجد في غيره

شبان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال وضربت له موعداً للقاء في احدى خلوات القصر الشهير بالحمراء فاجتمعا ساعة هي بالعمر اجمع « وقد كانت كذلك » يتناجيان ويتغازلان ولكنهما بُغتا وهما على تلك الحالة ونمي امرهما الى السلطان فاستشاط غضبا واستحضر لديه اكثر رجال بني سراج وأمر بضرب اعناقهم في المكان المسمى بقاعة الاسود من حمراء غرناطة فقتلوا جميعا، ومن خرافات الاسبانيول أنه لم يزل يسمع لرؤسهم صدى عند خفوت الاصوات وانسدال حجب الظلام وهو صدى المقتولين بغيا وظلما (١)

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى أن بني سراج عشيرة نبيلة في غرناطة ترعى لهم قضايا يطول شرحها في المناظرة مع بني الزغري من قبيل الروايات، والتاريخ لا يعرف بني سراج سوى وزراء عند سلاطين بني الاحمر نصروا محمد الاعسر على ابن أخيه محمد الصغير فلما تولى هذا منذ سنة ١٤٢٧ فتك بقسم من بني سراج فذهب رئيس العشيرة ملتجئاً الى ملك قشتالة وقد أشارت الى واقعة قتلهم بعض الاغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامة التي فت ذهابها في اعضاد المغاربة وبكوها طويلا . اهـ

وأما بنو الزغري هؤلاء فيظن انه تحريف عن بني الزغبي نسبة الى قبيلة زغبة وأن البنغاس في رواية شاتوبريان يريد بهم مكناسة لكونها من القبائل الكبار كما تنطبق عليه اشارة صاحب الرواية وفي التحريف المعتاد في اسماء

«١» في دائرة المعارف الفرنسية الاسلامية يميل الى ان هذه الاسرة هي من قرطبة هاجرت الى غرناطة ونظن ان واقعة هذا القتل حصلت في زمان أبي الحسن علي الذي تولى من سنة ١٤٦١ الى ١٤٨٢

وبالاجمال فكثير من هذه الاحاديث الغرامية في الشرق وفي الغرب هو من اوضاع أهل القصص خصوصا الجانحين منهم لهذه المشارب لما هو مركوز في فطرة القراء ولاسيما العشاق المستهترين من الميل الى مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأسيا بها فيما هم عليه من التهتك والمجون واسترسالا بعدها الى الشهوات ولولم تكن قصص العشق أعلق الكلام بالقلوب وأميل الاحاديث بالنفوس لما كان السواد الاكبر يؤثرون مطالعة الاقاصيص الغرامية في هذه الايام حال كونهم يعرفونها من اوضاع القرائح وخيالات الاذهان والفرق بين هذه وبين تلك في لذة المطالعة فرق مابين الواقع والموهوم

وأما مانعرفه عن بني سراج من الكتب العربية فقد ورد في النفح عند ذكر انساب الاندلس وأصول القبائل التي نزلت بها جالية عن المشرق قوله: قال ابن غالب بنو سراج الاعيان من أهل قرطبة ينتسبون الى مذحج ولم يقل انهم من غرناطة فلعلهم انتقلوا الى غرناطة بعد انتقال قرطبة الى الاسبانيول وذكر صاحب مطمح الانفس رجلا يقال له ابن سراج في ترجمة الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد قال انه كان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان، وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا بأس من ايرادها وهي انه كان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره يجلس فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لمة من اخوانه ، هم يقتطفون من نخب آدابه واذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها وأمامها طفل كأنه غصن آس وهي متنقبة خائفة ترتاد موضعا لماجاة

ربها ، وتبتغي مكاناً لاستغفار ذنبها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولت سريعة وتولت مروعة ، خيفة أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ؛ فلم يغن عنها تواريها شيئاً لانه حال مانظرها ، قال قولا فضحها وشهرها ، وهو :

وناظرة تحت طيّ القناع ... دعاها الى الله للخير داع
سعت خفيـة تبتغي منزلا ... لوصل التبتل والانقطاع
وجالت بموضعنا جولة ... فخلّ الربيع بتلك البقاع
أتتنا تبخترُ في مشيها ... فخلت بواد كثير السباع
وريعت حذاراً على طفلها ... فنادبتُ ياهذه لا تراعي
غزالك تفرق منه الليوث ... وتنصاع منه كماة المصاع
فولت وللمسك من ذيلها ... على الارض خطٌّ كظهر الشجاع(١)

وورد في المطمح أيضاً في ترجمة الاديب أبي بكر عبد المعطي انه كان مرتسماً في عسكر قرطبة وكان ابن سراج يتأنى له في كل ما يبتغي خيفة من لسانه ، ومحافظة على احسانه ، فلما خرج الى اقليش خرج معه ؛ وجعل يساير من شيعه ، فلما حصلوا بفحص سرادق ، وهو موضع توديع المفارق للمفارق ، قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه ، وانشده في تفرق الشمل وانصداعه :

هم رحلوا عنا لامر لهم عنّـا ... فما أحدٌ منهم على أحد حنـا
ومارحلوا حتى استفادوا نفوسنا ... كأنهم كانوا أحقّ بها منا
فياساكني نجد لتبعد داركم ... ظننّا بكم ظنّا فأخفقتم الظنـا
غدرتم ولم أغدر وخنتم ولم أخن ... وقلتم ولم أعتب وجرتم وما جرنا

(١) الشجاع اسم نوع من الحيات

وأقسمتم ان لا تخونوا أخا الهوى فقد وزمام الحب ختم وماختنا
ترى تجمع الايام بيني وبينكم ويجمعنا دهر نعود كما كنا

ومما ورد أيضاً في النفح من ذكر بني سراج عند ترجمة الوزير الرئيس العلامة ابن عاصم الغرناطي انه من جملة من أخذ عنهم الامام القاضي أبو القاسم ابن سراج وقوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضا ومما خاطب به شيخه قاضي الجماعة بغرناطة أبا القاسم بن سراج وقد طاب الاجتماع بهم زمن فتنة فظن انه يستخبره عن سر من أسرار السلطان وهو هذه الابيات نه

فديتك لا تسأل عن السر كاتباً فتلقاه في حال من الرشد عاطل
وتضطره إما لحالة خائن أمانته او خائض في الاباطل
فلا فرق عندي بين قاض وكاتب وشي ذا بسر أو قضى ذا بباطل

وورد أيضا عند ذكر العلامة ابن مرزوق ان من تآليفه العديدة (المعراج ،في استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج)في كراسة ونصف أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية

ويستدل من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين ان بني سراج الذين تكثر من انتنويه بهم الكتب الافرنجية هم قوم الاستاذ المذكور لكونه من أهالي المائة التاسعة للهجرة زمن الجلاء الاخير الذي اشتهروا به عند الافرنج، على انني لم أعهد الا ماندّ عن محفوظي أثراً غير ما ذكرت لبني سراج الغرناطيين المتأخرين، وأنت ترى انهم هناك من حملة السيف وهنا من حملة القلم، ولا عجب فقد طالما اجتمعا في البيوتات العريقة، وتقارنا في العشائر النبيلة، وبنو سراج ممن قرنوا السيف الى القلم، وجمعوا الحكم الى الحكم، فاحرزوا كثيرهم من هذه العشائر الشرف بطرفيه، والتحفوا المجد بطرفيه ،

الفصل الثاني

(في ذكر مملكة غرناطة محل وقوع الرواية)

قال المقري : ومن أشهر بلاد الاندلس غرناطة ـ وقيل ان الصواب أغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانة ـ وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها (هو لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وزير بني الاحمر أشهر من أن يعرف به) وقال الشقندي : أما غرناطة فهي دمشق بلاد الاندلس، ومسرح الابصار ومطمح الانفس ، ولم تخل من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها. وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته: وما لمصر تفخر بنيلها، والف منه في شنيلها. ولا يخفى أن الشين في جمل المغاربة عددها ألف. وفي غرناطة قال الشاعر:

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هي إلا العروس تجلى وتلك من جملة الصداق

وقال صاحب منهاج الفكر: إن كورة البيرة التي منها غرناطة تسمى دمشق قيل لان جند دمشق نزلوها عند الفتح وقيل لشبهها بدمشق في غزارة الانهار، وكثرة الاشجار، وقال : لما استولى الفرنج على معظم بلاد الاندلس انتقل أهلها اليها فصارت المصر المقصود ، والمعقل الذي تنضوي اليه العساكر والجنود. وقال ابن بطوطة وهو الاولى لكثرة ترحاله أن لا تزدهيه بلاد: فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن، الى أن قال عند ذكره

وذكر بعض المتأخرين : أن قرى غرناطة مائتان وسبعون قرية(١) ومن أعمالها قطر لوشة وهو قطر عظيم يحتوي على كثير من الحصون والقرى والمزارع وقاعدته لوشة وبينها وبين غرناطة مرحلة وهي مبنية على نهر الشنيل أيضا وتحف بها البساتين والرياض، والى لوشة ينتسب سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي يقول ابن خلدون فيه — وناهيك به من شاهد — : إنه كان الصدر المقدم في الشعر والكتابة في عصره

ومن أعمال غرناطة باغة وعامة الاندلس يقولون بيغة وهي بلدة طيبة غزيرة المياه كثيرة الثمار منها وادي آش ويقال وادى الاشات وهي مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين وجرت فيها الانهار ولاهلها مزية في الادب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار:

وادى الاشات يهيج وجدى كلما ... اذكرت ما أفضت بك النعماء
لله ظلك والهجير مساط ... قد بردت لفحاته الانداء
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منه فتطرف طرفها الافياء
والنهر يبسم بالحباب كأنه ... سلخ نضته حية رقشاء
فلذاك نحذره الغسون فيلها ... أبداً على جنباته إلقاء

ومن أعمال وادي آش حصن جايانة وهو مدينة واليه ينسب التفاح الجليانى المشهور

وحيث كان مقصدنا هنا أن نذكر من بلاد الاندلس ما تعلق بالرواية

(١) من جملة قري غرناطة التي ورد ذكرها في الاحاطة للسان الدين بن الخطيب قرية اسمها حارة عمروس وفي طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس وفي مصر بلدة اسمها عمروس وفي الشويفات بغرب لبنان مسقط رأس هذا العاجز حارة اسمها العمروسية فليتأمل القاريء الى وحدة العربية شرقا وغربا مع تباعد الديار.

أو ارتبط بالحوادث التي استوفيناها في الذيل تاريخا لجلاء المسلمين عن ذلك القطر العظيم نقول على وجه الاجمال

إن علماء الجغرافية من العرب قسموا تلك البلاد الى موسطة وشرق وغرب أما الموسطة فهي ذات القواعد المهمة التي كل منها مملكة مستقلة مثل قرطبة وطليطلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة، فمن اعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة والبسانة والقصير وغيرها. ومن اعمال طليطلة وادي الحجارة وقلمة رباح وطلمنكة وغيرها . ومن أعمال جيان ابذه وبياسة وقسطلة وغيرها ، ومن اعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة وباغة وغيرها . ومن اعمال المرية أندرش وغيرها ومن اعمال مالقه بلش والحامة وغيرهما

هذه أواسط الاندلس فأما الشرق ففيه من القواعد مرسية ودانية وبلنسية والسهلة والثغر الاعلى فمن اعمال مرسية أوريولة والقونت ولورقة وغيرها . ومن اعمال بلنسية شاطبة الذي يعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر . ومن اعمال الثغر الاعلى سرقسطة وكورة لاردة وكورة نطيلة وكورة وشقة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب وكورة برطانية وكورة باروشة. وفي كل من هذه الكور مدن وحصون وقرى لا تحصى ولدانية والسهلة اعمال واسعة أيضاً.

وأما غرب الاندلس فهو اشبيلية وماردة واشبونه وشلب. فمن اعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبلة. ومن اعمال ماردة بطليوس و بابرة ومن اعمال اشبونة شنترين . ومن اعمال شلب شنتريه ويلحق بعمل اشبيلية جزيرة قادس .

هذا وقد انطوى تحت كل عمل من الحصون والقرى والدساكر ما نترك وصفه لمؤرخي الاندلس ونجتزىء عن تفصيله بما قرروه من أن طول الاندلس نحو ثلاثين يوما وعرضها تسعة أيام ويشقها أربعون نهراً كباراً وبها من القواعد الكبار ثمانون ومن المدن المتوسطة أزيد من ثلثمائة وفيها من الحصون والابراج والقرى ما لا يدخل تحت الحصر حتى قيل ان عدد القرى التي على نهر اشبيلية اثنتا عشر ألف قرية

وحيث قد ذكرناها هذا على وجه الاجمال نقول إن المدن التي كانت باقية في يد الاسلام حين الجلاء أهمها بعد غرناطة المرية ووادي آش ولوشة ومالقة وبلش مالقة والحامة واندرش وشلوبانية ورندة والمنكب ما عدا الحصون والقلاع التي تربو على المئين

ولما كنا قد ذكرنا وصف غرناطة كان لا بد من وصف المرية المدينة الثانية لمملكة ابن الاحمر فهي على ساحل البحر وفيها دار الصناعة للمراكب ولها القلعة العظيمة المنسوبة الى خيران مولى المنصور بن أبي عامر الذى كان قد تولاها وفي كورتها معادن الحديد والرخام، وطول واديها اربعون ميلا، وكله جنات وبساتين، ولم يكن في بلاد الاندلس أكثر مالا ولا أوسع تجارة من أهل المرية وقيل انه كان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف وقيل كان بها لنسيج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول وللثياب الجرجانية والاصفهانية وللمعاجر البديعة والستور المسكلة الوف من الانوال، وكان يصنع بها انواع آلات الحديد والنحاس ويصنع بها لزجاج الانيق ويحصن شنش على مرحلة من المرية التوت الكثير وهناك الحرير والقرمز. وحصي المرية كالدر في رونقه يحمل الى

العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم وساحلها محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى . (قلت) ومازال تين مالقة مضربا للامثال حتى قيل انه يجلب الى الهند والصين وحتى جعله أبو الحجاج يوسف البلوي المالقي حيانه فقال :

مالقة حييت يا تينها السفن من أجلك ياتينها
نهى طبيبي عنه في علتي ما لطبيبي عن حياتي نهى

وقال ابن بطوطة : مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها الى بلاد المشرق والمغرب. وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصي البلاد . ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهير وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارنج البديعة اه

وأما بلش مالقة فعليها مسحة من مالقة في طيبها وهذه أمهات مدن غرناطة ودرر سلكها ولو شئنا استقصاء أعمالها وتقري جهاتها بالوصف والتنويه وحاولنا تتبع كور الصقع وبقاعه والدخول في ثنايا حصونه وقلاعه لضاقت علينا الكتب برحبها، كيف لا والاندلس جنة العرب وفردوس نعيمهم ومرمى غايات خيالهم ، وقد جرى في وصفها من المداد ، مالو توزع لوسع سائر البلاد ، وردن دونها ارم ذات العماد، وحسبك أن هذه المدن الاخيرة كانت سورا في الكان، وخصاصة ما في الكرم، ومع ذلك فلتعدد أسباب دفاعها، واستحكام طرق أقتناعها وغزارة مواد أجلابها لم يزل أمل

*

وأما تاريخ فتح غرناطة فينتهي الى فتح سائر الاندلس على يد طارق ابن زياد فان طارقا لما هزم لذريق ومزق جموعه وحاز أمواله وتسامع الناس من بر العدوة بالفتح الذى تم على يده اقبلوا اليه من وراء البحر وتكاثفوا حوله فارتفع الاسبانيول عند ذلك الى الحصون والقلاع، ولحقوا بالجبال، فطرق طارق حصونهم فاستنزلهم منها قسرا، أرهقهم ذلا وعسرا، وأوغل فى البلاد فقذف الله الرعب فى قلوب الاسبانيول، فلم يثبتوا فى موقف، وصمد طارق الى طليطلة قاعدة ملكهم، وأرسل مغيثا مولى الوليد ابن عبد الملك الى قرطبة. وسرح جيشا الى مالقة وجيشا آخر الى غرناطة مدينة البيرة فافتتحوا مالقة ولاذ علوجها بجبالهم التي صارت فى الدهور الخالية ملجأ للمسلمين ورجعوا الى البيرة فحصروا اهل بيتها غرناطة فافتتحوها عنوة وضموا اليهود الى قصبتها، وكان ذلك لهم سنة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين استنامة اليهم من دون الاسبانيول لما بينهم من العداوة، ثم إن العرب أخذوا بالرحيل الى الاندلس والوفود على تلك البلاد من كل ... ولا سيما عرب الشام فلما كانت ولاية أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي من قبل حنظلة ابن صفوان عامل افريقية سنة خمس وعشرين بعد المائة كثروا عنده في قرطبة فلم يحملهم المصر ففرقهم في البلاد وكان سديد الرأي وافر الحزم فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين، وأهل الاردن رية ومالقة وسماها الاردن، وأهل فلسطين شريش وسماها فلسطين،

وأهل مصر تدمير وسماها مصر، وقيل ان بها نهرا له شأن كشأن النيل في الفيضان في فصل مخصوص .

ولما أفلت عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الاموي الملقب بالداخل سنة ثمان وثلاثين ومائة شريدا من المشرق واقتطع الاندلس عن المنصور العباسي نزل بساحل المكب بادىء بدء، وهناك وافاه أحزابه والقائمون بدعوة الاموية من أشبيلية ورية بالبيعة وأخلصوا المناصحة وانضم اليه اليمانية فنهد إلى قرطبة مقر الوالي يوسف ابن عبد الرحمن الفهري وكان غازيا في الجلالقة فأسرع الاوبة وزحف اليه عبد الرحمن فتلاقى الجمعان بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجأ الى غرناطة وتحصن بها ثم تصالحا على أن يبقى عبد الرحمن في قرطبة أميراً ثم نكث يوسف العهد واستؤنفت الحرب فانهزم الفهري واحتز رأسه وجيء به إلى عبد الرحمن واستوسق له الامر ودانت لطاعته البلاد ولمن بعده من أعقابه، على تزايد في صولتهم، وتأثل من سلطانهم، وكانت غرناطة كغيرها من الامصار يخفق فوقها اللواء الاموي حينما لم يكن غيره راية، ولا دونه خلافة، إلى أن اضطرب حبل الامر واتين بالاندلس، وانتزى عليهم المنصور ابن أبي عامر كافل الخلافة (١) واغتاله وقاموا بالدولة العامرية وعاقدوا

---

(١) هو الملك الاعظم المنصور أبو عامر محمد بن عبدالله بن عامر بن أبي عامر ابن الوليد بن يزيد بن عبدالملك المعافري من أجل ملوك الاسلام، وامضى سيوف محمد عليه الصلاة والسلام، لم يرو عن أحد زيادة عمار وي عنه من الهمة في الجهاد والاعمال في الغزو وتردد السرايا الى العدو حتى انه غزا ستا وخمسين غزاة لم تنكس له فيها راية، ولا فل له جيش، وما أصيب له معه وما هلكت له سرية. وقيل انه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته كلها فلم يأخذوا عنه بالمناديل حتى

بالتناوب ، وكان هذا عند منهم كل من استجاش به توسيما للذكاية فيما بينهم ، وكر المهدي على قرطبة يكشف عنها المستعين ، ومن ثم تفرقوا في البلاد للعيث والفساد ، فخرج المهدي في أثرهم ومعه ابن الاذفونش فاجتمعوا لهما وكروا عليهما فانهزما بمن معهما من الاسلام والنصرانية ، ودخل المهدي قرطبة مدحوراً ويئس من الفوز ، وأما خرج هشام المؤيد الخليفة كان قبل الفتنة ، وأقام في حجابته ظناً بأن ذلك يجمع الكلمة ويقل من غرب الفتنة فلم يقف ذلك بعزم البربر والمستعين صاحبهم وأداموا الحصار فقام عامة قرطبة وقتلوا المهدي بحجة انه هو سبب الفتنة فلم يجدهم ذلك في التنفيس عن خناقهم وبقي المستعين يحاصرهم حتى دخل قرطبة ومن معه وقتل هشام سراً ، وعاث البربر في الحضرة ونهبوها ، انزلوا المعرة بذوي الصون والستر من بيوتاتها ، ثم وثب البربر بعد هذا الغلب على المدن العظيمة فولوها ونزل زاوي المقدم الذكر بغرناطة من القواعد وهي محل الشاهد ، اتخذها داراً ومعتصماً له ولقومه ثم خشي ثورة الاحقاد ووثوب أهل الاندلس على البربر فقفل الى المغرب ولحق بقومه في القيروان واستخلف على غرناطة ابنه فحدث بينه وبين الغرناطيين ما اوجب انتقاضهم عليه فبايعوا حبوس ابن عمه فتأثل أمره وصار من اعظم ملوك الطوائف بالاندلس وبعد وفاته سنة تسع وعشرين واربعمائة ولي ابنه باديس ولقب بالمظفر وزحف اليه العامري صاحب المرية لقيه باديس بظاهر غرناطة فهزمه وقتله وتمت شوكته وعظم سلطانه حتى خطب نصرته جميع ملوك عصره واستنجده محمد بن عبد الله البرزالي في دفاع ابن عباد واستمده الظافر بن ذي النون في محاصرته أيضاً وشاء باديس في غرناطة القصور ومرّد الصروح . وسنة

تسع وأربعين عند انقراض بني حمود أصحاب مالقة أضافها الى عمله وتوفي سنة سبع وستين وخلفه حافده عبد الله بن بلكين بن باديس وعقد لاخيه تميم على مالقة وكانت ظهرت دولة المرابطين وأجاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى الاندلس ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين فقبض على عبد الله بن بلكين وأخيه تميم ونفاهما الى بر العدوة وانزلهما السوس الاقصى فهلكا وانقرضت بهما تلك الامارة

رجع الى أخبار قرطبة

لما استقام الامر للمستعين بوساطة البربر خرج علي بن حمود الحسني وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فاس من المغرب وأجازا الى الاندلس وادعيا الخلافة واعصوصب حولهما البربر ونصروهما على المستعين الاموي صاحبهم الاول فقتلوه وتلوا عرش بني امية سبع سنين ، وجرى بينهم اثناء هذه المدة حروب ووقائع ليس هنا محل شرحها وتلقبوا بالقاب الخلفاء وتغلبوا على الامصار ، لكن لم تطل مدتهم فان آخرهم كان الواثق توفي سنة خمسين وكان أهل قرطبة أعادوا الخلافة الى نصابها وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي ولقبوه بالمستظهر وبعد شهرين من خلافته ثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر واتبعه العامة ففتك بالمستظهر واقام مكانه ولقب بالمستكفي وهو والد ولأدة الادبية الشهيرة صاحبة المطارحات مع الوزير ابن زيدون رحمهما الله . وبعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الامر الى المعتلي يحيى ابن علي بن حمود وكان أهل قرطبة أكثر الناس تشغيبا

وأقلهم ثباتا على الامور فخلعوا المعتلي وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد ابن جهور كبير قرطبة لهشام بن محمد الاموي أخي المرتضي وكان في (لاردة) عند ابن هود ولقب بالمعتمد بالله ولم يصبروا عليه فوق ثلاثة أعوام قضى أكثرها متردداً في الثغر حتى خلعوه سنة ٤٢٢ وانطوى بساط الدولة الاموية وانتثر سلك الخلافة وصار الامر الى رؤساء وزراء وقضاة استقل كل منهم بما أمكنته يده وصار يتظاهر بعضهم على بعض بملوك الافرنج ويستجيشون بهم في الاحايين ويمكنونهم من حصون المسلمين طعمة على الاستظهار وايثاراً لهوى الانفس على مصلحة الملة

ومن أشهر هؤلاء الملوك الذين تلقبوا بملوك الطوائف بنو عباد من سلالة المنذر بن ماء السماء اللخمي كانوا ملوكا بأشبيلية وغرب الاندلس وانتزعوا قرطبة من يد بني جهور أصحاب الوزارة. وأشهرهم المعتمد بن المعتضد الشهير بالادب والبراعة، والموصوف بالكرم والشجاعة، الذي نكبه في آخر أمره أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان قد استفحل أمره بالاندلس وعلت يده على بقية ملوك الطوائف وخطبوا نصره وغلوا في رضاه، وما زال إقباله في ازدياد وجده في صعود، حتى أسره بن تاشفين في خبر سيأتي ونكبه النكبة التي ضرب بمثلها التاريخ بعد نكبة البرامكة وتوفي مسجونا باغمات سنة ٤٨٨ ومن ملوك الطوائف بنو ذي النون أصحاب طليطلة وقد بلغت دولتهم غاية قصية من الاستفحال والترف وجاهدوا في الثغور جهاداً كان الصبر مقامه وغلبوا المعتمد بن عباد على قرطبة وقتلوا ولده أبا عمرو ونزعوا بالمنسية من يد ابن أبي عامر الى أن أدرك دولتهم الضعف لعهد القادر بن ذي النون، واستلم بن الاذفونش منهم طليطلة

مقر ملكهم وشرط المظاهرة عز أهل بلنسية فأجابوه، وتغلب الاسبانيول على الارض واكتسحوا بسائطها، وقادوا أعنتها، وأذلوا عتبها، وفي ذلك قول بعضهم يندب طيطلة :

لشكلك كيف تبتسم الثغور ... سروراً بعدما مُسَّت ثغور
أما والبي مصابُ هد منه ... تبيرُ لدين فاصل اشبر
لقد نصبت ظهور حين قالوا ... أمير الكاشحين له ظهور
ترى في الدهر مسرور بعيش ... مضى عنا لطيته السرور
أبس بها أبيُّ النفس شهم ... يدور على الدوائر إذ تدور
لقد خضعت رقاب ممكن لما ... ونزل عنوها مضي الغرور
وهان على عزيز القوم ذل ... وسامح . الحريم في غير
طليطلة أباح الضد منها ... حماها ان ذا نبأ كبير
فليس مثالها إوان كسرى، ... ولا منها الخورنق والسدير
بمنة حصنة بعيد ... تناولها وطيبها عسير
ألم تك معقلا للدين صعبا ... فذاله كما شاء المدبر
وأخرج أهلها منها جميعاً ... فصاروا حيث شا بهم مصير
دهتك دهر ليتاز ولم ... ماذا التي طلست قتير
مساء دهاك ليس أي قلب ... على هذا يبرد ويطمئن
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا ... يكرر ما تكررت الدهور
لينتركل حر ليس يطوى ... لى يوم يكون به النشور
أدلت قاصرات الطرف كانت ... مصونات مساكنها القدور
وأدركها فنون الظبا ... لسرب في لواسنه فتور

مضى الاسلام فابك دما عليه فما ينفي الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقا في فلاة حيارى لا تحط ولا تسير
ولا تجنح الى سلم وحارب عسى أن يجبر العظم الكسير
أنعمى عن مراشدنا جميعا وما ان منهم الا بصير
ولو أنا ثبتنا كان خيراً ولكن ما لنا كرم وخير
اذا ما لم يكن صبر جميل فليس بنافع عدد كثير

ومن ملوك الطوائف بالاندلس بنو هود أصحاب سرقسطة واشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وكان المؤتمن قائما على العلوم الرياضية وله فيها تصانيف وابنه المستعين أحمد هو الذي هزمه الافرنج في واقعة (وشقة) وقتل من المسلمين يومئذ نحو عشرة آلاف واستشهد المستعين بظاهر سرقسطة سنة ٥٠٣ وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة وهو الذي اجلاه العدو عن سرقسطة سنة ٥١٢ وولي ولده سيف الدولة وله في الجهاد الموقف الذي لا يخفى . ومنهم بنو الافسط ملوك بطليوس الذين منهم المظفر صاحب التأليف المسمى بالمظفري في خمسين مجلداً وهم المرثيون برائية ابن عبدون المشهورة التي مطلعها

الدهر يفجع بعد العين بالاثر فما البكاء على الاشباح والصور

وذلك عند فتك البربر بالمتوكل البطليوسي . ومنهم بنو صمادح بالمرية ومنهم مجاهد العامري بدانية والجزائر ومنهم بنو حيوس بغرناطة مكان الحاجة من الاستشهاد هذا ولما تكالب الاسبانيول على بلاد المسلمين في الاندلس واهتبلوا الغرة بما كان من افتراق الكلمة وتشعب السلطة وملكوا بلنسية وطليطلة وسرقسطة وغيرها وسار طاغيتهم حتى وقف

بفرضة المجاز من طريف وضرب على ملوك الطوائف انواع الجزى فأدوها واعطوه المقادة وكان اضخمهم ملكا المعتمد بن عباد اللخمي صاحب اشبيلية يؤديها وهو صاغر فلما تملك الاذفونش طليطلة أرسل اليه المعتمد المعتاد فلم يقبله هاتيك المرة وارسل يطلب منه النزول عن جميع الحصون المنيعة وتبقى السهول للمسلمين والا فهو يزحف الى قرطبة، وكانت الرسالة مع جمع وافر نحو خمسمائة فارس، فضاق المعتمد ذرعاً واعتزم القيام ففرق الجماعة على قواد عسكره وامرهم بأن يقتل كل من عنده وتولى هو بنفسه صفح عميدهم حتى خرجت عيناه وافلت منهم ثلاثة نفر فعادوا الى الاذفونش واخبروه بالخبر فرجع عن قرطبة الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويجلب بالقوة الكافية وهذه رواية ابن الاثير

وروى صاحب (الروض المعطار في ذكر المدن والاقطار) ماملخصه أن المعتمد تأخر في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية فلما ارسلها استشاط الاذفونش غضبا وارسل يطلب منه بعض الحصون واسمن في التجني وسأل في دخول امرأته الحامل جامع قرطبة لتلد فيه حسب اشارة القسيسين والاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم وأن تنزل في قصر الزهراء غربي مدينة قرطبة والزهراء هذه هي التي بناها الناصر لدين الله واسمن في بنائها وجلب اليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور الخ ذلك لتلد الاذفونشة بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة الكنيسة من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهودي اسمه وزير الاذفونش فأبى ابن عباد اجابة التماسه فراجعه وألح عليه حتى أيأسه بما غلظ له من القول فضربه المعتمد بمحبرة كانت بين يديه فانزل دماغه

في حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة واستفتى في جواز الفعلة الفقهاء فبادر محمد بن الطلاع الفقيه بالفتيا بجواز ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة واحتج بأنه انما بادر بذلك خوفا من أن يكسل المتقدمون عن مناجذة العدو ويبلغ الخبر الاذفونش فانسم له ليغزونه بالشبيلية وليحصرنه في عقر داره وجرد له جيشين أحدهما زحف الى كورة باجة فقاتلته عاشبيلية والثاني تولى قيادته بنفسه حتى التقى الجيشان تحت لوائه بقلعة قصر ابن عباد على ضفة النهر الاعظم وفي أيام مقامه هناك كتب الى ابن عباد زاريا « كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب واشتد علي الحر فالتمس من قصرك ريحة اروح بها على نفسي واطرد بها الذباب عن وجهي » فوقع له ابن عباد بخطه في ظهر الرقعة « قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك سأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح على ملك لا تروح بها ان شاء الله تعالى » وشاع توقيع ابن عباد وفشا في الناس فزعه على استنفار البربر لمجاهدة العدو فلما علم بذلك امراؤه ملوك الطوائف اهتموا وتشوروا للامر ومنهم من كاتبه ومنهم من شافهه قائلين له ان الملك عقيم والسلطان لا يجتمعان في غمد واحد فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة « رعي الجمل خير من رعي الخنازير » أي أن يكون أكولا ليوسف ابن تاشفين يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقا للاذفونش أسير أعدائه يرعى خنازيره في قشتالة وقال لعذاله قولا آخر يا قوم اني من امري على حالين حالة يقين وحالة شك ولا بد لي من احداهما ما حالة الشك فانه ان استندت الى الاذفونش أو الى ابن تاشفين فمن الممكن أن يفي لي وممكن أن لا يفعل وأما حالة اليقين فانني ان استندت الى ابن تاشفين ارضي الله وان استندت الى لاذفونش

To: www.al-mostafa.com

اسخطت الله وهذه حالة يقين فلماذا ادع مايرضى الله الى مايسخطه

ولما عزم المعتمد على الاستجاشة امر كلا من المتوكل بن الافطس صاحب بطليوس وعبد الله بن حبوس صاحب غرناطة أن يوفدا قاضي الجماعة بحضرته واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن ادهم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عنده القضاة باشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وأسند الى القضاة مايليق بهم من وعظ ابن تاشفين وترغيبه في الجهاد واسند الى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية (وقد وفى بوسف بالاولى ولم يف بالثانية)

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الاندلس لم تزل تفد عليه وفود المسلمين من وراء البحر مستعطفين مجهشين بالبكاء فاوفدت رسل ابن عباد حتي اسرع الاجابة وحشد العساكر وانزلها بالجزيرة الخضراء وأجاز على أثرها وامتلأت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوعة وعلى رواية ابن خلكان انه أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب فكان يحدق بها عسكره عند الحرب وكانت خيل الفرنج تجمح منها

ولما نزل يوسف بحشوده في الجزيرة وبلغ الاذفونش تألب امراء المسلمين لمناهدته استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والاساقفة صلبانهم واجتمع له من الافرنجة والجلالقة مالا

يحصى عدده ، وبعث الاذفونش الى ابن عباد ان صاحبكم يوسف نجشم المشقة وخاض البحار وأنا أكفيه لقاءه فيما بقي ولقاكم في بلادكم رفقاً بكم وكان مقصده في الدلوف الى ديار المسلمين انه ان دارت عليه الدائرة كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم وان كانت عليهم كان أقدر على النكاية فيهم في عقرتهم. ومما قيل انه كتب الى يوسف كتاباً انشأه له بعض غواة المسلمين يغلظ له في القول ويتوعده فأمر ابن تاشفين ولم يكن اعلم بالعربية من الاذفونش كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجاوبه وكان كاتباً بدأ فكتب وأجاد فلما قرأه يوسف استطاله وأخذ كتاب الاذفنش يكتب على ظهره الذي يكون ستراه. وأخذ المعتمد وامراء الاندلس ابون لجيوش المرابطين الاقوات والضيافات

ولما قرب أمير المسلمين من اشبيلية خرج ابن عباد للقائه في وجوه اصحابه وعنده ما تلاقيا تصافحا وتعانقا ثم شكرا انعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة وتوسلا الى الله أن يجعل سعيهما خالصا لوجهه. ووافت الجيوش كلها بطليوس وجاءهم الخبر بزحف الطاغية ولما تدانى الفريقان اذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفا عليهم من المكايد لجهلهم المكان وكان يوسف قد كتب الى الاذفونش يدعوه الى احدى الثلاث وهي الاسلام أو الجزية أو السيف كما هي السنة فامتلأ الاذفونش غيظا وقامت الاساقفة ورفعوا صلبانهم وتبايعوا على الموت وقام الفقهاء من الجهة المقابلة ووعظوا وحضوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع الكتاب ، واصبح يوم الخميس فبعث الاذفونش الى ابن عباد يقول له غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والاحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت فاعلم ابن عباد السلطان

يوسف بذلك وإنها خديعة ليفتك بالمسلمين الجمعة فانتبه الجيش الاسلامي طول ليلة الجمعة واستيقظ الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي فرحا مسرورا يقول إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والشهادة فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه بالطيب وانتهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره

وجاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الاذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش وصليل الاسنة وجاءت العيون من داخل محلتهم يقولون قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لاصحابه ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وان كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب فهم جاهلون البلاد فاقصدوا ابن عباد واصدقوه الحملة فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون فأرسل ابن عباد يعرف أمير المسلمين وقبل ورود الجواب غشيته جنود الاذفونش من كل جهة وهاجت الحرب وحمى الوطيس وتبايع الناس على الموت وصبر المعتمد صبرا لم يعهد مثله لاحد واستبطأ يوسف في النجدة، وانكشف بعض اصحابه وانثنى جراحات وعثرت تحته ثلاثة أفراس

وبينما هو على تلك الحال أقبل عليه من قواد المرابطين داود بن عائشة وكان من الابطال فنفس عن خنافه وأقبل يوسف بجموعه وأصوات طبوله قد ملأت الفضاء فنهد اليه الاذفونش بمعظم جيشه فصدمهم ابن تاشفين بجنده فردهم الى مراكزهم، وانتظم بيوسف شمل ابن عباد وحملوا جميعا حملة الرجل الواحد فتزلزلت الارض بحوافر خيلهم واظلم الجو من العثير وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عباد وتجددت الحملة

بالطاغية فلم ينفعه لما كان المرابطون قد فلوا من غربه فدافع المعتمد عند دخول المرابطين بلده دفاعا مشهورا وخرج حاسرا عن مفاضته والسيف في يده فرماه أحد الداخلين برمح فأخطأه فبادره بضربة أزهق بها روحه ولقي ثانيا فقسمه شطرين الى أن وجد ابنه مالكا مقتولا ويئس من الثبات فطلب الامان فأجيب اليه وحمل على السفين منفيا الى بر العدوة فأسكنه يوسف اغمات وبها مات سنة ٤٧٠ ومن قوله عند ما خلع

ان يسلب القوم العدي ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ... أن لا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص على الحشى شيء دفوع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواه ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتال ... وكان من أملي الرجوع
شيم الالى أنا منهم ... والاصل تتبعه الفروع

والمعتمد بن عباد ينتمي الى المنذر بن ماء السماء اللخمي وفي ذلك يقول أحد الشعراء

من بني منذر وذاك انتساب ... زاد في فخرهم بنو عباد
فتية لم تلدسواها المعالي (١) ... والمعالي قليلة الاولاد

ولم تعرفنا كتب الادب العربي ببيت قيل فيه من الشعر ودار على أيام انسه ثم ادوار نحسه من المحاضرات مثل هذا البيت اللخمي، ولا بدولة

(١) والى هذه الشجرة ايضا ينتسب محرر هذا الكتاب ومن بني لخم أقوام كثيرون في الغرب والشرق ولا سيما بصعيد مصر

راجت فيها بضاعة الادب والفصاحة، وتناهت اليها غايات الكرم والسماحة أكثر من دولة بني عباد؛ حتى قال ابن اللبانة أن الدولة العبادية بالاندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد سمة مكارم، وجمع فضائل ولذلك ألف فيها كتابا مستقلا سماه (الاعتماد في أخبار بني عباد) ولا يلتفت لكلب عقور نبح بقوله

مما يزهدني في ارض اندلس ... ألقاب معتمد فيها ومعتضد
اسماء مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

لان هذه مقالة متعسف كافر للنعم ، ومثل ذلك في حقهم لا يقدح ، وما زالت الاشراف تهجي وتمدح انتهى . وأخبار المعتمد واشعاره وامداح الشعراء فيه، وفريدات القصائد في مراثيه، ملء كتب المحاضرات، وهي غرر قصص المسامرات

غزا يوسف بن تاشفين الاندلس أربع مرات اخرها سنة ٩٧ وانتظمت جميع ديار الاسلام فيها بملكه وانقرضت ملوك الطوائف

واتسع سلطانه بالعدوتين وورد له التقليد من الخليفة المستنصر العباسي وتوفي على رأس المائة الخامسة وقام بالامر بعده ابنه علي بن يوسف وسلك سنن أبيه في الغزو والجهاد وأجاز الى الاندلس سنة ثلاث ونازل طليطلة وائخن في ديار العدو وعقد لولده تاشفين على غرب الاندلس وأجاز معه الزبير بن عمر في جيش وعقد لابي بكر بن ابراهيم المسوفي على شرق الاندلس وهو ممدوح ابن خفاجة أرق شعراء الاندلس شعراً ومخدوم الحكيم المعروف بابن الصائغ وولي ابن غانية الجزائر الشرقية ميورقة ودانية ولاربع عشرة سنة من ملكه ظهر المهدي بن تومرت القائم بدعوة

افريقية وأنه عابر اليهم وكان ولداه أبو سعيد وأبو يعقوب في الحضرة زائرين فانتهز الفرصة ابن همشك من اشياع اللمتونيين واستولى على غرناطة وانحصر من فيها من الموحدين بالقصبة فنهض عبد المؤمن الى سلا وارسل ابنه سعيداً وضم اليه ابن أبي حفص عامل اشبيلية من قبله لاجل استنقاذ غرناطة فهزمهما ابن همشك ورجع أبو سعيد الى مالقة فأعادهما الى غرناطة وعززهما بثالث هو ابنه الآخر السيد أبو يعقوب في سواد من الموحدين فوصلوا الى غرناطة وقد وافاها ابن مردنيش مدداً لابن همشك وظاهرهما النصارى فازدلف الفريقان بعضهم الى بعض بفحص غرناطة فدارت الدائرة على ابن همشك وأحلافه ففر ابن مردنيش الى الشرق مكانه ولحق ابن همشك بجيان ودخل السيدان ولداعبد المؤمن قرطبة

وسنة ٥٨٥ توفي عبد المؤمن بن علي رأس الموحدين وقام بالامر بعده ولده أبو يعقوب وبايعوه كافة وفي أيامه قصد الحاج ابن مردنيش قرطبة ومعه جموع من زغبة وغيرها فارسل السيد أبا سعيد صاحب غرناطة والسيد أبا حفص أخاه في عساكر الموحدين لمنازلته فالتقوا بفحص مرسية فانهزم ابن مردنيش وأولياؤه من الاسبانيول وأقر أبو يعقوب أخاه أبا سعيد على غرناطة وجعل أخاه السيد أبا اسحق على قرطبة وزحف الاسبانيول على مدن المسلمين فخرج أبو حفص من مراكش سنة ٦٥ ومعه جموع الموحدين وأخوه أبو سعيد فوصل الى اشبيلية وأرسل أخاه أباسعيد الى بطليوس وكان موحدوها قد دفعوا العدو فانعقد الصلح مع الاسبانيول ونهض الموحدون الى مرسية لتأديب ابن مردنيش الثائر ورافقهم ابن همشك حليفه بالامس لوحشة وقعت بينهما حملت هذا على أن يبعث الى

أبي حفص بطاعته وتوحيده فحرصر ابن مرد ن في مرسية وأطاع أهل
الورقة وخضع ابن عمه صاحب المرية فحصّ ن جناحه وتوافت عند
الخليفة بمراكش جموع العرب فنهض بها الى ندلس واحتل قرطبة سنة
٥٧ ثم اشبيلية وكان ابن مردنيش قد هلا ء الحصار فاذعن أولاده
للخليفة وقربهم اليه وصير لهلال بن محمد بن دنيش في بلنته وأقر أخاه
أبا سعيد على غرناطة وخرج القومس الاحد بجموع الاسبانيول فنهد
اليهم وأوقع بهم في قلعة رباح ورجع الى اشبـ فانتقض العدو ثانية فكر
عليه وتوغل في بلاده وفرق جموعه وقفل الى ضرة عام ٧١ لخمس سنين
من إجازته الى الاندلس وتوفي السيد أبو سعـ د أخوه بالطاعون فعقد
لابي زيد بن أبي حفص على غرناطه وأخيه محمد عبد الله على مالقة
وسنة ٧٥ عقد لقائم بن محمد بن مردنيش الو ول أغزاد اشبونة فغنم
ورجع وانتقض الاسبانيول ثانية ـ نازلوا ترجـ شنوا غارات على جهات
غرناطة ومالقة وصدمهم الموحدون من الاندـ وعليهم السيد أبو اسحق
أخو الخليفة فكسروهم أجاز الخليفة ثانيا للعبو ـه حشود العرب وذلك
سنة ٨٠ فغزا سنتمر بن واشاء حصارها أو رفه عنها توفي قيل من
سهم أصابه من جهة العدو ـ بن مردنيـ ي نخفه ابنه يعقوب فلم
يزل في الجهاد والتحرف العدو وأجاز الى مرا وبعد مدة بلغه خروج
العدو وإيقاعه بالمسلمين وتغلبه على شلب وسما النصير ـ ز ف الى قصر
مصودة ومنها جاز الى طريف فحصر شاب ـ ش وغيرهما من الحصون
فافتتحها ودانت له البلاد فقفل الى المغرب ـ ولما بلغه من ثورة
ابن غانية الذي كان والياً في ميورقة فلم تكد ـه تستقر هناك حتى بلغه

عظيما وقطع طريق البحر على الافرنج وهو السلطان الذي يروى انه زهد في آخر حياته وترك الملك وساح في الارض حتى وصل الى الشام ومات ودفن في البقاع والآن في الشرقي قرية اسمها السلطان يعقوب والمحققون على أن هذه الحكاية لا اصل لها وجزم ببطلانها الشريف الغرناطي وقال انها من اوضاع العامة لولوعهم بالسلطان المذكور

وتولى الامر بعد المنصور ابنه محمد ولقب بالناصر وفي أيامه خرج الاذفونش وعثا في بلاد الاسلام فجمع الناصر جموعا لا قبل بها لاجل الجهاد قيل نحو ستمائة الف مقاتل والتقى بالافرنج فيهم ابن اذفونش وصاحب برشلونة فكانت الوقعة المسماة بالعقاب التي لم يقم بعدها للمسلمين في تلك البلاد البلاد قائمة تحمد وهلك فيها اكثر المجاهدين وبالغ بعض المؤرخين فقيل لم ينج منهم غير الالف وهو بعيد عن التصديق وكان وقوعها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ وقد روى ابن خلدون هذه الواقعة فلم يبالغ في مصيبتها ما بالغه غيره وزعم أن الافرنج بعد الكائنة أغاروا على بلاد المسلمين فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فهزمهم وانتعش الاسلام

وتوفي الناصر وخلفه ابنه يوسف ولقب بالمستنصر وكان حديث السن فانصرف عن تدبير الامور الى العبث واللهو وفي أيامه تولى أبو محمد العادل عم المستنصر مرسية بدل غرناطة

وتوفى المستنصر فبويع عبد الواحد اخو المنصور ولم يكن يحسن التدبير فانتزى عليه العادل المذكور وبايعه اخوته الذين كانوا على مدن الاندلس وتم له الامر ولكن زحفت اليه الافرنج وأطلقوا الغارة

في البلاد فتصافّ معهم فانهزم وأصيب المسلمون فأجاز الى المغرب وخلّف على الاندلس أخاه أبا العلاء ادريس

ثم خنق العادل بمراكش وبويع يحيى ابن الناصر وهو صغير فادعى الخلافة السيد أبو العلاء المذكور وبويع بالاندلس ثم في المغرب لكن انتقض عليه المتوكل محمد بن يوسف الجذامي ودعا لبني العباس فمال اليه أهل الاندلس وأجاز أبو العلاء الى المغرب ينازع يحيى بن الناصر وتعاظمت الفتنة بينهما واستبد ابن هود بما وراء البحر ودخل الوهن دولة الموحدين

ومات أبو العلاء وكان يلقب بالمأمون سنة ٦٣٠ وتولى بعده ابنه الرشيد وفي مدته ظهر ابن الاحمر صاحب غرناطة وأرسل اليه بالبيعة وتوفي سنة ٤٠ وقام بالامر أخوه السعيد فقتله بنو عبد الواد بقرب تلمسان عام ٤٦

وفي أيام الرشيد والسعيد خرج بنو مرين من بني واسين من زناتة واعصوصب حولهم البربر واجتمع العرب على بيعة عمر بن ابراهيم ابن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه بالمرتضي ولم تمض مدة من خلافته حتى انتقض عليه ابن عمه السيد أبو العلى ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لخلاف تمكن بينهما . وصحبه ابن عمه السيد أبو موسى عمران ولحقا بيعقوب ابن عبد الحق المريني الثائر على دولتهم وما زال النزاع قائماً حتى غلب أبو العلى المذكور وكان يكنى بأبي دبوس على مراكش ووقع المرتضي في يده فعفا عنه أولا ثم قتله واستقل بالامر ولقب بالواثق ونهض اليه يعقوب بن عبد الحق ببني مرين وحزبهم فخرج أبو دبوس من مراكش لدفاعه فاصطلمت الحرب في وادي أغفر وانهزم الموحدون وقتل أبو دبوس ودخل بنو مرين

الفصل الثالث

في دولة بنى الاحمر اصحاب غرناطة

قال ابن سعيد: الضابط فيما يقال في شأن أهل الاندلس في السلطان أنهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الاجواد تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكا من غير تدبير في عاقبة الامر الى يوم يؤول بعد أن يكون الملك في مملكة قد توورثت وتدوولت يكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للاجناد ومراعاة قدموه ملكا في حصن من الحصون ورفضوا عيالهم وأولادهم ان كان لهم ذلك بكرسي الملك ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبه، وأهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الاوضاع. ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الاخيرة بالاندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له (أرجونة) ويعرف الرجل بابن الاحمر كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة الى أن طار اسمه في الاندلس وآل ذلك الى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ثم نهض فملك قرطبة العظمى وملك اشبيلية وقتل ملكها الباجي وملك جيان أحصن بلد بالاندلس وأجله قدرا في الامتناع وملك غرناطة ومالقة وسموه بأمير المسلمين فهو الان المشار اليه بالاندلس والمعتمد عليه انتهى

(أرجونة) حصن من حصون قرطبة كان فيه قوم يعرفون ببني نصر

ينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج رضى الله عنهم وكان عميدهم الآخر دولة بني عبد المؤمن محمد بن يوسف بن نصر ويكنى بأبي دبوس ويقال له الشيخ وغلب عليه لقب ابن الاحمر وكان له أخ اسمه اسماعيل وكانت لهم وجاهة وكلمة عالية فى تلك الجهة فما زال يتقدم من حالة الى حالة حتى أحس من نفسه الكفاءة للاستقلال فثار على ابن هود سنة ٦٢٩ وأطاعته جيان وشريش واستفحل امره ثم اصهر الى الرؤساء بني اشقيلولة فتعزز بهم ، ثم لما خرج ابن هود من اشبيلية الى مرسية ثار بأشبيلية ابو مروان الباجي فداخله محمد بن الاحمر على ان يزوجه ابنته فأطاعه ودخل ابن الاحمر اشبيلية فلما تمكن فتك بابن الباجي واستولى مكانه غير ان اهل اشبيلية رجعوا الى طاعة ابن هود واخرجوه منها فتغلب على غرناطة اذ كان فيها ابن ابي خالد الذي ثار بدعوته وارسل اليه بيعته فقدم عليها أولا ابن اشقيلولة وجاء على اثره فنزلا بها وابتنى لنزوله حصن الحمراء التي لم يبن مثلها في البلاد وكان غلبه على غرناطة عام ٦٣٥ وغلب بعدها على مالقة وبايعه اهل لورقة وتناول المرية من يد ابن الرميمي عامل ابن هود واخذ يضم الاطراف ويكتب الكتائب ويحصن الثغور ويؤوي المشرّدين واتخذ لقب الغالب بالله وضرب على سكته وكتب على رايته (لا غالب الا الله) وصار ذلك علما لدولته فيما بعد

وفى ذلك الدهر وهو القرن السابع للهجرة كان الاسلام اخذ يتقلص ظله عن الاندلس واصبح المغرب بما ادرك اموره من الاختلال وما اصاب اهله من اليأس من نصرة اندلس خصوصا بعد وقعة العقاب عاجزا من امدادها بالبعوث الوفيرة التي كانت تجتمع تحت رايات المرابطين

والموحدين هاتيك الدول الكبار فتقدم الاسبانيول من كل جهة وملكوا القواعد مثل طليطلة وقرطبة وبلنسية واشبيلية وجيان وغيرها وصاروا يقتطعون كل يوم كورة ويحذفون من مملكة الاسلام حصنا الى ان ألجأوا المسلمين الى سيف البحر من رندة من الغرب الى الشرق نحو عشر مراحل فقط وتكلم الناس في ذهاب هذه البقية وقال شاعرهم :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وارى ... سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

والذي يلحظه القارىء من كلام ابن خلدون الذي عاش قبل الخروج الاخير بنحو القرن وكان يشير الى مآله بمشاهدة مقدماته وابن الخطيب الذي من جملة وصيته لاولاده عدم الاكثار من تملك الارض واعتقاد العقار في بلد مثل الاندلس دار قلعة ومنزل غربة — ان عقلاء المسلمين كانوا مستشعرين هذا الخطب من قبل وقوعه بأزمان لتكالب الاسبانيول على البلاد من كل جهة وظهور الفرقة بين أمراء الاسلام وانقطاع مدد المغرب شيئا فشيئا كما سيتضح من مجرى الحوادث

وكان بقية السيف من المسلمين الذين قد غلب على ديارهم العدو صائرين الى احدى ثلاث خصال: اما أن يلبثوا في ديارهم خانعين لسلطانه على شروط قررها مع بعضهم فى البداية وقيل لهؤلاء «المدجنون» من التدجين أي التأليف والتأنيس — واما أن يجيزوا الى بر العدوة فينزلوا بفاس أو وهران أو تونس حيث شاءوا — واما أن ينحاشوا الى مملكة غرناطة لكونها أندلسية ومجاورة لمساقط رؤوسهم ومنابت أسلهم حيث

لم تزل آمالهم بالكرة منوطة ، وعزائمهم على ادراك الاوتار مشدودة ، وحب الوطن من الايمان . وقد كان في انحياش المهزمين لى أعمال ابن الاحمر منعة لسلطانه وشد لازره، بسطة الملك ، فأمكنته الكرة المنصورة على العدو والانحياز في بلاده كما يقول صاحب نفح الطيب من انه لما أخذت القواعد الاندلسية مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية تحاز أهل الاسلام الى مالقة وغرناطة والمرية ونحوها ، وملك هذا النزر ملوك بني الاحمر فلم يزالوا فى تعب وممارسة مع العدو كما ذكره ابن عاصم قريباً وربما أثخنوا فى العدو كما علم من أخبارهم وانتصروا بملوك فاس فى بعض الاحايين وقال : لما قصد ملوك الافرنج السبعة فى المائة الثامنة غرناطة لياخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مرين يستنجدونه وعينوا للرسالة الشيخ أبا اسحق بن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي ، ثم بعد سفرهم نازل الافرنج غرناطة بخمسة وعشرين الف فارس ومائة الف راجل ولم يوافقهم سلطان المغرب مضى الله ببركة المشايخ الثلاثة أن كسر الافرنج فى الساعة التي كسر فيها جيوش اطرهم سلطان المغرب وكانت بذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي انتهى

وزعم بعض المؤرخين أن سبب فشل الريح بالاندلس تقاطع المسلمين من أهلها واقبالهم على الذات واهمالهم أمور الجهاد فى كثير من الاماكن حتى قال إن الافرنج لما قصدوا بلنسية سنة ٤٥٦ خرج للقائهم أهلها بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر لقومه :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن بيطنة ما كانا

وقالوا انه لما تغلب العدو على طليطلة ن من جملة اغنمه الفرنج من الجيش الذي حاربهم الف غفارة نفيسة خارجا عما سواها من الحلل. ولما ذكر ابن حيان تغلب العدو على بربشتر القريبة من سرقسطة بالثغر الاعلى سنة ٤٥٦ وما جرى فيها من فظائع القتل والسبي والاستباحة التي تقطر لها القلوب دماً وتنبو العيون عن مطالعتها في التواريخ قال قد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة، مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة، وقال من جملة تغفل أهل الاندلس ان العدو أطل عليهم يجوس خلال الديار ويكتسح البسائط ويقطع كل يوم طرفاً ويبيد أمة والباقون منهم صموت عن ذكر اخوانهم، لهاة عن شهم، ما يسمع بمسجد من مساجدهم مذكر لهم أو داع، فضلاً عن نافر انهم أو ماش. قال حتى كأنهم ليسوا منا أو كأن بثقهم ليس بمفض الينا انتهى

بلى والله لقد أفضى بثقهم الى الجميع وهذا قول ابن حيان في القرن الخامس وما مضى على ذلك قرن حتى أفضى البثق الى قرطبة وطنه ولله الامر أجمع وأخذ الاسبانيول تطيلة واختها طرشونة سنة ٥٢٤ ومكنهم المسلمون انفسهم بسبب اختلاف ملوك الطوائف من بلنسية المرة الاولى سنة ٤٨٨ الى ان استردها يوسف بن تاشفين بعد سبع سنين من اخذها وقدم عليها يحيى بن غانيه الملثم، وفي المائة السادسة صارت الى يد ابن مردنيش ابي عبد الله ملك شرق الاندلس فقدم عليها اخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ولما تكالب العدو على الاندلس في اواخر دولة بني عبد المؤمن كان المدافع عن بلنسية

الامير زيان بن ابي الحملات بن ابي الحجاج بن مردنيش فاضطر الى الاستغاثة بصاحب افريقية ابي زكريا بن ابي حفص من دولة الموحدين واوفد عليه بالرسالة ابا عبد الله بن الابّار القضاعي الحافظ الكاتب الشهير فقام بين يدي السلطان بتونس وانشده قصيدته السينية الفريدة ·

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... ان الطريق الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة اجحاف نائبة ... تثني الامان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... الا عقائلها المحجوبة الانسا
وفى بلنسيه منها وقرطبة ... مايذهب النفس أو مايزف النفسا
مدائن حلها الاشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
يا للمساجد عادت للعدى ربعا ... وللنداء يُرى اثناءها جرسا
لهفي عليها الى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت درسا
وأربعا نممت أيدي الربيع بها ... ماشئت من حلل موشية وكسا
كانت حدائق للاحداق مونقة ... فصوح النضر من ادواحها وعسا
وجال ما حولها من منظر عجب ... يستوقف الركب او يستركب الجلسا
سرعان ماعاث جيش الضد واحربا ... عيث الدُّنا في مغانيها التي كبسا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الاسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها نضراً ... وأين غصن حنيناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أُتيح لها ... ما نام عن هضمها حينا وما نعسا
ورج أرجائها لما أحاط بها ... مغادر الشم من أعلامها خُنسا
خلا له الجو وامتدت يداه الى ... ادراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
واحي ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدي ماطمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقا ... وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم ... والصبح ماحيةُ أنواره الغلسا
وتقتضي الملكَ الجبار مهجته ... يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
هذه رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الامير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها ... عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت باقصي شده الفرسا
تؤمُّ يحيي بن عبد الواحد بن أبي ... حفص مقبلة من تربه القدسا
ملكٌ تقلدت الايام طاعته ... ديناً ودنيا فغشاها الرضى لبساً
من كل غاد على يمناه مستلماً ... وكل صاد الى نعماه ملتمسا
مؤيداً لو رمى نجما لاثبته ... ولو دعا أفقا لبي وما احتبسا
لمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها بستصحب القعسا
يبدي النهار لها من ضوئه شنباً ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحفُّ من حوله شهب القنا حرسا

تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسي الورى وأسا
قامت على العدل والاحسان دولته ... وانشرت من وجود الجود مارمسا
مبارك هديه باد سكينته ... ماقام إلا الى حسنى وما جلسا
يرى العصاة وراش الطائعين فقل ... في الليث مفترسا والغيث مرتجسا
الى الملائك ينمي والملوك معا ... في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصان صيقله أن يقرب الدنسا
له الثرى والثريا خطتان فلا ... أعز من خطتيه ماسما ورسا
حسب الذي باع في الاخطار ركبها ... اليه محياه أن البيع ماوكسا
بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا ... آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه ... من البحار طريقا نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحا اسرته ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحا غواربه ... من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الانباء إنك من ... يحي بقتل ملوك الصفر اندلسا
فاوطيء الهيلق الجرار ارضهم ... حتى يعاطيء رأسا كل من رأسا
وانصر عبيداً باقصى شرقها شرقت ... عيونهم ادمعا تبكي زكا وخسا
هم شيعة الامر وهي الدار قد نهكت ... داءاً مي لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئا لك التمكين ساحتها ... جرداً سلاهب أو خطيّة دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الاعادي قد أتى وعسى

فهرت هذه القصيدة من الامير أبي زكريا عطف ارتياح وبادر للاصراخ بالاسطول الثقيل، والسلاح والمال الجزيل، ولكن حالت أساطيل

العدو بينه وبين بلنسية فبقي في مرسي دانية واشتد الحصار على أهل بلنسية وهلك الناس جوعا فسلموا بلدتهم صلحا سنة ٦٣٦ وتسلمها جقوم ملك أراغون على شروط ، ضرب لاهل بلنسية أجلا مسمى لنقل امتعتهم ثم نكث العهد معهم وتجشموا من الذل والهون مالا يوصف ، وعصفت ريح الاسبانيول في أقطار الاندلس ، توافقوا على غزو بلاد المسلمين من كل جهة واسفوا الى القواعد فكان لهم سنة ٦٣٣ سبع محلات لحصار المسلمين محلتان على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومحلة على جيان ومحلة بلطرية ومحلة مرسية ومحلة بلبلة وكان أهل جنوة محاصرين ستبة وألح صاحب قشتالة عم مملكة ابن هود فافتتح ثلاثين حصنا وزحف الى قرطبة فلم يجد أهلها في أنفسهم الكفاءة لمدافعته فسلموه مدينتهم وهي بالاندلس قبة الاسلام ، والمناظرة في الشرق دار السلام ، وخرجوا لايحملون شيئا سوى ثيابهم التي على أبدانهم وجلا معهم أهل القرى والحصون المجاورة بعد أن أفسد الطاغية زروعهم ، ودمر بيوتهم ، فعادت بقاع الخير قاعا صفصفا ، وبدلت تلك البلاد بالعمارة الخراب ، وبتغريد الهزار نعاب الغراب ، ومن الغرائب أنها بعد ان كانت تكفي الملايين من سكانها ، وتفيض عن ميرتهم خيراتها ، صار الاسبانيول يجلبون اليها الميرة والذخيرة من نفس قشتالة والى الله تصاريف الامور

وأخذ العدو لوشة سنة ٦٢٢ ثم استردها المسلمون وبقيت في يدهم الى ان استردها الاسبانيول ثانية في الكائنة الاخيرة وكان العدو أيضا استولى على المرية سنة ٥٤٢ في وقعة شديدة استشهد فيها الامام الرشاطي المحدث الكبير وكان لحميا في النسب ثم استرجعها الموحدون وبقيت في يد المسلمين

الى أن ذهبت فيما ذهب لآخر المدة

وملك العدو مارذة وبطليوس نحو سنة ٦٢٦ وملك جزيرة ميورقة سنة ٢٧ وزحف إلى شاطبة سنة ٣٥ وحصل هنالك وقائع قتل فيها شيخ المحدثين أبو الربيع الكلاعي ثم في السنة التالية كان تسليم بلنسية وخرج ابن مردنيش عنها الى جزيرة شقر فتعقبه العدو اليها فاخرجه منها فلحق بدانية وأخذ هناك البيعة للحفصي صاحب افريقية ثم داخل أهل مرسية وقتل واليها أبا بكر بن خطاب وبعث ببيعتها إلى الحفصي أيضا ولم يزل في مرسية الى أن غلبه عليها ابن هود فخرج عنها إلى لنت الحصون سنة ٣٨ وبقي فيها عاملا لابي زكريا الحفصي أمير افريقية حتى انتزعها منه ملك برشلونة فلحق بمولاه في تونس وانقرض أمره بشرق الاندلس والله وارث الارض ومن عليها

وفي هاتيك الايام كما لا يخفى كثرت القصائد في استنهاض الهمم واستجاشة الحفائظ لتلافي أمر الاسلام بالاندلس وسارت أوابد الشعر في العدوتين بالاستنفار إلى الجهاد والاجابة لداعي الله . تسنم الجنة

فمن ذلك قول أبي جعفر الوقشي البلنسي نزيل مالقة من قصيدة

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى ... فابصر شمل الكاشحين طريدا

وهل بعد يقضي في العدو بنصرة ... تغادرهم للمرهفات حصيدا

ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب ... يعيد عميد الخارجين عميدا

ويلقي على افرنجهم عبل كلكل ... فيتركهم فوق الصعيد هجودا

يغادرهم قتلى وجرحى مبرحا ... ركوعا على وجه الفلا وسجودا

ويفتك من أيدي الطغاة نواعما ... تبدلن من نظم الحجول قيودا

وأقبلن في خشن المسوح ، طالما ... سحبن من الوشي الرقيق برودا
وغير منهن التراب تراتبا ... وخدّد منهن الهجير خدودا
حق لدمعي أن يفيض لأزرق ... تملكها دمج المدامع سودا (١)
ويالهف نفسي من معاصم طفلة ... تجاور بالقد الاليم نهودا (٢)
ويا أسفي ما إن يزال مرددا ... على شمل أعياد أعيد بديدا
وآها بعد الصوت منتحبا على ... خلو ديار لو يكون مفيدا

* * *

ومن ذلك القصيدة الطويلة التي خوطب بها أبو زكريا بن أبي حفص صاحب تونس عند أخذ بلنسية ومطلعها

« نادتك اندلس فلبّ نداءها »

ومنها:

صرخت بدعوتك العلية فاحبها ... من عاطفاتك مايقي حوباءها
هي دارك الفصوى أويت لايالة ... ضمنت لها مع نصرها ايواءها
وبها عبيدك لابقاء لهم سوى ... سبل الضراعة يسلكون سواءها
دُفعوا لابكار الخطوب وعُوِّنها ... فهم الغداة يصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت ... سرّاءها وقضتهمُ ضرّاءها
تلك الجزيرة لابقاء لها اذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها ... واعقد بارشية النجاة رشاءها

« ١ » قوله لازرق أى لعلج أزرق العينين وتكنى العرب به عن العدو
« ٢ » الطفلة بفتح الطاء الناعمة والغد بكسر القاف السير من الجلد يربط به الاسير

أشفى على طرف الحاة ذ ؤها ... فاستبق للدين الحنيف ذ ءها
حاشاك أن تفني حشاشتها وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ... ترجو بيحيى المرتجى احياءها
واستشرفت امصارها لامارة ... عقدت لنصر المستضام لوءها
ياحسرتي لعقائل معقولة ... سئم الهدى نحو الضلال هداءها
ليه بلنسية وفي ذكراك ما ... يجري الشؤون دماءها لا ماءها
كيف السبيل الى احتلال معاهد ... شب الاعاجم دونها هيجاءها
والى ربى وأباطح لم تعرّ من ... حلل الربيع مصيفها وشتاءها
طاب المعرّس والمقيل حلالها ... وتسلمت غرر المها ثناءها
بأبي مدارس كالطلول دوارسا ... نسخت نوافيس الصليب نداءها

ومنها:

مولاى هاك معادة أنبؤها ... لتنيل منك معادة ابناءها
جرد ظبالك لمحو آثار العدى ... تقتل ضراغمها وتسبي ظباءها
واستدع طائفة لاعلام الغزو ها ... تسبق الي أمثالها استدعاءها
لاغرو أن يعزى الظهور لملة ... لم يبرحوا دون الورى ظهراءها
ان الاعاجم للاعارب نهضة ... مهما أمرت بغزوها احياءها
تالله لو دبت لها أدبها ... لعلوت عليها أرضها وسماءها
ولو استقلت عوفيا لقالها ... لاستقلت بالمقربات عفاءها
أرسل جوارحها تجثك صيدها ... صيدا وناد لطعنها أرجاءها
هبُّوا لها يامعشر التوحيد قد ... آن لهبوب أحرزوا علياءها
هي نكتة الحيا فحيهلا بها ... تجدوا سناها في غد وسناءها

حاشاكم أن تضمروا إلغاءها ... في أزمة أو تضمروا إقصاءها
خوضوا اليها بحرها يصبح لكم ... رهوا وجوبوا نحوها بيداءها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة ... ساوت بها أحياؤها شهداءها
هذي رسائلها تناجي بالتي ... وقفت عليها ريثها ونجاءها
وفدت على لدار العزيزة تجتني ... آلاءها أو تجتلي آراءها
مستسقيات من غيوث غمائها ... ما وقعه يتقدم استسقاءها
ويحسبها أن الامير المرتضى ... مترقب يفتوحها آناءها
بشرى لاندلس تحب لقاءه ... ويحب في ذات الاله لقاءها
صدق الرواة المخبرون بأنه ... يشفي ضناها أو يعيد رُواءها
ان دسّ "العرب الصعاب" قادة ... وأبى عليها أن تطيع إباءها
فكأن بفيلقه العرمرم فاتحا ... هام الاعاجم ناسفا أرجاءها
لا يعدم الزمن انتصار مؤيد ... تتسوغ الدنيا به سراءها
ملك أمد النيرين بنوره ... وافاده لالاؤها لالاءها
خضعت جبابرة الملوك لعزه ... ونضت بكف صغارها خيلاءها
أبقى أبو حفص أمارته له ... فسما اليها حاملا أعباءها
قبضت يداه على البسيطة قبعنة ... قادت له في قِدّه أمراءها
فعلى المشارق والمغارب ميسم ... لهداه شرف وسمه أسماءها
تطمو بتونسها بحار جيوشه ... فيزور زاخر موجها زوراءها

ومنها:

تقع الجلائل وهو راس راسخ ... فيها يوقع للسعود جلاءها
كالطود في عصف الرياح وقصفها ... لا رهوها يخشى ولا هوجاءها

نونية أبي البقاء الرندي

﴿ في نكبة الاندلس ﴾

ومن مشهور ماقيل في ذلك نونية أبي البقاء الرندي من أشهر شعراء الاندلس وهي متداولة بين الناس تعدن حفظ العوام فضلا عن الخواص وقد أثرناها هنا لكيلا يخلو منها ذيل جررناه على الاندلس

لكل شيء اذا ما تم نقصانُ ... فلا يغر بطيب العيش انسان

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد (١) ... ولا يدوم على حالٍ لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابغة (٢) ... اذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ماشاده شداد في إرم (٣) ... وأين ماساسه في الفرس ساسان

وأين ماحازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ماكانوا

وصار ماكان من مُلك ومن مَلك ... كما حكي عن خيال الطيف وسنان

دار الزمان على دارا وقاتله ... وأمّ كسرى فما آواه ايوان

---

(١) وفي رواية * وهذه الدار لاتبقى محاسنها

«٢» وفي رواية * يمزق الدهر منا كل سابغة

«٣» وفي نسخة : من إرم

كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولا مَلك(١) الدنيا سليمان
بفجائع الدهر انواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث (٢) سلوان يسهلها ... وما لما حل بالاسلام سلوان

***

دهى الجزيرة أمر لاعزاء له ... هوى له أُحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت ... حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... واين شاطبة ام اين جيّان
واين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكي الحنيفية البيضاء من اسف ... كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد اضحت كنائس ما ... فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

***

يا نائلا وله فى الدهر موعظة ... ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغرُّ المرء أوطان
تلك المصيبة انست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان

***

«١» وفي نسخة « ولم يملك » «٢» وفي نسخة . والمصائب

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم أوطانهم عزّ وسلطان
أعندكم نبأ من أهل اندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله اخوان
الا نفوسٌ أبيّات لها همم ... اما على الخير انصار وأعوان

•

يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم
واليوم هم في بلاد الضد عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الامر واستهوتك احزان
يارُبّ أمّ وطفل حيل بينهما
كما تفرّق ارواحٌ وابدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت ومرجان

للعجزة وشاد كذلك كثيراً من المدارس لطلب العلم ، وبنى قصر الحمراء الشهير ، الذي أنسى ذكر الخورنق والسدير ، وهو من القصور المعدودة في الدنيا رونقاً ومتانة واتساعا وإحكام بناء . وكانت غرناطة في أيامه من أشهر مواقع المعمور عمارة وسعادة وسعة تجارة وبسطة في العلم والجسم ، وكانت منسوجاتها فائقة منسوجات غيرها من جميع الاقطار »

وقال هذا الاديب الراسخ والوزير الجليل في محل آخر من كتابه مامعناه : انه بحسن ادارة محمد الخامس (من سلالة محمد الشيخ) وجنوحه الى السلم أو بالصدمات الداخلية والخارجية التي توالت يومئذ على مملكة مشتالة واراغون قد مضت لذلك التاريخ عشرون سنة متتابعة على غرناطة كانت فيها أسعد الممالك حالا ، وأنعمها بالا ، وهي غرر أيام ابن الاحمر وحجولها ، بل أيام الاندلس كلها منذ غابت شموس الناصر والحكم ، فكانت وقتئذ الزراعة في نماء ، والصناعة في ارتقاء ، ولاهل غرناطة علاقات تجارية مع ايطاليا وفرنسا ومصر وبر الشام ، وكان يتوارد اليها التجار والسياح من جميع الانحاء ويسكنونها بكمال الطمأنينة . وفي بعض التواريخ انه كان لاهل جنوة انبار عظيمة مخصوصة بهم في غرناطة ، وقد كانت المرية ميناء غرناطة محط رحال التجارة من جميع الآفاق وفيها من الحركة ما ليس في ميناء غيرها ، لذلك كان أهالي تلك المملكة في ذلك الدور من سعة العيش وصفاء الوقت وتوفر أسباب الرفاهة وايلام الولائم بالمكان المحسود والحال المغبوطة ، وانتشرت بينهم الفضائل التي يقتضيها العلم والتهذيب من الحمية وحب الوطن والامانة والصدق والرأفة واكرام الغريب . وأخذ كرام الناس وابناء البيوتات يفدون الى غرناطة أفواجا حتى انه عند الاحتفال

بنقل كريمة صاحب فاس الى الامير يوسف ابن السلطان محمد الخامس وفد لاجل النزهة وبرسم حضور الزينة الشائقة عدد لا يحصى من الامراء والنبلاء والفرسان من اسبانيا وايطاليا وفرنسا، ويقول بعضهم ان غرناطة كانت وقتئذ وطنا مشتركا لجميع الاقوام »

ولنعد الى ذكر محمد بن الاحمر فنقول: لم يزل المدجنون ينكشفون عن شرق الاندلس وغربها الى مملكة غرناطة وهي تتعززبهم وبعد استيلاء الاسبانيول على شاطبة وتمهيدهم تلك البلاد شرعوا يهتضمون المسلمين الباقين فيها فشرع هؤلاء — من شدة الظلم والاخذ بالمخنق واستضعاف أعدائهم لهم بعد أن كانوا هم الاعلون — يرفعون لواء الخروج فاشتعلت الفتنة وكثر سواد الثوار الى أن قتل بعض رؤسائهم فانطفأت النائرة في تلك البقعة ولكن قام بعدها مدجنو بلنسية، استولوا على جملة حصون وذلك في نواحي سنة ٦٥٢ وكان جقوم صاحب أراغون غائباً فبادر بالرجوع الى مقره وعقد ندوة حضرها أركان مملكته للمذاكرة في قضية حسم الفتنة وذهب في رأيه الخاص الى وجوب تحصين قلاع شاطبة وطرد المدجنين كافة من مملكته، استبدالهم، زراع النصارى بهم فوافق على ذلك القسوس والخالون من الاراضي ولكن أصحاب المزارع أبدوا له تعذر وجود مزارعين مسيحيين وانه على فرض وجودهم فلا يقومون مقام المسلمين فلم يصغ لكلامهم وأمر بطرد المدجنين كافة فخرجوا تاركين جميع أملاكهم وأشياءهم وقصدوا غرناطة ألوفا مؤلفة وكان مدجنو مرسية وجوارها قد خرجوا بمكانهم على صاحب قشتالة الفونس العاشر الملقب بالصابي واستولوا على عدة حصون وقدموا عليهم قائدا وطالت

مدة انتقاضهم الى أن أحال الفونس أمرهم الى حميه جقوم ملك أراغون

ثم تزايد الجور على مدجني بلنسية الباقين كانوا منهم ببلادها وسيموا من الخسف والاهانة ما يكل عنه الوصف وفقدوا الامان على أرواحهم وعوملوا بخلاف الشروط التي بينهم وبين المستولي فاستأنفوا الثورة ومدوا يدهم الى من جاورهم من المسلمين لاجل مظاهرتهم. اصطلموا الاسبانيول وتقدموا نحو بلنسية حتى كادوا يسترجعونها فوقع الرعب في قلب جقوم ومات على أثر ذلك وتولى بعده ولده بترو أو بطره فعقد مع الثوار هدنة وأمهلهم ريثما تفرقت جموعهم فنكث معهم وصمد اليهم على غرة فانحازوا الى (مونتزه) في عيالهم وكانوا زهاء ثلاثين ألفا فأقام يحاصرهم طويلا وأخذ منهم بالمخنق حتى استأمنوا فدخل الاسبانيول الحصن وانتهبوا المال والمتاع وأخذوا المسلمين أسارى وفرقوهم في داخل البلاد بعيداً عن الثغور

وكان تخاذل المسلمين وتودد أعقاب ابن هود وابن مردنيش للملك النصارى قد دعا محمد بن الاحمر الى مهادنتهم ونزل لهم عن بلاد (الغرنتيرة) وكانت هذه المدة بحسب قول ابن خلدون فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب ووضيعة ومداراة في السلم والتزم ابن الاحمر بما ضايقه من تكالب العدو على بلاد المسلمين ومظاهرة بعض أمرائهم له على الاستيلاء أن يلجأ بالمسلمين الى جوار غرناطة وسيف البحر معتصمين بالجبال وراكنين الى أوعارها وفي أثناء هذا كله لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر ووفود الاندلس تتوالى من الى حضرة بني مرين أصحاب المغرب تستنصرهم على العدو وتستجيرهم

في استباحة الحرم والولدان ، وبنو مرين وان كانوا يؤثرون الجهاد ، ويسابقون في مضمار الجد مسابقة الجياد ، فقد كان لهم من مناصبة دولة الموحدين وشغلهم بتدويخ المغرب كله وتمهيد قاعدة ملكهم ما يعترض دون اجابة داعي الجهاد. ولكنه لما انقضت الوحشة بين أبناء ادريس بن عبد الحق وبين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني انتدب السلطان الكثير منهم لنجدة الاندلس ، ولم تزل هذه البلاد منذ اوائل الفتح ثغر الاسلام ، وموطن الجهاد ، ومدرج الشهادة ، وغاية من قصد من الآخرة السعادة ، فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف مرابط عليهم عامر بن ادريس وتقبلهم بن الاحمر ودفع بهم في صدر عدوه وتوفي الشيخ ابن الاحمر لسنة ٦٧١ وقد عهد الى ولده والقائم بالامر بعده محمد الشهير بالفقيه لانتحاله العلم في أيام أبيه أن يجعل معوله على بني مرين في الاستصراخ اذا اشتد به الامر ويدرأ بهم ، وكان محمد الثاني بعد جلوسه بقليل وهو على مهادنة صاحب قشتالة سار الى اشبيلية لزيارته وتأكيد سلمه فلقي من الاعزاز والاداء ما لم يسبق له مثيل ، غير أن زوجة الملك خاطبته مرة أثناء اقامته عندهم في شأن بني أشقيلولة القائمين كانوا على أبيه وعليه من بعده فاستوحش محمد من هذه التوصية واستنشأ من ورائها رائحة المفسدة والميل الى القاء الفتنة ، والفرقة في مملكة الاسلام الباقية ، فعند رجوعه تأمل فيما يعمل لاجل التخلص من فتنة بني أشقيلولة ومما كان عليه من الخضوع المعنوي لصاحب قشتالة فلم يجد بدا من انفاذ وصية أبيه ومد اليد الى بني مرين خاطبا نصرهم ومستجيشا بهم في الدفاع عن الملة

وكان بنو اشقيلولة كما لا يخفى أنصار ابن الاحمر على أمره وأبوهم

بأرض شريش فجاس خلالها، واستقصى بالدمار أعمالها، وقفل الى الجزيرة الخضراء لشهرين من غزاته وعول على اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزل أجناده منتبذاً عن الرعية لما يلحقهم عادة من ضرر الجند فانشى المدينة المعروفة بالبنية، وأجاز البحر الى المغرب بعد غيبة ستة أشهر في الجهاد عنّ بها الاسلام، وأدال له بعد طموس الاعلام، حتى لقد قال بعضهم: ما نصر المسلمون من العقاب حتي دخل يعقوب المريني

وأما ابن الاحمر فساق عساكره الى جهة جيان وانحن فيها فجمع له الدون (صانشو) بن (جقوم) ملك أراغون وكان مطرانا على طليطلة وبادر الى لقائه فانكشف الاسبانيول واسر الدون صانشو — أو شانجه على رأى العرب — وحصل بسببه خلاف إذ مال بعضهم الى ارساله الى السلطان يعقوب بن عبد الحق والآخرون الى ابقائه عند ابن الاحمر فوثب عليه أحد الجند فاحتز رأسه وحسم الخلاف. وثاني يوم هزيمة الدون شانجه واسره وصل الدون (لوب) بالمدد الوافر وتوافف مع المسلمين وقد امتلات أيديهم بالغنائم فتأمل أن يشتغلوا بها عن القتال واصلاهم ناراً حامية من مطلع الشمس الى أن توارت بالحجاب فلم يفز منهم بطائل، فراسلهم في رأس شانجه والخاتم الذي بيده ووقع الفداء بهما على جملة من اسرى المسلمين ونقل الرأس مع الجثة ودفن في كنيسة طليطلة

وكان لما اعتزم أمير المسلمين يعقوب على الاجازة الى المغرب خاطبه ابن الاحمر بقصيدة استعانة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط قال فيها:

هل من معين في الهوى أو منجد ... من متهم في الارض أو من منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف ... باجابة وانابة او مسعد

هذي سبيل الرشد قد وضحت فهل ... بالعدوتين من امرىء مسترشد
يرجو النجاة بجنة الفردوس أو ... يخشى المصير الى الجحيم الموقد
يا آمل النصر العزيز على العدى ... أجب الهدى تسعد به وتؤيد
يامن يقول غداً أتوب ولا غدٌ ... أليك علم أن تعيش الى غد
لاتغتر بنسيئة الاجل الذي ... ان لم يحن لك نقده فكأن قد
أو ماعلمت بأنه لابد من ... زاد لكل مسافر فتزوّد
هذا الجهاد رئيس أعمال التقى ... خذ منه زادك لارتحالك تسعد
هذا الرباط بارض أندلس فرُح ... منه لما يُرضي الهك واغتدِ
سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس ... وجهاً للقيا الله غير مسود
وامحُ الخطايا بالدموع فربما ... محت الدموع خطيئة المتعمد
من ذا يتوب لربه من ذنبه ... أو يقتدي بنبيه أو يهتدي
من ذا يطهر نفسه بعزيمة ... مشحوذة في نصر دين محمد

ومنها :

كم جامع فيها اعيد كنيسة ... فاهلك عليه اسى ولا تتجلد
أسفا عليها اقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تودُّ لو أنها في ملحد
كم من وليد بينهم قد ود من ... ولداه ودًّا أنه لم يولد
كم من تقي بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
وشهيد معترك توزعه الردى ... مابين حدي ذابل ومهند
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم من قلبه كالجلمد

أفلا تذوب قلوبكم اخواننا ... مما دهانا من ردى أو من ردي
أفلا تراعون الازمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في اخوانكم ... وسيوفكم للثأر لم تتقلد
اين العزائم مالها لا تقتضي ... هل يقطع الهنديُّ غير مجرد
أبني مرين انتم جيراننا ... وأحق من في صرخة بهم أبتدي
فالجار كان به يوصي المصطفى ... جبريل حقا في الصحيح المسند
أبني مرين والقبائل كلها ... في المغرب الادنى لنا والابعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا ... منه الى الفرض الاحق الاوكد
وارضوا باحدى الحسنيين وأقرضوا ... حسناً تفوزوا بالحسان الخرّد
هذي الجنان تفتحت أبوابها ... والحور قاعدة لكم بالمرصد
لله في نصر الخليفة موعد ... صدق فثوروا لانتجاز الموعد
هذي الثغور بكم اليكم تشتكي ... شكوى العديم الى الغني الاوجد
ما بال شمل المسلمين مبدد ... فيها وشمل الضد غير مبدد
أنتم جيوش الله ملء فضائه ... تأسون للدين الغريب المفرد
ما ذا اعتذاركم غداً لنبيكم ... وطريق هذا العذر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي ... وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد
اخواننا صلوا عليه وسلموا ... وسلوا الشفاعة منه يوم المشهد
واسعوا لنصرة دينه يسقيكم ... من حوضه في الحشر أعذب مورد

فأجابه السلطان يعقوب بن عبد الحق بقصيدة من نظم عبد العزيز شاعر الحضرة «لبيك لا تخش اعتداء المعتدي» الخ وأجاب عنها أيضا

فبلغه استئناف جشم الثورة فكر اليهم وتأثرهم في الفلوات وترك ابنه أبا زيان لتدويخ السوس الاقصى وعقد لولده ولي عهده الامير أبي يعقوب على الاساطيل التي جمعها من طنجة وسبتة وسلا حتى بلغت اربعمائة سفينة وأغزاها الجزيرة وكان أهلها قد بلغوا من الضيق أن قتلوا صغارهم خوفا عليهم من السبي والنشوء على غير الاسلام فأثر ذلك في قلب ابن الاحمر وندم على مافرط منه من ممالاة العدو وجهز أساطيله من مالقة والمرية بداراً لنصرة اخوانه في الدين وغابت عليه حفيظة الملة واجتمعت أساطيل المسلمين بمرفاء جبل طارق وتبارزوا مع العدو وصدقوه العزمة فكشفوه وذعر الاسبانيول وغشيهم من اليم ماغشيهم وملك المسلمون مرفأ الجزيرة وهزموهم من كل ناحية لكن الامير أبا يعقوب تلكأ عن الغزو خوفا من ابن الاحمر وحدثته نفسه أن يصالح لاذفنش ويزحفا معا الى غرناطة انتقاما من صاحبها فأجابه هذا الى ذلك توسلا الى موادعته ولما كان في نفسه على ابن الاحمر من مدده أهل الجزيرة فبعث أساقفته الى أبي يعقوب فأجازهم الى أبيه فانكر ذلك السلطان وغضب من فعلة ابنه ولم يشأ أن يواطيء على الاسلام أحداً وأجاز أبو يعقوب الى المغرب بوفد أهل الجزيرة وولى ابنه الآخر أبا زيان عليها فاحكم الصلح مع صاحب قشتالة وتفرغ لمنازلة ابن الاحمر في غرناطة مع بني اشقيلولة وابن الدليل ثم رجع ابن الاحمر الى سلم بني مرين وخطبها من أبي زيان واجتمعا ثم في سنة ٧٨ أطل السلطان يعقوب على الاندلس لما اختل من أحوالها وكان ابن اشقيلولة قد نازل غرناطة سنة ٧٩ وظاهره الاذفنش فلم يفوزوا بطائل وقتل جماعة من الاسبانيول ولما أيقن ابن مرين بما وقع بين يغمراسن

وملوك اسبانية المسلمين والنصارى من الاتصال والتعاهد تعويقاً لحركاته عمد الى غزو يغمراسن وجرت بينهما حرب دارت فيها الدائرة على يغمراسن وقفل يعقوب الى مراكش . وأثناء مقامه بها وافاه صريخ الاذفنش على ولده سانشو أو شانجه وذلك أنه لما تم ماتم من العلو والظهور لكلمة الاسلام على يد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق قام أمراء اسبانية وأركان مملكة قشتالة وخصوصاً رجال الدين ناقمين على الاذفنش عدم الكفاءة وسوء التدبير ونحس الطالع على قومهم فكادوا له وأخرجوه عن ملكه ونادوا باسم شانجه وذلك سنة ٨١ وخرج الوالد طريداً مخذولا قد غدر به أهله وخلانه ، وخانه زوجته وأولاده ، فأخذ يستغيث ملوك النصرانية من أراغون والبورتغال وفرنسا فلم يجب أحد صريخه فرفع أمره الى البابا فلم ينجده بغير النصيحة والتوصية بالصبر والتحمل فلما يئس ممن شبكته وإياهم أو أصر الرحم والديانه أو الجوار حول نظره جهة المغرب فاستجار بسلطانه يعقوب بن عبد الحق بن مرين فأجاره في الحال ذهابا مع هوى الشيمة الابية ومقتضى الفتوة ووافاه الى مراكش أساقفة الاذفنش فصرفهم واعداً بالاغذاذ وسار الى قصر المجاز وركب منها الى الجزيرة الخضراء وقد وافته الجنود وسار الى صخرة عباد حيث وافاه ملك قشتالة فأكرم نزله (١) وأمده لنفقاته بمائة ألف استرهن عليها التاج الملكي وبقي عند ملوك بني مرين نخراً للاعقاب وزحف السلطان

---

(١) قيل انه بعد أن سلم عليه الدون الفونس طلب يعقوب بلسان زناتة الماء ليغسل يده من قبلة ملك قشتالة وقيل من مصافحته فانظر الى ما كان من عز الاسلام بازاء الافرنج

الى جهة قرطبه وبها شانجه فاكتسح نواحيها وامتنعت عليه فانتقل الى طليطلة فخرب جهاتها وعاد الى الجزيرة وقد ثقلت أوقار مطاياه الغنائم

ورأى ابن الاحمر ذلك فبدا له أن يوالي شانجه الخارج على أبيه وتعاهدا فلم يغنهما ذلك . ولما رجع السلطان من غزاته غزا مالقة من أملاك ابن الاحمر فلم يجد هذا بدا من طلب السلم والتجأ في ذلك الى ابنه فأسعفه وأجاز الى أبيه رغبة في الثواب وجمع كلمة المسلمين فأسعفه فيما رغب فيه اليه وأقلع عن مالقة وتأكدت السلم مع ابن الاحمر وانبسط رجاء المسلمين وأعاد السلطان الغزو في دار الحرب واستأنف الاثخان وخرج الى نواحي طليطلة في غرة ربيع الثاني سنة ٨٢ فلم يصادف بناء الا هدمه ولا زرعاً الا حطمه ولا سرحا إلا اقتلعه ولا جمعا إلا صدعه وعاق جيشه عن زيادة الايغال كثرة الغنائم فرجع وقسم السلب بين أجناده ونقل من الخمس وأجاز الى المغرب وبلغه وفاة أذفنش ملك قشتالة واجتماع النصرانية على ولده شانجه الخارج كان عليه فتحرك للجهاد وأرسل ولده أبا يعقوب في أثر العرب الخارجين فاتبع أثرهم الى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس ونهض السلطان مستنفرا للجهاد فأجاز بجنوده الى الجزيرة ومنها دخل دار الحرب فخرج وأثخن ونزل على شريش فضايقها، وأخذ بخنقها، وأغزى ابنه الامير أبا يعقوب اشبيلية فنسف ديارها، وعاث في نواحيها، وصرف منصرفه بقرمونة فشدد عليها وطأته، وأعظم فيها نكايته وسرح الوزير محمد بن عطوا ومحمد بن عبلة جواسيس في أرض العدو اليه فعادا بنبإ ضعف الحامية فأغزى حافده عمر بن عبد الواحد جهة وادلك وحصن اركش فأبادوا عمرانها، وغادروها كجوف العير، وسرح ابنه أبا

معروف لغزو اشبيلية ثانية فأتم ما كان باقيا دون خراب وقصد حصنا بقرب معسكره فسرح الجنود والناشبة بالآلات فاقتحموه وسبوا أهله وقتلوا حاميته وركب الى حصن آخر فأصابه ما أصاب الاول ووافاه ولي عهده أبو يعقوب بمرابطة المغرب ومطوعته ومرتزقته في واحد وعشرين ألفا كلهم قد باعوا أنفسهم من الآخرة فعقد له أبوه على جيش كثيف وأغزاه نواحي اشبيلية فاقتحموا الحصون ودكوا القلاع وسبوا الذراري ودمروا قرى الشرف والغابة الكثيرة العمران وعادوا بالغنائم فأغزاه ثانية قرمونة والوادي الكبير فبرز حامية قرمونة المدفاع فانكشفوا وأحجرهم في الحصن وكر على اشبيلية ثانية واقتحم منها برجا كان هناك عينا للعدو فأحرقه وقفل. ثم أغزاه والده جزيرة كيوثر فاقتحمها وأباد أهلها بالسيف وأغزى طلحة بن محلي اشبيلية رابعة فأثخن فيها حتى صفرت تلك البقاع من العمران، وأصبحت بسائط افرنتيره واشبيلية ولبلة وقرمونة واستجه منعقا للبوم بعد أن كانت ملاى بالعمارة والنضارة، وهو أثناء هذه الغارات كلها غادي شريش ويراوحها قتالا ونكالا، ويبث السرايا في أرض العدو ليلا ونهارا، حتى لم يخل يوم منه من غزوة أو غارة

وقد أصابت جموع الاسلام في هذا الرباط الطويل العريض من الغنائم وأحرزت من المال الصامت والناطق ما لا يحصيه إلا خالقه ولم يرتد أمير المسلمين من الغزو إلا بقدوم فصل الشتاء وبلغه أن العدو اوعز الى اساطيله بالاعتراض في الزقاق فأوعز السلطان الى اساطيله بالاجتماع من ثغور العدوتين فأحجمت أساطيل الافرنج ورأى ابن

اذهش شانجه أو صانشو ما نزل ببلاده من بأس المسلمين وضرع اليه كبار دولته في خطبة السلم من يعقوب بن عبد الحق لشدة ما بلغ بهم البلاء و نالهم من النكال ورأوا من شمول الخراب أوطانهم فعول على مخاطبة أمير المسلمين في السلم ضارعا صاغراً وأوفد اليه الملأ من أساقفته وأعيان مملكته فردهم يعقوب اعتزازاً عليهم فزدهم شانجه وكرروا الاستعطاف فأجابهم الى السلم بشرط أن يقبلوا ما شاء من عز قومه وأن يسالموا جميع المسلمين من قومه وغيرهم وأن يرفعوا الضريبة عن تجار المسلمين في دار الحرب ويجتنبوا الفتنة بين امراء الاسلام الى غير ذلك فأجابوا الى كل ما اشترط ووفد شانجه على السلطان بمكانه من شريش فالتقاه براً وترحيبا واحتفل للقائه اظهاراً لعز الملة وقدم له ملك الاسبانيول هدية سنية وخضع له . انقلب قرير العين بمسالمته وسأله يعقوب أن يبعث اليه بكتب العلم التي حازه النصارى من مدن الاسلام فارسل اليه منها ثلاثة عشر حملا فوقفها في المدرسة التي أسسها بفاس

وقفل السلطان من هذا الجهاد بعد أن وفر للاسلام من العز ما لم يمهده منذ أيام ابن تاشفين وازدحمت في حضرته الشعراء للتهنئة واعتل بعد ذلك وتوفي بالجزيرة قبل وصول ولي عهده أبي يعقوب فأخذ البيعة على الناس وزراء أبيه وأجاز اليهم من المغرب فجددوا البيعة غرة صفر سنة ٦٨٥ وفرق العطاء واحزل ومحا بعض الرسوم ورفع المكوس وقبض أيدي العمال عن الظلم واصلح السابلة وبعث الى ابن الاحمر بالحضور فوافاه فاختفى به ونزل له عن جميع الاندلس إلا الجزيرة وطريف واتفقا على اخراج أبي الحسن بن اشقيلولة من وادي آش ففصل الى المغرب

امية ونزل ابن الاحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا لابي يعقوب وأرسل هذا وزيره عمر بن السعود الجشمي لمنازلة طريف فامتنعت عليه وقفل ابن الاحمر الى حاضرة حمرائه عام ٦٩٢ وقد نأت المصافاة بينه وبين ابن مرين

وتوفي محمد الثاني المعروف بالفقيه ابن محمد الاول المعروف بالشيخ سنة ٧٠١ فقام بالامر بعده ابنه محمد الثالث ويقال له المخلوع والاعمش لضعف بصره وكان مع ضعف البصر ضعيف البصيرة فتغلب عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم ولم يعط لامر حتى يد له الانتقاض على ابن مرين لامور نقمها ولا جرم لها فوصل يده بيد ملك الاسبانيول فرديناند الرابع ابن شانجه وهو (هرانده) عند العرب وداخل ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل في الاستيلاء على سبته وأجاز اليها على غفلة من أهلها واشتغال ابن مرين بحصار تلمسان الكبير بعد التضريب بين أعيان البلدة فاستولى عليها وأرسل عمالها بنو العزفي الى غرناطة وقامت بها دعوة ابن الاحمر على يد ابن عمه وأخذ أبو سعيد في التفريق بين بني مرين والدعوة لعثمان ابن أبي العلاء المريني رئيس الغزاة المجاهدين بالاندلس واستقدمه لاجل تمكين الفتنة بينه وبين أولاد عمه فخرج ودعا لنفسه وأجابه كثير من الناقمين وبايعوه على الموت وفاز أبو سعيد بن الاحمر بامنيته وانتشبت الحرب بين رجال بني مرين

وتوفي السلطان أبو يعقوب في اثنائها فخلفه السلطان أبو ثابت بن أبي عامر ولي عهد أبي يعقوب لكون والده توفي قبل جده ولم يستقم له الامر إلا بعد نزاع هاض جناح الدولة مع عمه أبي سالم فشرع في محاربة

ان رأسه نصب بسور البلدة وأنه كان باقيا لعهده. وهذه الوقعة من أشهر وقائع الاندلس وفيها استنصر الغرناطيون السلطان أبا سعيد المريني فاعتذر لهم بمكان ابن أبي العلاء شيخ الغزاة وعدوه من دولتهم واشترط عليهم دفعه اليه ووعدهم باعادته فلم يمكنهم ذلك لمكان عثمان ومنعته من عصابته وأغناهم الله عن نصرة أبي سعيد بنصرته تعالى

وفي سنة ٧٣١ توفي أبو سعيد المريني وقام بالامر بعده ولي عهده الامير أبو الحسن وكان من أجلّ سلاطين الاسلام فاشتغل مدة باطفاء فتن مملكته ولما خلص له المغرب وجه عنايته الى الجهاد وسمت نفسه الى حال جده أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وكان الاسبانيول بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال وشجر بين المسلمين دون التوافي لنصرة بعضهم بعضا قد تغلبوا على كثير من حصونهم ونازلوهم في عقر دارهم غرناطة وضربوا الجزية على أبي الوليد فأداها عن يد الذل فاعتزم أبو الحسن الجهاد وجهز الاساطيل وسرح بالجيش ابنه الامير أبا مالك فغزا أرض العدو وأثخن وغنم وجمع له العدو فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصاما فأبى إباؤه وأقام بأرضه فأدركوه وعسكره وهم في مضاجعهم وقتل أبو مالك قبل أن يستوي على جواده واستلم الاسبانيول أكثر قومه وغنموا ما معهم ووصل النعي أبا الحسن والده فقت في عضده وتفجع واعمل في النفير للجهاد والاخذ بالثأر واستدعى الاساطيل من مراسي العدوة، وانجده الموحدون من تونس باسطول بجاية عليه زيد بن فرحون قائد البحر، ووافاه أسطول طرابلس وقابس وجربة واجتمعت كلها بسبتة معقوداً عليها لمحمد بن العزفي، زحفت الى أساطيل الافرنج فتحاجزت

وتناجزت وأهب الله ريح النصر من جهة بني مرين فخالطوا سفن الافرنج واستلحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم (المند) وعادوا بالسفائن محنوبة الى مرفإ سبتة وطيف بالرؤس وجلس السلطان للتهنئة وكان يوما مشهوداً

ثم أخذ يجيز العساكر الى الاندلس وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠ وخيم بساحة طريف ووافاه سلطان غرناطة بغزاة زناتة وجنود الاندلس وشددوا الحصار على طريف وجاء الاسبانيول باسطول عظيم خالوا به بين العدوتين وامتنعت البلد ففنيت الاقوات واختلت أحوال المعسكر وتكاثرت جموع الاسبانيول وأصرخهم صاحب أشبونة البرتغال فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلا على حين غفلة وكمنوا في مكان وفي غد تزاحف الجمعان فبرز الجيش الكمين من البلد وخالفوا الى معسكر السلطان وعمدوا الى فسطاطه فقاتلهم الحراس فقتلوهم وفتكوا بحظايا السلطان عائشة بنت عمه وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب افريقية وغيرهما وسلبوا الفسطاط . احرقوا المعسكر، فلما رأى المسلمون ما حل وراءهم بالمعسكر اختل مصافهم واخذ ابن السلطان أسيراً فخالطته العدو في تقدمه واخاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله فدافع ونجا ووصل الطاغية الى محلة السلطان فانكر على قومه قتل النساء والاولاد وانهزم ابن الاحمر الى حمرائه وخلص أبو الحسن الى الجزيرة فجعل طارق ومنها الى سبتة وكانت وقعة مشئومة على المسلمين عظم فيها البلاء وفدحت الرزيئة وجل الخطب، وقد بالغ بعض مؤرخي الافرنج في تقدير خسائر المسلمين فزعم بعضهم أنه قتل منهم مائتا ألف وان خسائر الاسبانيول كانت نحو ٢٠ قتيلا فقط وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الاسلام إن خسائر الافرنج في وقعة الدون بطره بلغت خمسين ألفاً ولم يستشهد من

المسلمين إلا ثلاثة عشر فارساً وقيل عشرة فقط مما يدل على تأخر فن النقد في تلك الاعصار وقبول الاخبار على علاتها بدون عرضها على العقل ولا سبرها بمعيار الحكمة والنظر. على أن هاتين الوقعتين تتشابهان في قضية أسر نساء الملوك ففي الاولى أسرت امرأة الطاغية بحسب قول العرب وفي الثانية أسرت بعض نساء السلطان أبي الحسن عدا من قتل منهن

وبعد هذه الوقعة اشتدت وطأة الاسبانيول على المسلمين وطمعوا في التهام بقيه الاندلس ونازلوا قلعة بني سعيد وأخذوها بعد حصار شديد. وأعاد أبو الحسن بن مرين الكرة وجهز الاساطيل وسرب البعوث الى الجزيرة الخضراء وتلاقت الاساطيل الاسلامية والنصرانية فقضى بهزيمة المسلمين وملك أسطول الطاغية بحر الزقاق وسما له شوق الى استخلاص الاندلس فبعث بالنفير ووافته النجدات وحضرت الاوامر من البابا بوجوب القيام يداً واحدة لطرد مسلمي الاندلس، وانضم الى الفونس ملك قشتالة كثير من الملوك ووافاه من أنسباء ملك انكلترة الكونت درني والكونت سالسبري، غاستون بركونت دوفوا وكونت دوبيارن، غيرهم وزحف الجميع فنازلوا الجزيرة الخضراء ليلحقوها بطريف ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين وحشروا اليها الفعلة والصناع للنقب والحفر وأطالوا حصارها واتخذوا للمعسكر بيوتا من الخشب بقصد المطاولة كما اتخذوا لمعسكرهم في القرن التالي بيوتا من الحجر وهم على غرناطة وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة فنزل بظاهر جبل طارق وطال الحصر وأصاب أهل الجزيرة الجهد فسألوا الامان فبذلوه لهم وخرجوا الى المغرب وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن خير نزل

والى هذه الوقعة يشير كتاب شهير بعث به السلطان أبو الحسن بن مرين الى الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر يقول فيه عند ذكر الصلح : « إلا أن المطاولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف أدى الى فناء الافواه في البلد حتى لم يبق لاهله قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد ، فكتب الينا سلطان الاندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح » الخ

وورد الجواب من السلطان ابن قلاوون وفيه عند ذكر الوقعة قوله : « ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسومة ، وسالت على عدوكم أباطحهم قسينا المعوجة وسهامنا المقومة ، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح ، وجعلنا ليل العجاج ممزقا ببروق الصفاح ، واتخذنا رؤسهم لصوالج القوائم كرات ، وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات ، وعطفنا عليهم الاعنة ، وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الاسنة ، وفلقنا الصخرات بالصرخات ، وأسلنا العبرات بالرعبات ، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول ، وأين الثريا من يد المتناول » الخ

ليت شعري ما كان أغناه عن حرب الكلام ، والاعتياض عن السيوف بالاقلام ، إن كانت الغاية بعيدة عليه الى هذا الحد ، والظاهر أن كاتبه صلاح الدين الصفدي المشهور بحب التجنيس عز عليه أن لا يفلق الصخرات بالصرخات حرمة لهذا الجناس ولو كان في فضلة القول عن العمل ما فيها من الهجنة

ولنعد الى الكلام على بني الاحمر أصحاب هذا المقام فنقول : لما توفي أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على مملكة غرناطة من يد ابن عمه أبي الجيوش بويع ولده محمد الرابع طفلا صغيراً لكفالة الوزير محمد بن المحروق فاستبد هذا بالامر وأمعن فى الظلم فلما بلغ محمد الرابع سن الحلم اغتاله وشمر لتأييد الملك وجهاد العدو ووفد على أبي الحسن ابن مرين فى فاس فأعظم قدومه وتفاوضا في شأن المسلمين وراء البحر واعتزما الجهاد ويومئذ أرسل أبو الحسن ابنه الشهيد فيما بعد الامير أبا مالك في خمسة آلاف مثاغر من آل مرين وانضموا الى محمد بن اسماعيل ابن الاحمر المذكور ونازلوا جبل الفتح. زحف اليهم الاسبانيول فوقعت بين الفئتين حروب ومناجزات لم يظفر فيها الاسبانيول بطائل ودخل المسلمون الجبل عنوة وبقي مع الجزيرة الخضراء لنظر أبي مالك الى أن قتل كما سبق به الخبر وتوالت الهزائم على المسلمين وكان صاحب قشتالة قد حاول استرداد الجبل ونزل عليه قبل المرة الاخيرة فأسرع محمد الرابع الى انقاذه فرحل ملك النصارى وعاد محمد الى غرناطة ظافراً ونقم على جند افريقية فيما قيل قعودهم وهزيء بهم فعتبوه ، وربا ذلك فى قلوبهم فقتلوه .وقيل ان ذربة عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة من زناتة والبربر وابن سلطان المغرب كانوا قد خلفوا شيخهم فى الجهاد ببر الاندلس وكانوا يرجعون في رئاستهم الى الامير أبي ثابت عامر وقويت عصابتهم وعلت كلمتهم حتى استبدوا على السلطان وكان ذلك قبل اجازته نحو أبي الحسن بن مرين فلما أجاز اليه ظنوا فيه الظنون وأضمروا السوء لما بينهم وبين أولاد عمهم من المنافسة والعداوة فعند أوبته التقوه بقرب حصن

اصطبونة وأغلظوا له القول وقتلوا عاصما صاحب ديوان العطاء من مواليه فلما أنكرها السلطان تداولوه قصدا بالرماح الى ان قتلوه وانقلبوا فجؤا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد فأجلسوه مكانه واستبدوا عليه وخشي غائلتهم وأسر لهم فلما اتفق مع ابن مرين قبض عليهم واعتقلهم جميعا وأجازهم الى تونس وكان أبو الحجاج يوسف من أفاضل الملوك في عدله ونزاهته وحبه للعلم والعلماء عقد مع النصارى المهادنات لراحة رعيته وتفرغا للاعداد والاهبة، ولم يهمل وقته ولا ضيع الفرصة ، وأنشأ المساجد والمدارس، وجر المياه ومهد السوابل، الى أن توفي عام ٧٥٥ وسبب وفاته أن بعض الزعانف وقيل ان رجلا به مس قد طعنه يوم الفطر وهو ساجد في الصلاة فقضى عليه لحينه فقام بالامر بعده محمد الخامس وكان بعضهم رشح ابنه الاصغر اسماعيل فلما عدلوا عنه اجروه ببعض القصور وكان له صهر من ابن عمه محمد بن اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فكان يغريه سرا بالوثوب الى أن أمكنته الفرصة وذلك ان محمداً خرج مرة الى التنزه فدخل محمد بن اسماعيل في زمرة من الاوشاب لفهم حواليه واقتحم دار الحاجب رضوان قتله بين حرمه وبنائه وقربوا الى اسماعيل فرسه فركب ودخل القصر وقرعت الطبول بسور الحمراء وفر محمد الى وادي آش فبايعه أهلها على الموت واتصل خبر هذه الواقعة بالسلطان أبي سالم المريني خلف أبي الحسن فأرسل لحينه أبا القاسم الشريف لاجازة محمد المغصوب ملكه الى المغرب لما بينهما من العهد وعقد مع السلطان المنصوب تسريح الوزير الكاتب أبي عبد الله بن الخطيب المشهور بلسان الدين لمكانه من دولة محمد فأجازوا جميعا واحتفل أبو سالم لقدومهم بفاس دار ملكه وغص المجلس

بالمشيخة والاعيان وقام ابن الخطيب فأنشد بين يدي السلطان قصيدته الرائية يستعطفه لسلطانه و يستنجده لاعادته حتى أبكى الحاضرين ومطلعها

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادي ونم به الزهر

ومنها

بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى ... باكنافها والعيش فينان مخضر

وجوي الذى ربى جناحي وكره ... فها أنا ذا مالي جناحٌ ولا وكرُ

نفت بيَ لاعن جفوةٍ وملالة ... ولا نسخ الوصل الهنيّ لها هجرُ

ولكنها الدنيا قليلٌ متاعها ... لذاتها دأبا تزور وتزورُ

فمن لي بنيل القرب منها دوننا ... مدى طال حتى يومه عندنا شهر

ولله عينا من رآنا ولاسمى ... ضرام له في كل جانحة جمر

بكينا على النهر السرور عشية ... فعاد اجاجاً بعدنا ذلك النهر

ومنها

زجرنا بابراهيم ملء هموننا ... فلما رأينا وجهه صدق الزجرُ

بمنتخب من آل يعقوب كلما ... دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر

أطاعته حتى العصم في قنن الربى ... وهشت الى تأميله الانجم الزهر

ومنها

قصدناك يا مولى الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر

وأنت الذي تدعى اذا دهم الردى ... وأنت الذي ترجى اذا اخلف القطر

وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه ... كسير ومن عليائك يلتمس النصر

غريب يرجي منك ما أنت أهله ... فان كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر

فعد ياأمير المؤمنين لبيعة ... موثقة قد حلّ عقدتها الغدر

أعده الى أوطانه عنك ثانيا وقلده نعماك التي ملها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها فقد صدهم منك التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة تحاولها يمناك مابعدها خسر

وبقي ابن الاحمر محمد ووزيره ابن الخطيب على الرحب والسعة والاجلال والكرامة في حاضرة ابن مرين الى أن كان ارتجاع محمد ملكه لسنة ٧٦٣

ولنذكر هنا قول الوزير ابن الخطيب عن هذه الحادثة في تأليفه المسمى (باللمحة البدرية بالدول النصرية) وهو إنه كان السلطان أبو عبدالله عند تصير الامر اليه قد ألزم أخاه اسماعيل قصراً من قصور أبيه بجوار داره مرفها عليه متممة وظائفه وأسكن معه امه وأخواته منها وقد استأثرت يوم وفاة والده بمال جم فوجدت به السبيل الى السعي لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبي عبدالله ابن الرئيس أبي الوليد بن الرئيس أبي عبد الله المبايع له باندرش ابن الرئيس أبي سعيد جدهم الذي تجمعهم جرثومته وشمر الصهر المذكور عن ساعد عزمه وهو على ماهو عليه من الاقدام ومداخلة ذؤبان الرجا واستمان بمن أسفته الدولة وهفت به الاطماع فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنمين شفاً صعب المرتقي واتخذوا آلة تدرك ذروته لقعود بنية كانت به عن التمام وكبسوا حرسيا باعلاه بما اقتضى صمانه ونزلوا الى القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعمائة فاستظهروا بالمشاعل والصراخ وعالجوا دار الحاجب رضوان ففضوا اغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده وانتهبوا مااشتملت عليه

واسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الامير المعتقل اسماعيل وقرعت الطبول ونودي بدعوته

وقد كان أخوه السلطان متحولا الى سكنى الجنة المنسوبة للعريف لصق داره فما راعه الا النداء والعجيج وقرع الطبول وهب الى الدخول الى القلعة فألفاها قد أخذت دونه شعابها ورشقته السهام فرجع وسدده الله في محل الحيرة ودس له عرق الفحول من قومه فامتطى صهوة فرس كان مرتبطا عنده وصبح مدينه وادي آش وقد أعيا متبعه فلم يشعر حافظ قصبتها الا وهو فيها فأعطاه أهلها صفقتهم وتجهزت الحشود لمنازلته وجدد أخوه المتغلب عقد السلم مع طاغية قشتالة باحتياجه الى سلم المسلمين لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين

واغتبط به أهل المدينة فذبوا عنه ورضوا بهلاك نعمتهم دونه واستمرت الحال الى يوم عيد النحر من عام التاريخ ووصله رسول صاحب المغرب مستنزلا عنها ومستدعيا الى حضرته لما عجز عن امساكها وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من مسول ، فانصرف ثاني النحر وتبعه جمع وافر الى مريلة من ساحل اجازته وكان وصوله الى مدينة فاس مصحوبا من البر والكرامة بما لا مزيد عليه في السادس من المحرم فاتح عام ٧٦١ وركب السلطان للقائه ونزل اليه عندما سلم عليه وكنت قد لحقت به مفلتا من شرك السكبة التي استأصلت المال ، وأوهمت سوء الحال بشفاعة السلطان أبي سالم فقمت بين يديه منشدا في المحفل المذكور (وذكر القصيدة الرائية حتى أتى على آخرها ثم قال) : وفي صبيحة يوم السبت السابع عشر من شوال عام اثنين وستين وسبعمائة كان انصرافه الى

حكم نسجه بآية العناية ، داخل أخا لنا كنا الزمناه الاقتصار على قصره : ولم نجعل أداة تدل على حصره ، وسامحناه في كثير من أمره ، ولم نرتب نزيده ولا عمره ، واغتررنا برماد علا على جمره ، فاستدعى له من الصعاليك شيعة من كل درب بفك الاغلاق ، وتسرب انفاق النفاق ، وخارق للاجماع والآصفاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب الفساق ، وتسور بهم القلعة من ثلم شرع في سده ، بعد هده ، ولم تكمله الاقدار المميزة في ليلة آثرنا بيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستنبنا من يضلع بامورنا ، فاستتم الحيلة التي شرعها . واقتحم القلعة وافترعها ، وجدل حرس النوبة وصرعها ، وكبس محل النائب عنا وجدّله ، ولم ينشب أن جدله ، واستخرج الاخ البائس فنصبه ، وشد به تاج الولاية وعصبه ، وابتزامرنا وغصبه وتوهم الناس أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ، والدائرة بناقد ألمت ، ولقد هممت ، نخذل الناصر ، وانقطعت الاواصر ، واقدم المتقاصر ، واقتحمت الابهاء والمقاصر ، وتفرقت الاجزاء وتحللت العناصر ، وفقد من عين الاعيان النور الباصر ، فاعطوه طاعة معروفة ، واصبحت الوجوه اليه مصروفة ، وركضنا وسرعان الخيل تقلفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها ، وتكفي علينا السماء والله يكفيها ، الى أن خلصنا الى مدينة وادي آش خلوص القمر من السرار ، لا نملك الا نفسا مسلمة لحكم الاقدار

(الى أن يقول) ولم ينشب الشقي الخزي ان قتل البائس الذي موه بزيفه ، وطوقه بسيفه ، ودل ركب المخافة على خيفه اذ أمن المضعوف من كيده وجعل ضرغامه بازيا لصيده واستقل على اريكته استقلال الظليم

على تريكته ، حامي الهامة ، متنفقا بالشجاعة والشهامة

(الى أن يقول) وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة . وركبنا البحر تكاد جهتاه تتقارب تيسيرا ، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيرا ، وأخذت نحائن الصيحة فاختبل ، وظهر تهوره الذي عليه جبل ، فجمع أوباشه السفلة وأوشابه ، وبهرجه الذي غش به المحض وشابه ، وعمد الى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحريزة ، والمعاقل العزيزة ، فملأ بها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق ، والوشح القراطق ، واحتمل عدد الحرب الزينة ، وخرج ليلا عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودلالة بغيه الزائلة ، ان يقصد طاغية الروم من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، الا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الامة المسلمة فلم يكن الا ان تحصل في قبضته ، ودنا من مضجع ربضته ، واستشار نصحاءه في امره ، وحكم الحيلة في جناية غدره ، وشهره ببلده ، وتولى قتله بيده ، وألحق به جميع من أمده في غيه ، وظاهره على سوء سعيه ، وبعث الينا برؤوسهم فنصبت بسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشدرها . الى آخر ما قال

وفي هذه الواقعة نظم لسان الدين قصيدته اللامية المشهورة ووجه بها الى سلطانه المذكور فيقال أنه لشدة اعجابه بها أمر بكتابتها على جدران الحمراء ومطلعها

الحق يعلو والاباطل تسفل ... والحق عن أحكامه لا يسئل

واذا استحالت حالة وتبدلت ... فالله عزّ وجل لا يتبدل

واليسر بعد العسر موعودُ به ... والصبر بالفرج القريب موكل

أمحمد والحمد منك سجية ... بحليها دون الورى تتجمل
أما سعودك فهي دون منازع ... عقد باحكام القضاء مسجل

ومنها

عوذ كمالك ماستطعت فانه ... قد تنقص الاشياء مما تكمل
تاب الزمان اليك مما قد جنى ... والله يأمر بالمتاب ويقبلُ
ان كان ماض من زمانك قد مضى ... باساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الجاني الذي ... أرضاك فيما قد جناه الاول
والله قد ولاك أمر عباده ... لما ارتضاك ولاية لاتعزل
واذا تعمدك الاله بنصره ... وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل
وظعنت عن أوطان ملكك راكبا ... متن العباب فأي صبر يجمل
والبحر قد حميت عليك ضلوعه ... الريح تقطع للزفير وترسل
ولك الجواري المنشآت وقد غدت ... تختال في برد الشباب وترفل
جوفاء يحملها ومن حملت به ... من يعلم الانثى وماذا تحمل

ومنها

صبحتهم غرر الجياد كأنما ... سد الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغرّ محجل ... يرمي الجلاد به أغرُّ محجل
زجل الجناح اذا أجد لغاية ... واذا تغنى للصهيل فبلبل

ومنها

وبكل أزرق ان شكت الحاظة ... مَرَه العيون فبالعجاجة يكحل
متأود أعطافه في نشوة ... مما يعل من الدماء وينهل
عجبا له ان النجيع بطرفه ... رمدٌ ولا يخفى عليه مقتل

بالامر بعده ابنه أبو عبد الله يوسف والسلطان محمد هذا هو الذى استوزر لسان الدين بن الخطيب أشهر وزراء الاندلس على الاطلاق، بل من أشهر رجال الادب والسياسة فى الآفاق ،الذي بنى المقري أكثر نفح الطيب على سيرته وأخباره ونثره ونظمه وأشياخه وتلامذته بما لا أظنه جمع عن أحد مثله وحيث كان المقام تاريخ غرناطة في هذا الذيل وكان الوزير المذكور مفخر ذلك البلد وواسطة عقد ذلك الصقع فلا بأس فى إيراد زبدة خبره بما أمكن من الايجاز فنقول :

*

زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب

ترجمه سليل السلطان الامير العلامة أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بامر الله محمد بن الاحمر نزيل فاس في كتابه المسمى (فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان)فقال ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب

وقال في منشأه : نشأ على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتبا ثم حفظا ثم تجويدا ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي وقرأ عليه العربية وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي ولازم قراءة العربية والفقه على الشيخ الامام ابن الفخار البيري وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب الى آخر من

ذكر من أشياخ الرجل الاعلام ثم ذكر أخذه الطب وصناعة التعديل عن الامام يحيى بن هذيل حكيم وقته

وقال ابن خلدون بنسقه المعروف في شأن لسان الدين وكان معاصره وصاحبه : (١)

ترجمة ابن خلدون

(١) كما ترجم ابن خلدون لسان الدين ترجمه لسان الدين في (الاحاطة بأخبار غرناطة . بما نصه (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نسباء ثوار الاندلس وينسب سلفهم الى وائل بن حجر وحاله في القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة انتقل سلفه من مدينة اشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة، وتصرف جد المترجم به في القيادة، وأما المترجم به فهو رجل فاضل حسن الخلق جم الفضائل باهر الخصال رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصي الزي عالي الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجأش طامح لقنن الرئاسة خاطب للحظ بارع الخط مغرى بالتجلة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة مقيم لرسم التعين عاكف على رعى خلال الاصالة مفخر من مفاخر التخوم المغربية. قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال والعربية على المقري الزواوي وغيره وتأدب بأبيه وأخذ عن المحدث أبي عبد الله بن جابر الوادي آشي وحضر مجلس القاضي ابي عبد الله ابن عبد السلام وروي عن الحافظ ابي عبد الله السطي والرئيس ابي محمد عبد المهيمن الحضرمي ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الابلي وانتفع به

انصرف من افريقية منشأه بعد ان تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة واقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة وعرف فضله وخطبه السلطان منتقى سوق العلم والادب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده =

من البسيط الذي فيه ساحتها المسمى بالمرج على وادي سنجيل ويقال شنيل المنحرف فى ذلك البسيط من الجنوب الى الشمال، كان له بها سلف معروفون بوزارتها وانتقل أبو عبد الله الى غرناطة واستخدم لملوك بني الاحمر واستعمل على مخازن الطعام ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الادب وأخذ عن أشياخه وامتلا حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه وبلغ فى الشعر والترسيل حيث لا يجاري فيهما وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الاحمر وملا الدولة بمدائحه وانتشرت في الآفاق فرقاه السلطان الى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية الى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رئاسة الكتاب ببابه وثناه بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات فجمع بها أموالا وبلغ به المخالصة الى حيث لم يبلغ بأحد من قبله (الى أن قال)

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة وطعنه فأنواه لوقته وتعاورت سيوف الموالي المملوجي (١) هذا القاتل فزقوه أشلاء وبويع

(١) بجمع علج على علوج واعلاج ومعلوجي والظاهر ان الاخير مختار اهل المغرب لتداوله في كتاباتهم

وكتب الى العمال باتحافه فبادروا في ذلك وحصل منه على حظ وعند ما مر بسلا عند قفوله من سفره دخل مقبرة الملوك بسالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على روي الراء الموصولة يرثيه ويستثير به الى استرجاع ضياعه بغرناطة مطلعها :

ان بان منزله وشطت داره قامت مقامه عيانه أخباره
قسم زمانك عبرة أو عبرة هذا ثراه وهذه آثاره

الى آخر ما ذكر من ترجمته

ولا بأس في نقل شيء مما ترجم به ابن الخطيب نفسه نرويه ببعض تصرف حبا بالاختصار قال محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني قرطبي الاصل ثم طليطلة ثم لوشية ثم غرناطية يكنى أبا عبد الله ويلقب من الالقاب المشرقية لسان الدين الملقب في سوالم أعلام الحالية القرطبية كيحي بن يحي الليثي في وقعة الربض(١) الشهيرة في طليطلة ثم تسربوا محومين الى وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه فاستوزرهم بالمرسية الاندلسية جملة من النبهاء كعبد الرحمن قاضي كورة باغة وسعيد المستوطن بلوشه وكان سعيد هذا من أهل العلم والدين وخلفه ولده عبد الله سالكا مسلك أبيه في التزيي بالانقباض والتحلي بالنزاهة وخلفه ولده سعيد جدنا الاقرب وكان صدرا آخيرا مستوليا

(١) ملخص هذه الواقعة ان أهل ربض قرطبة ثاروا على الحكم الاموي وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي وغيرهم فهزمهم الحكم وقتل من قتله منهم وأجلى الباقين الى الاسكندرية فلم يطل الامر ان حصلت فتنة أجلتهم الى اقريطش أو كريد في الايام فعمروها واختطوا بها مدينة قنديا التي يقال ان اسمها بالعربي الخندق لكونهم أداروا عليها خندقا وكانت لهم بها امارة استمرت نحو سبعين سنة ثم رجعت الجزيرة للروم في ذلك الوقت

وجوه شهواته تراب زجري، وصرف هواي في التحول ثانيا، فاستعنت الله تعالى وعاملت وجهه فيه من غير تلبس بجراية، ولا تشبث بولاية، مقتصراً على الكفاية، خامل المركب، هاجر الزخرف، صادعا بالحق في أسواق الباطل، كافا عن السخال براثن السباع الخ انتهى.

وبقي ابن الخطيب في وزارة أبي عبد الله محمد الى أن غصت بامره حاشية السلطان فدبت في حقه عقارب السعاية، وتوهم ابن الخطيب ميل سلطانه الى قبولها فأجمع التحول عن الاندلس الى المغرب، واستأذن مولاه في تفقد الثغور الغربية وسار اليها في لمة من فرسانه ومعه ابنه علي، فلما حاذى جبل طارق مال اليه ومنه أجاز الى سبتة ومنها قصد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني وكان مكينا لديه لسابق عهد فأنزله خير نزل، وبعث كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً الى الاندلس في طلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات. فلما خلا الجو لاعدائه أخذوا تتبع سقطاته وإغراء سلطانه محمد به، ورموه بالزندقة ونسبوا اليه في ذلك كلما رفعت الى قاضي غرناطة أبي الحسن بن الحسن فسجلها عليه وبعثه ابن الاحمر الى سلطان المغرب يطلب الانتقام منه بتلك الكلمات. فأبى ذلك عبد العزيز أنفة لذمته أن تخفر ونزله أن يهان وقال: هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه

ولبث في جوار عبد العزيز الى أن توفي سنة ٧٧٤ ورجع بنو مرين من تلمسان الى فاس فصحب لسان الدين الوزير أبا بكر بن غازي القائم بالدولة يومئذ فأرسل ابن الاحمر يطلب من ابن غازي إسلام ابن الخطيب فأبى واستنكف وكان ابن الاحمر قد أعان احمد بن سالم المريني على سلطنة المغرب

سمي لسان الدين بذي القبرين، كما كان يلقب بذي الوزارتين، وكما جاء في كثير من الامور على اثنين .

وكان صدر زمانه في الكتابة والشعر بحيث أن المغرب ليفتخر بخائي ابن الخطيب وابن خلدون، كما يفتخر الشرق بصادي الصابي والصاحب

ولابن الخطيب تآليف جة أشهرها . كتاب التعريف ، بالحب الشريف ، والاحاطة بتاريخ غرناطة في مجلدات ستة ، واشارة الى آداب الوزارة ، والتاج المحكي ، والكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة ، والاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر ، ورقم الحلل في نظم الدول ، وطرف العصر في دولة بني نصر ، وبستان الدول ، قسمه الى شجرات أشبه بالنظارات في هذه الايام ، فقال مثلا : شجرة السلطان ، وشجرة الوزارة ، وشجرة الكتابة ، وشجرة الجهاد ، وقسم هذه فرعين خيول وأسطول ، كل ذلك على وضع غريب لم يسبق اليه . وكتاب تخليص الذهب ، وجيش التوشيح ، وعائد الصلة ، ونفاضة الجراب ، والزبدة الممخوضة ، وكناسة الدكان ، بعد انتقال السكان ، والدرر الفاخرة ، وسد الذريعة ، وأعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام ، وبضعة تآليف في الطب ، وعدة رسائل منها : خلع الرسن ، في أمر القاضي أبي الحسن ، ترجم بها القاضي أبا الحسن بن الحسن عدوه ، وديوان كبير ، وقد استوفى صاحب النفح في شأنه ما لم يبق في القوس منزعا ،

ولنعد الى ذكر بني الاحمر أصحاب غرناطة فنقول : بعد وفاة أبي عبد الله محمد الخامس الذي كان واسطة عقد هذا البيت تولى الامر ابنه

أبو الحجاج يوسف بجدد عقد السلم مع ملوك قشتالة وهادن الاسبانيول طمعا في راحة رعيته واعتنى باصلاح شؤون قومه إلا أن ابنه الثاني محمدا قام عليه وحدثته نفسه بالامارة وقضى مدته في مدافعة ابنه الى أن توفاه الله في سنة ٧٩٩ وكانت القاعدة أن يخلفه ولده البكر يوسف لكن حيث كان أخوه محمد (١) هو المنتزي على الملك وقد التف حوله جماعة من رجال الدولة، فقد أجلسوه على كرسي الامارة وهو السادس باسم محمد من سلاطين غرناطة وفي مدته لم تفتر المناوشات مع الاسبانيول على حدود المملكة وفي عام ٨١١ أتم أنفاسه وجيء بأخيه البكر يوسف الثالث من اعتقاله فبويع بالملك وهادن العدو ما استطاع الا انه اضطر أخيراً الى ركوب الاسنة ولم ينعقد الصلح الا في نحو سنة ٨١٣

اضطهاد اسبانية لمسلمي الاندلس ويهودها

وفي تلك المدة كلها كانت دولتا قشتالة وأراغون تتسابقان في تعذيب المدجنين الذين ذكرنا أنهم المسلمون الخاضعون لحكومة الاسبانيول وملوك الدولتين يتبارون في الانتقام منهم والنكال بهم استزادة للمثوبة واستملاءً في درجات الآخرة، حسبما كانت عليه حالة ذلك العصر من التحمس الديني والتأخر المدني

(١) أما مايفهم من قول الامير الفاضل المؤلف اسماعيل بن يوسف ابن محمد الغني بالله بن الاحمر في ترجمة الوزير الكاتب ابى عبدالله بن زمرك خلف ابن الخطيب في وزارة دولتهم فهو ان وفاة يوسف وقعت قبل هذا التاريخ لقوله « الى ان من الله بسراحه واعاده الى الحضرة في اول شهر رمضان المعظم من عام اربعة وتسعين وسبعمائة فكان ماكان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى وقيام اخينا محمد مقامه بالامر »

ففي قشتالة كان هنري أخو بطره قد جعل للمدجنين والاسرائيليين علامة فارقة اسمها (المشيرة) وأمر بمنع اختلاطهم وأخذهم وعطائهم مع الاسبانيول وان لا يقبل أحدمنهم في خدمة الدولة

وفي أيام جان الاول ملك قشتالة صدرت الاوامر بأن كل مسيحي يربي في بيته مدجناً او اسرائيلياً فله الحق كل الحق أن يؤدبه بالسياط وانه لا يجوز لمدجن ولا ليهودي ان يستخدم عنده مسيحياً، وان من خالف ذلك يضرب وتضبط أملاكه، كما انه لا يجوز دخول مسلم ولا يهودي بيت أحد من الاسبانيول الا اذا كان طبيبا وثبت لزومه ومن خالف ذلك يغرم بدفع ستة آلاف مراويد (نوع من السكة)

وسنة ٨١١ هجرية جدد جان الثاني أمر سلفه في رفض المدجنين واليهود في خدمة الدولة وضم اليه أن جزاء المخالفة دفع ثلاثة آلاف مراويد، وان كل من يسافر من المسلمين أو اليهود مع أحد الاسبانيول او يؤاكله او يستخدمه في عمل له يجلد مائة، واذا تكرر الفعل يؤخذ منه ألف مراويد ويكون ثلثاها للمخبر، واذا وجد احد من هؤلاء في وليمة اسبانيولي يغرم بدفع ثلاثة آلاف وان عاد صاحباً له من الاسبانيول اثناء مرض يدفع ثلثمائة وان عاملهم بأخذ أو عطاء فيدفع الثلاثمائة ويضرب ويعزر

وكانت في بادىء الامر محاكم مخصوصة بالمدجنين فألغيت في التالي وأحيلت دعاويهم الى محاكم الاسبانيول وصدرت الاوامر ايضاً بأن كل يخرج مدجنا من مزارعه ويستخدم لحرثه مدجنا بدلا عنه يغرم بخمسة آلاف مراويد وان تكرر فعله فبمائة الف وان تكرر ايضا فتضع الدولة يدها على جميع عقاراته واذا فر مدجن الى غرناطة ووقع أثناء فراره في يد

الاسبانيول عدّ اسير حرب وضبطت جميع أمواله وصار ملكا لمن يمسكه وسنة ٨٢٦ اضيف الى هذا الشرط أن من منع من المدجنين ابنه من التنصر عذب شديدا ومن اسر من مسلمي غرناطة احداً كان له ملكا خالصاً

وسنة ٨٣٠ صدرت الاوامر بعدم اعتبار امضاء الاسبانيول فيما عليهم للمدجنين واليهود وباعتبار امضاء هؤلاء فيما عليهم للاسبانيول

وسنة ٨٣٣ صدرت الاوامر ان المسلم او الاسرائيلي المدّعى عليه بدين لاحد الاسبانيول اذا انكره لا يقبل منه اليمين ولكن حيث كان بعض المدجنين واليهود يضمنون الاراضي الاميرية ففي هذه الحالة يقبل منهم اليمين عند الانكار لعدم إلحاق الضرر بخزينة الدولة

وسنة ٨٨٠ صدقت الملكة ايزابلا جميع عهود جان الصغير وأضافت عليها حظر لباس الحرير وحلية الذهب والفضة على المسلمين واليهود (عاملت المسلمين في ذلك بحكم شريعتهم لكن في الرجال فقط) ووضعت لهم علامات فارقة في الملبس من جملتها رقعة زرقاء عرضها أربع أصابع لتمييز المسلمات والاسرائيليات

وما كفى كل هذا حتى نشرت حكومة قشتالة امراً لجميع عمال النواحي بأنه بلغ الملكة وقوع إهمال في انفاذ بعض الشروط بتمامها في حق المدجنين واليهود وانه ان حصل فيما بعد اقل تقاعس من احد في تنفيذها بحرفها يعزل من منصبه ويحرم معاشه

واما في مملكة اراغون فكان بطره الثالث قد اعلن في نحو سنة ٦٨٠ هجرية أن كل شخص مسيحيا كان او مسلما او اسرائيليا يمكنه استيطان مملكته والاقامة بها حيث شاء لكن ينفى المسلمون واليهود من الخدمة

هذه الدرجة لما تأخرت اسبانية الى الحد الذى وصلت اليه بعد ان كان لها من مراكزها فى أوروبا وافتتاح اميركا على يدها وانبساط أيديها في مستعمرات الخافقين ما يضمن لها المقام الاول بين الدول

* * *

﴿ عودة الى ابن الاحمر ﴾

ومن اخبار يوسف الثالث انه لما كان في محبسه من شلوبانية واشتدت علة أخيه محمد السادس وقطع حبال الرجاء من هذه الحياة طمع في تحويل الملك الى ابنه فكتب الى قائد القلعة التي كان أخوه معتقلا فيها بأمره بضرب عنقه عند وصول كتابه لكيلا ينازع ابنه في الملك واتفق عند وصول الكتاب ان يوسف كان يلعب بالشطرنج مع القائد فلما دفع الرسول اليه مرسوم السلطان استأذن الامير يوسف في قراءته وما عتم ان امتقع لونه فاستشف يوسف الامر وسأل القائد هل فيه أمر بضرب عنقي ؟ فتحير في الجواب فأخذ يوسف الكتاب وقرأه بدون أن يعلو وجهه اقل تغير ولما اتى على آخره تبسم قائلا للقائد : لنكمل لعبنا ، فلم يدر القائد كيف يلعب بعد ماشاهد من ربط جأش الامير وسكينته ، ويقال انهما كانا لم يزالا في اللعب حينما اقبل فارس ينعي محمدا السادس ويبشره بانتظار الناس حضوره لتبوء تخت الملك وكانت أيام يوسف هذا موسومة بالخير لاهل غرناطة وكان مما بلا من حلو الدنيا ومرها ، وحلب من شطري عرفها ونكرها ، قد أصبح على جانب من الحذر في قومه والرأفة برعيته فساس أمورهم سياسة الاب الشفيق الى ان وافاه اجله لخمس عشرة سنة من ملكه

فقام بالامر بعده ابنه محمد اليساري أو الايسر فأكد عهود المصافاة مع من جاوره من الملوك لكنه لم يحسن الاضطلاع بالاعباء فثار عليه اهل غرناطة وبايعوا محمد الصغير من ابناء عمه وانسلّ محمد الايسر أو الاعسر خفية من غرناطة في هيئة ذلك فلحق بساحل البحر ومنه تزيأ بثياب بحري وأجاز في فلك صغير الى تونس نزيلا عند محمد الناصر ملكها مستغيثا به فأكرم نزله ووعده خيراً

وأما محمد الصغير فأخذ ينتقم ممن شايعوا ابن عمه وقد ورد في تواريخ الافرنج انه حاول لاجل ذلك نكبة يوسف بن سراج من رؤساء غرناطة ففر ابن سراج بأربعين فارسا من أهله وصحبه الى ملك قشتالة وداخله في أمر إعادة محمد الاعسر فكتب صاحب قشتالة الى صاحب تونس يسأله ارسال نزيله الاعسر وهو يظاهره على أمره فانفذه بألف وخمسمائة من رجاله ولما وطئ أرض الاندلس انحاز اليه الاكثرون وأخرج محمد الصغير عسكراً للقائه فانضم أكثرهم اليه ودخل غرناطة فاعتصم محمد الصغير بالحمراء وبقي محصوراً الى ان أسلمته حاميته بعد ان نال منهم جهد الحصار فقتل وكانت مدة امارته سنتين وبضعة أشهر واستقر الاعسر في ملكه وعضده في ذلك ملك قشتالة املا بوهن عزيمته وسوء تدبيره لكنه رمى بآماله ابعدما يمكن للاعسر قبوله وطمح الى ادخال سلطنة غرناطة تحت جناح حمايته فنشأ عن ذلك خلاف انتهى بالحرب وماجت الثغور بالبعوث وفي أثناء ذلك فر يوسف بن الاحمر الذي يقال انه حفيد أبي سعيد المنتزي على الغني بالله الى صاحب قشتالة ووعده ان اعانه على ملك غرناطة بقبول الطاعة له واداء الجزية فسرح معه جيشا وانضم اليه أحزاب يوسف

فأجلسوه مكان الاعسر وفر هذا واستقر بمالقة لكن لم يمض على ذلك ستة أشهر حتى توفي يوسف هذا وأعيد محمد الاعسر الى مكانه ثانية وذلك في سنة ٨٣٥

وكانت بين ملوك الاسبانيول لذلك العهد محاربات شغلتهم عن غرناطة زمنا الا ان الايسر لم يعرف الاستفادة من هذه الفرصة واختلت أمور الدولة في أيامه فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقواد المصر واتسع الشر وانحاز محمد بن اسماعيل من انسباء السلطان وقيل ابن أخيه بلمة من فرسانه الى ملك قشتالة وانتزى محمد بن عثمان الاحنف من ذوي القرابة أيضا وكان قائداً بالمرية وجاء بجماعة من خاصته فدخل الحمراء وتبوأ الملك عنوة وقصر الايسر في قلعة وذلك في أوائل جمادى الاولى سنة ٨٤٩

ولما كان ملك قشتالة ذا هوى مع نزيله محمد بن اسماعيل زحف ابن الاحنف الى بلاده واكتسح البسائط والثخر وغنم وهزم الاسبانيول مراراً الا ان سرية له انهزمت في ١٨ المحرم سنة ٨٥٦ وفي الشهر التالي انهزمت له سرية ثانية يقودها ابن عبد البار وكان هذا منفرداً عن أبيه حليف محمد الاعسر للاتصال بخدمة الاحنف وله امامه مواقف محمودة فمع هذا قتله جزاء هزيمته وكان مولعا بسفك الدم فانتقض عليه الاعيان لكثرة موبقاته وانسل الرؤساء من غرناطة طالبين رجوع الاعسر لكنهم خافوا أن تكون الوسيلة الى قتله فولوا وجوههم شطر امارة محمد بن اسماعيل نزيل صاحب قشتالة وأمده هذا بجيوشه فانهزم الاحنف ودخل غرناطة ليجمع فل قومه فوجد الاغلب منتقضين عليه فعندها وقد أيقن بظفر

ابن اسماعيل قصد قبل انقضاء أمره الانتقام من أعيان البلد الذين داخلوا خصمه وشايعوه فاستدعاهم الى الحمراء ووضع فيهم السيف. ويقول (لافاله) صاحب تاريخ اسبانية وأحد أعضاء جمعية الآثار في مدريد إنه ربما كانت هذه الحادثة سببا لوجود هذه الرواية — المعني بها حادثة قتل بني سراج في الحمراء — اذ لا بد لهذه الروايات المتناقلة من عصر الى عصر أن تكون ذات أصل ولو كان ضعيفا ثم فر الاحنف من الحمراء قبل وصول ابن اسماعيل ولحق ببعض الجبال مع بعض خواصه، من شركاء رأيه القائل وعمله الموبق ودخل خصمه قصور الحمراء سنة ٨٥٩

ولما كان استيلاء ابن اسماعيل قد تم بمظاهرة ملك قشتالة لم يأل جهداً في التنوع بشروط اذلاله وادخاله في طاعته حتى عاد كأنه قائد من قواده. وفي تلك الاثناء وصل الى الاندلس خبر الفتح الاكبر الذى تضاءلت من دونه الفتوح، وتفتحت أبواب السماء فأطلت منها الملائكة والروح، ألا وهو استيلاء السلطان محمد الفاتح قدس الله روحه على القسطنطينية العظمى، فاشتد بهذه البشرى ازر الاسلام في مشارق الارض ومغاربها ونال سكان الاطراف منها أضعاف ما نال سكان الاوساط ومنهم أهل الاندلس المنقطعين وراء البحر، ووجودهم من العدو بين الناب والظفر، فقد استبشرت بذلك نفوسهم، تجددت عزائمهم، وافق هذا الفتح العظيم بالشرق وفاة الطاغية جان الثاني عندهم، فلما قام بعده ابنه هنريك نزع محمد ابن اسماعيل الى طلب الاستقلال فتجدد القتال وشنت الغارات، زحف صاحب قشتالة بجيوش جرارة فطلب المسلمون الصلح فأجابهم اليه على شرط جزية يؤدونها واطلاق ثمانمائة أسير اسبانيولي وانعقدت الهدنة

وفي خلال هذه الهدنة عادت العلائق التجارية بين غرناطة وجيرتها الى ما كانت عليه وكانت هذه البلدة ملجأ لكثير من فرسان الاسبانيول الذين قضت عليهم الفتن الداخلية بالفرار من أوطانهم حتى يروي أن من هؤلاء رئيساً يقال له دياغو دخل في ذمة ملك غرناطة وخدمه وعظمت ثقة هذا فيه حتى رمى أهل مالقة به في عسكر عند ما انتقضوا مرة عليه على أنه قيل إن من جملة غرائب تلك الهدنة أن تضع الحرب أوزارها عن جميع البلاد إلا ثغر جيان بين الفريقين فانه يبقى ميدانا للغارات، ولم تنشب الموادعة ان بطلت من الجهتين وأغار مولاي أبو الحسن على بكر أولاد السلطان بحسب أقوال مؤرخي الافرنجة على أطراف شاطبة فانتقم الاسبانيول بالاستيلاء على جبل الفتح، وأعجب الدون هنريك جداً بهذا الفتح، حتى أضاف الى ألقاب ملكه ألقب ملك جبل طارق، وجمع جيوشه ونهد الى ناحية غرناطة فاستكفي المسلمون شره بالهدايا وضروب التحف ورجع عنهم بعقد الصلح، واستمرت دعة البلاد الى أن ودع محمد بن اسماعيل هذه الدنيا الفانية في ١٠ شعبان سنة ٨٦٩ وذلك في مدينة المرية وخلفه مولاي علي أبو الحسن كما سيأتي

الفصل الرابع

في دول اسبانية المعاصرة لدولة بنى الاحمر

قد تكلمنا عن غرناطة لكونها آخر مدن الاسلام بالاندلس وعن دولة بني نصر فيها لكونها ذماء المسلمين وآخر أنفاس حياتهم بتلك الديار ونتكلم الآن مجملا عن تاريخ الدول الاسبانية المعاصرة لدولة بني الاحمر لما بين التاريخين من المداخلات والمناسبات بحيث يستعين القارىء بفهم هذا على فهم ذاك وتكون الفائدة أعم وأوفى

فاسبانية كانت لعهد القرن الثالث عشر للمسيح منقسمة الى خمس ممالك نافار وأراغون وقشتالة وغرناطة والبرتغال أما في الشمال فمملكة نافار الصغيرة على منحدري جبال البيرانه وكان ملوكها من آل أزيز فلما انقرضت سلالتهم عام ١٢٣٤م ورثهم بسبب زواج بيت كونت شمبانيه وذلك أن اخت الدون شانجه آخر ملوكهم كانت مزوجة بالكونت تيبولت دوشمبانيه فلما توفى الدون بلا عقب كان الحق في ارثه لابن اخته من كونت شمبانيه

إلا أنه لما كان ابن اخته هذا قد لج في طلب الملك قبل وفاة خاله وأثار عليه لاجل تنزيله مما احفظه واحقده عهد بملكه بعد الوفاة لصاحب أراغون فلما توفى كاد يقع الخلاف بين جقوم وبين تيبولت لكن أهل نافار طلبوا من جقوم النزول لتيبولت عن الملك حبا بالسلام فآل الامر اليه وبعد أن استوى على كرسي الامارة بمدة انتظم في سلك الصليبية

قصره بابنتها وأرسل الملك من خواصه (أوستاش دوبومارشه) واليا على بلاد (نافار) فلم تمض مدة حتى قامت الفئة القشتالية هناك على العامل الفرنسي فحصروه في القلعة من (بمبلونة) حاضرة الملك ووصل الصريخ الى الملك فيليب فسرح جيشا الى بمبلونة اقتص من رؤساء الثورة بعد أن أفرج عن العامل . هذا ولما بلغت الملكة (جويانة) النافارية سن البلوغ تزوجت (بفيليب لوبل) ملك فرنسا وولد لجويانة (لويس هوتن) ملك فرنسا وعند وفاة هذا الملك بويعت ابنته ملكة على نافار كما بويع أخوه فيليب الطويل ملكا على فرنسا وتزوجت ابنته هذه وكان اسمها جويانة أيضا بفيليب كونت افرو من آل كابت وتناسلوا في ملك نافار وكان منهم شارل الرديء الذي احترق في فراشه من شمعة أوقدت بجانبه واتصل لهيبها بالفراش وابنه شارل النبيل الذي مات عن ابنة واحدة اتصل الملك منها الى آل اراغون فوقع النزاع عليه بين أب وابنه وذلك نحو السنة ١٤٥١

ثم مملكة أراغون حذاء جبال البيرانة اعتمدت في أوائل أمرها على لصوصيّة البحر واشتهر بين أمرائها (جقوم) هو الذي استولى على جزائر الباليار: ميورقة ومينورقة ويابسة، وقيل ان السبب في الاستيلاء عليها تعرض اهل ميورقة لمراكب الا بانيول ويفهم من قول المخزومي في تاريخ ميورقة ان سبب اخذها من المسلمين ان أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى احتاج الى الخشب فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية الى يابسة باخذه فعلم بذلك والي طرطوشة فجهز اليها من أخذها فترصد محمد بعض مراكبهم وأخذها فأجمع الروم على قتاله في عشرين ألفا وجهزوا ستة عشر ألفا في البحر وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب

شرطته ان يأتيه باربعة من كبراء المصر فضرب أعناقهم فاجتمعت الرعية الى أبي حفص بن سيري واخبروه بما نزل، وعزوه فيمن قتل، وقالوا له هذا امرٌ لا يطاق. وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته باحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم واذا بفارس على هيئة النذير دخل الى الوالي وأخبره بان الروم قد أقبلت وانه عدفوق الاربعين من القلوع ومافرغ من اعلامه حتى ورد آخر وقال إن اسطول العدو قد تظاهر وانه عدّ سبعين شراعا فصح الامر عند الوالي وأطلقهم واستنفرهم ثم ورد الخبر بان العدو قرب من البلد فانهم عدوا مائة وخمسين قلعا فاخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول. وفي الثامن عشر من شوال وقع المصاف وانهزم المسلمون وارتحل النصارى الى المدينة ونزلوا منها على الحربية الحزنيّة من جهة باب الكحل ولما رأى ابن سيري ان العدو قد استولى على البلد خرج الى البادية ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديداً ولما كان يوم الاحد أُخذ البلد وقتل فيه أربعة وعشرون ألفا وأُخذ الوالي وعذّب وعاش خمسة واربعين يوماً تحت العذاب ومات وأما ابن سيري فتحصن بالجبال وجمع حوله ستة عشر الفا ومازال يقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة وجد من آل جبلة ابن الايهم الغساني واما الحصون فأُخذت في آخر رجب من تلك السنة وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الاسلام انتهى ماذكره ابن عميرة المخزومي ملخصا

وبعد استيلاء القوم على ميورقه ثار بمينورقه الجواد العادل العالم

الذي أُلفت باسمه التآليف الشهيرة ابو عثمان سعيد بن حكم القرشي ثم تصالح مع النصارى على ضريبة معلومة وضبط الجزيرة احسن ضبط وبقيت مينورقة مدة في يد المغاربة بعد أختها ميورقة

وفي مدة جقوم هذا أُخذت بلنسية من المسلمين وقد سبق ذكرها وبعد ذلك بمدة اجتمع مسلمو مملكة اراغون وثاروا واتخنوا في عدوهم الا ان جقوم طردهم أخيراً فانحاز اكثرهم الى مملكة ابن الاحمر وأجاز بعضهم الى افريقية وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا والتهتك في المنكر . بينما كان مطران جيرونه يوبخه على استهتاره مرة استاء منه غضباً وأمر بقطع لسانه واغتصب مرة امرأة احد رعيته وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦ وخلفه ابون بطره في مدته انضمت مملكة صقلية الى مملكة أراغون وطرد بطره منها شارل دانجو أخا مارلويس ملك فرنسا بالرغم من ارادة البابا وتعهدوا استعادتها فانهزموا فأصدر البابا حرماً على حرم على بطره وأخيراً قام البابا مملكته شارل دوفالوا ابن فيليب الجريء ملك فرنسا فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون وكان له من جقوم اخي بطره نقمة عضد لإحنة كانت مستحكمة بين الاخوين فانهزم جند بطره واستولى الفرنسيس على جيرونه الا ان العلة تفشت فيهم من رائحة جثث القتلى فهلك منهم خلق كثير وأصيب فيليب الملك نفسه وحمل ومات في الطريق بعد انصراف الفرنسيس استعاد بطره جيرونه وحول نظره صوب أخيه جقوم الذي ضافر عليه الغرب فارسل ولده الفونس الى ميورقة باسطول ليأخذها من يده وتوفى بطره وابنه في حصارها لم يقلع حتى دخلت في حوزته وقام بأمر اراغون بعد ابيه

ومات هذا وخلفه اخوه جقوم ملك صقلية فترك أمورها لوالدته وجاء الى اراغون مستلما زمامها وأعاد ميورقة على عمه جقوم ثم تولى صقلية اخوه فريدريك وتزوج بابنة شارل دونابل وولد له منها خمسة ذكور جقوم والفونس وجويان وبطره وراموند وخطب لابنه البكر جقوم الدونة ليونوره القشتالية وبينما كانوا يعقدون له عليها اذ عدل عن الزواج زعما أن أباه أجبره عليه وانه يريد الترهب والتبتل واسقط حقه من وراثة الملك ودخل في سلك الرهبان وقضى الناس من ذلك العجب لما كان عليه من الانغماس في اللذات والاسترسال الى الشهوات فولي العهد أخوه الفونس وصار جويان أخوهما مطرانا على طليطلة وأخذ كل من الاخوين الباقيين اقطاعا باسمه

ثم مات جقوم الثاني في برشلونة في ٢ نوفمبر سنة ١٣٢٧ وخلفه ولي عهده الفونس الرابع وتزوج هذا مرتين وولد له من احدى امرأتيه الدون بطره ولي عهده فلما مات الفونس سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين بطره وبين خالته اخت ملك قشتالة وادعت أنه يريد انتزاع أملاك اخوته أولادها فكاد الخلاف يتسع بين قشتالة وأراغون لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد السلطان أبي الحسن ابن مرين صاحب المغرب وبعد وقعة طريف وانتفاض بطره من عوارض تلك الحرب أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره جقوم قيل ان السبب في ذلك أن الدون بطره كان متوجها الى افينيون لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكبا بجانبه فلما صارا على مقربة من البلدة وقد حفت بهما حاشيتهما رأى سائس حصان الدون جقوم أن سائس حصان الدون بطره يحث مسير حصان مولاه فاطمه ليتئد ويمكنه اللحاق به فأبصر ذلك الملك واغتاظ من ابن عمه لسكوته واغضائه على حركة

سائسه فوقرت في صدره وانتهز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة وذلك انه وقع خلف بين صاحب جزر الباليار وبين ملك فرنسا من أجل مونبليه وزحفت عساكر فرنسا لاخذها فبعث جقوم الى ابن عمه بالصريخ فلم يجبه ثم نقم عليه اموراً منها إنه يحاول الاستقلال وانه ضرب السكة باسمه وأعلن خلعه من ولاية الجزر فاستغاث هذا بالبابا فارسله البابا الى برشلونة نزيلا عند بطره ومستميحا عفوه فعند ما حصل عنده ضبط عليه امرأته التي هي اخته وسرحه فلحق جقوم بميورقة وقد نادى بحرب بطره والانفصال عنه فاسترجع بطره اسطوله من الجزيرة حيث كان في رباط المسلمين ونزل به على ميورقة ففر جقوم الى فرنسا وبقي في نزاع مع ابن عمه حتى باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسا وجهز بثمنها ثلاثة آلاف ماش وثلثمائة فارس وركب بها البحر طامعاً في الاستيلاء على جزيرته ميورقة فقابله واليها بجيوش أوفر مراراً من قوته وغلبه فهلك في القتال ولم تنته مسألة بطره مع جقوم ابن عمه حتى ثارت مسألة اخرى مع أخيه جقوم بسبب انتقال الملك لان بطره كان يريد العهد لابنته لانه لم يولد له ذكور ولان أخاه كان يطالب بهذا الحق فانشقت المملكة بهذا السبب الى قسمين وانتشبت الحرب بينهما وقام جمهور من الرؤساء على الملك وفي اثنائها توفى أخوه فاتهم بكونه سمه فازدادت الثورة وزحف الملك الى الرعية الثائرة فجرت عدة مواقع وسالت الدماء الغزيرة وغدر بطره بالرؤساء الذين استسلموا اليه وارهق مدن مملكته حصراً وعسراً الى أن تمت له الغلبة ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده رغم ارادة بطره ملك قشتالة انتشبت الحرب بينهما وانضم الى أراغون جميع الامراء

والرؤساء الذين كان بطره القشتالي قد آسفهم وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلت الثانية ثم الثالثة

وهلك بطره الاراغوني سنة ١٣٨٧ وملك نيفا وخمسين سنة وكان سفاكا للدماء غدر بأهله واخوته وأهرق سيولا من الدم حتى لقب بالخنجري وتزوج باربع نساء الاولى ابنة ملك نافار دونه ماريه ماتت سنة ١٣٤٦ والثانية دونة ليونيورة ابنة ملك البرتغال وماتت هذه سنة ١٣٤٨ بالطاعون الذي عم جنوبي اوربا وهو الذي يشير اليه ابن خلدون ويسمونه بالطاعون الجارف خرب كثيراً من ديار الشرق والغرب ثم اقترن الدون بطره بليونوره اخت ملك صقلية وماتت سنة ١٣٧٤ وقد ولدت منه ثلاثة ذكور وابنة واحدة فاقترن بامرأته الرابعة سيبلا فورسيا أرملة شهيرة بالجمال وكان أوانئذ قد بلغ الحادية والستين فملكت قلبه واعطاها قياده واقطعها من املاك التاج الملكي فاعترض ولي عهده جويان من امرأته الثالثة ووقع النزاع وانتهى بتحكيم أحد القضاة

وفي أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا اوربان السادس والبابا كليمان السابع وأخذ كل منهما يحرم الآخر او انقسمت ممالك اوربا في شأنهما الى شطرين فان فرنسا وقشتالة ونافار ونابولي قامت بدعوة كليمان وانكلتره والبرتغال وأراغون قامت بدعوة اوربان إلا أن أراغون مالت فيما بعد الى كليمان

وبعد وفاة بطره قام ابنه جويان الاول وفي الحال تقبض على امرأة أبيه سيبيليا وعلى أخيها وأعوانها وابتزها الاملاك التي كان أبوه وهبها اياها وسلمها الى امرأته دونه فيولانته واعتنى بتزويج ابن أخيه دون مارتين

بابنة عمه فريدريك ملك صقلية التى كان آل اليها ارث تلك الامارة بعد وفاة والدها وكان جويان مولعا بالشعر والموسيقي والصيد مهملا الجد من الامور حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ومجتمع مغنين لايسمع فيه الا ايقاع أو انشاد فقام اعيان البلاد وطلبوا منه اقصاء حظيته دونة كاروزه لانهامهم اياها بترغيبه فيما هو فيه من العبث فانقاد الى ارادتهم خوف الانتقاض

وتوفى فى الصيد بكبوة جواد تردى به في غابة وهو يطلب ذئبا فخلفه أخوه الدون مرتين اد لم يعش له غلام من صلبه فنازعه في الملك آل فواكس فغلبهم عليه واستوثق له الامر وتزوج هذا بالدونة ماريه كما تقدم فولد له منها أربعة أولاد توفى منهم ثلاثة دون البلوغ وبقي الواحد وهو الدون مارتين متوج صقلية فمات هذا في غزاة بسردانية عام ١٤٠٩ ولم يعش له ولد على كونه تزوج مرتين بل كان له أولاد من حظاياه فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور من صلب البيت المالك وتنازع حقوق الوراثة خمسة امراء: الدون فادويك ولدمارتين من احدى حظاياه وكونت اورجل ابن عم مارتين في الدرجة الخامسة أيضا ودوق كالابره ابن الدونة فيولانته بنت جويان الاول ثم فرديناند القشتالي الملقب عندهم بالرشيد كان ابن جويان الاول القشتالي والدونة ليونرة اخت الدون مارتين ملك صقلية الذي انقطعت به السلالة وبذلك فهو ابن اخته وكان أقرب المتنازعين الى بلوغ الغاية فرديناند المذكور وكونت اورجل وربما كان لهذا في مملكة أراغون الشيعة الكبرى الا انه لم يحسن طلب حقه وجمع العساكر يعيثون في البلاد مما امال عنه القلوب الى

فانتخبوه ملكا في ٣ ايلول سنة ١٤١٢ وتقبض على كونت أورجل وسجنه واستتب له الامر الا انه مات في سنة ١٤١٦ وخلفه بكر اولاده الفونس الخامس الذي افتتح نابولي ثم مات هذا (١٤٥٨) عن غير ولد فانتقل الملك الى اخيه جويان الذي كان تزوج بابنة شارل النبيل وبواسطتها ملك بلاد نافار وولد لهذا فرديناند الملقب بالكاثوليكي فملك اراغون ونافار وتزوج بايزابلا ملكة قشتالة فصارت الممالك الثلاث واحدة عادت في حالة من اجتماع الكلمة ووفرة العديد والمادة بحيث قضت على الملك الاخير الباقي كان بالاندلس للمسلمين

أما مملكة قشتالة أجل النصرانية في الاندلس فان رافع منارها فرديناند الاول الملقب بالكبير الذي انتزع كثيراً من أملاك المسلمين وكان معاصراً لابن عباد وقسم ممالكه بين أولاده الثلاثة فاعطى شانجه البحر مملكة قشتالة والفونس اوادفنش مملكة ليوق وغارسيا الصغير مملكة غاليسيا اوجيلقية الا أن الفونس تمكن في الآخر من ضم الجميع الى ملكه وصار خلفاً لابيه وهو الذي استولى على طليطلة قلب اسبانية وجعلها مقر سلطانه وفي أيامه ظهر السيد بطل الاسبانيول الذي تنسب الى ذريته عروس رواية شاتوبريان التي ذيلنا عليها هذا التاريخ المختصر ولما كان التناسب الذي هو شرط الحسن يقتضي الافادة عن آل بيفار أجداد ادماء بمثل ما أفدنا عن آل سراج أجداد ابن حامد رأينا أن نلمع الى شيء من أخبار السيد حسبما ذكر المحققون

فنقول: هو السيد لذريق دياز بن دياغو بن لاين نوناز بن لاين كالفو من كبار قضاة قشتالة تزوج السيد بشيمانة وولد دياغو لذريق الذي مات

في حياة والده وابنتين احداهما تزوجت بابن ملك نافار والاخرى بابن ملك أراغون

وشيمانة هذه هي ابنة الكونت لوزانو دوغورماز من فحول قواد الملك فرديناند وسبب اقتران السيد بها أن والدها كان قد صفع دياغو والد السيد وهو بالغ من الكبر عتيا فلم يمكنه أخذ ثاره بيده لكن ولده لذريق أخذ السيف ودعا غورماز الى البراز فقتله ولما لم يكن في قتل البراز جناح جاءت ابنته شيمانة تشكو الى الملك فرديناند كون لذريق يأتي كل يوم بازه على يده فيطلقه في بيت حمامها فيفتك بالحمام، ويذيق فراخها كؤوس الحمام، وقد بعثت تقول له في ذلك فجاوبها بالوعيد فالملك الذي يسمح بقهر اليتيم ولا يقتص ممن اعتدى عليه لا يليق أن يسمى ملكا. فتحير فرديناند في أمره لان لذرنق كان أقوى عضد له في مواقفه مع المسلمين، والاسبانيول يزعمون أن السيد أسر خمسة من ملوك الاسلام وبعد أن قادهم بخزائم الاستكانة من عليهم باطلاق سبيلهم ودعوه سيدهم فلم يجد فرديناند مخرجا من الامر الا بتزويج السيد بشيمانة

وأما نسبة السيد الى بيفار فلولادته في ذلك القصر وهي كما لا يخفى عادة الافرنج في ألقاب الشرف. ومن شهير أفعال السيد انه لما اصطلت الحرب بين قشتالة وأراغون لعهد فرديناند وقع الاتفاق بين هذا الملك وبين أخيه على تحكيم السيف وابراز قرنين بالنيابة عنهما من ابطالهما واعطاء الحق لمن منهما حقت له الغلبة فكان السيد نائباً عن ملك قشتالة وكان مارتين غوماز نائبا عن صاحب أراغون أخيه فعند للقاء فتك السيد بخصمه وبرد الحق لفرديناند دون أخيه وفي هاتيك الايام كان هنري

الثاني امبراطوراً لالمانيا فسمت نفسه الى ادخال اسبانية في طاعته لكونها من ولايات سلطنة المغرب ويقال أن البابا فيكتور الثاني مالاه على مقصده فلما أبلغ ذلك الامبراطور والبابا الى فرديناند مال الى الخضوع خوفا منهما لكن السيد عارض في الامر وجمع عسكراً وزحف به الى طلوزة قاصداً لقاء العدو فلما علم البابا به خاف العواقب وصرف امبراطور المانيا عن دعوه

ولما مات فرديناند لم يكن لشانجه ولده ساعد أشد من السيد وهو الذي نصره في وقعة غولبيجاره وكان بجانبه عند ما قتل في زامورة وفي مدة الفونس أخيه انصرف السيد الى مرابطة المغاربة ووالى عليهم الهزائم حتى لقب بالكمبيادور ومعناه بلغتهم قائد المعسكر الا أن ماحازه من الشهرة أثار عليه حسد الاقران وضغائن الانظار فانقبض بنفسه عن الحضرة وسكن البادية وبلغه اثناء ذلك أن مسلمي مرقسطة والثغر الاعلى اجتاحوا أراضي قشتالة وانحنوا في الاسبانيول فنهد اليهم وساق منهم سبعة آلاف أسير واكتسح بسائط طليطلة وكانت في يد المأمون صاحبها فشكا الى الالذفونش خرق الصلح بدون موجب فاستشار الملك خاصته واجمعوا على نفي السيد وضربوا له أمداً تسعة أيام لاجل الخروج فأطاع ولكنه لم يكن يملك من المال مايكفي لميرة الثلاثمائة فارس التي هي في صحبته فاعمل في الحيلة وارسل صندوقين مفعمين رملا الى بعض اليهود مؤكداً لهما أنهما مملوآن حليا وأخذ عليهما مبلغا من الذهب ثم وفى دينه بعد ذلك بما حازه من الغنائم اثناء غزواته في بلاد الاسلام وبقي مدة بعيداً عن الحضرة الى أن رضي عنه الملك وأعاده وأذن له في الغزو وحده فابتنى لنفسه قصراً بقرب أراغوز لم يزل معروفا باسم (صخرة

كاملة ولم يكن الامير الظالم منهم والملك الغاشم السفاح يأنف من الآداب والمعارف، فالفصاحة والموسيقى وسائر فروع العلم والادب من الامور الطبيعية عند هذه الامة، وأوتوا ملكة الانتقاد والتمييز ولطف الذوق في نقد اجزاء الكلام وتفاصيل القول مما نعرفه في زماننا لأمة الفرنسيس

وأما نصارى الشمال فعلى خلاف ذلك كله فانهم وان كانوا سلاءل أمة قديمة فحالتهم حالة أمة حادثة، اجلاف جفاة أجانب عن العلم منقطعو السبب فى العرفان، نعم كان عند بعض أمرائهم مسكة من التربية لكنهم في هذا الامر مساكين في جانب أمراء العرب، وانما كان المسيحيون هناك أنجاد حرب واحلاس نزال يحبون الهيجاء مثل أقرانهم المسلمين لكنهم أقوم منهم عليها وأصبر على تحمل مشاقها، ولم يكن عندهم ما تصوره لنا هذه الخيالات الشعرية من اخلاق الفروسية بل انما كانوا ضرابي سيف وانتهى الحديث، وقد يحملهم فقرهم على المحاربة بالاجرة، وتقديم من يزيد لهم على غيره في الخدمة، وقد رأينا كيف ان الوزير المنصور استخدم جمًّا منهم في حرب ليون وفتح صانيتاغو. وتاريخ شمالي اسبانية مملوء بشواهد ذلك من استخدام أمراء المسلمين لفرسان النصارى في الجيش

ومما يؤيد قول هذا المؤرخ الانكليزي ما ورد فى تاريخ المنصور ابن أبي عامر من انه فى انكفائه عن باب شنت ياقب بتلك الغزوة التي لم يبلغ مثلها أحد وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالكف عنها ومرّ مجتازاً حتى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على اقدارهم انتهى ، يظهر انهم لم يقتصروا فى الخدمة على ملوك الاندلس بل ربما أجازوا الى المغرب أجناداً عند

To: www.al-mostafa.com

ملوكه وابن خلدون يروي انه كان لعمر اسن بن زيان صاحب تلمسان قد أستخدم طائفة منهم مستكثراً بهم معتداً بكثرتهم مباهياً بهم في المواقف والمشاهد

ولنعد الى كلام ستانلي لانبول قال ,, لكن لم يوجد من هؤلاء من بلغ شهرة السيد بطل اسبانية، واسمه لذريق دياز البيفاري ولقب بالسيد لكون ذلك هو اللقب الذي كان يدعوه به المغاربة وهو مخفف عن سيد بالتشديد ،،(١) الى أن قال ,, وهو محارب شهير كان يتقدم الصفوف مثل جلياد أمام جيوش بني اسرائيل ولم يعرف أحد طار له من الشهرة في الغزو أكثر من ,, سيدي القمبدور ،، كما كانوا يدعونه كما أنه ليس من السهل أن يقرر الانسان الحقيقة ويمحص الواقع مما يحاط به اسم السيد من الوقائع لان مؤرخي النصارى يقولون أنه يستحيل الاحاطة بوصفه وان الاناشيد الاسبانيولية تتوج السيد بالفضائل والكمالات وتنسى أن تلك الفضائل كانت مجهولة أو غير معتبرة عند نفس السيد ومعاصريه وكتاب العرب الذين هم غالبا أحسن انصافا للحقوق تجدهم شددوا الحكم على ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بلنسية ما أذاقهم من الوبال ،، قلت وأي تشديد فانك ترى كيف جاء اسم القنبطور مردوفا باللعنة في نفح الطيب وبأي شعر نظم ابن خفاجة نثر عمران تلك البلدة

قال ستانلي لان بول : ,, ونحن في عصر انتقاد مضطرون الى طرح المفرح من أقاصيص مؤرخينا التي تليق بالاحداث والسيد لم يستثن من الانتقاد بل أن أحد المستشرقين الراسخين ألف عنه كتابا مستقلا قرر

(١) بل هو على أصله فالسيد بكسر السين وسكون الياء الذئب والتشبيه به عند العرب ذم لانه مفترس غادر حقير بخلاف التشبيه بالاسد فانه مدح

فيه أن السيد لم يكن ذلك البطل الذي قدر أنه كان بل رجلا غداراً آسفا كا نهابا فتاكا ناكث العهد ناقض الزمام . كذلك الاستاذ دوزي (مؤرخ اسبانية الجليل) ذهب الى أن قصة السيد هذه اختراعية وكتب عن السيد الحقيقي نقيض ما ورد في تلك الاقاصيص ، الى أن قال : «وغير صحيح أنه كان حامي الدين فانه قاتل في مصاف المسلمين كما قاتل في مصاف النصارى » ، وذكر أنه استولى على بلنسية بسبب التحريك والفرقة باعانة ملك سرقسطة ودخلها صلحا. وهذا طبق ما ذكر مؤرخو العرب من أن الذي أنهضه هو يوسف بن احمد بن هود صاحب سرقسطة

وأما لافاله فيقول في شأنه: أنه هو بطل الاسبانيول المقدم حبيب الشعب الذي يحلونه بجميع فضائل الابطال، يتغنون بوقائعه في الاشعار والازجال فاذا شاء المؤرخ معرفة الحقيقة من الوهم أشكل عليه الامر بما يعرض له من الاختلاط فقد يقع أن المؤرخ لاجل الخروج من حيرته ينتهي الى انكار وجود المؤرخ عنه أصلا كما أنكر ماسدو وجود السيد قمبدور ولم يبلغ الشك من غيره درجة انكار وجوده بل أنكروا عليه المأثور من الفضائل وتخيلوه زعيم أشقياء ورئيس عصابة ثم بعد أن جعلته القصص مثالا تاما للفضل والشهامة والنبل .

فأنت تجد أن السيد ككثير من الرجال الذين ولعت بذكرهم العامة منهم من جعله سيداً غطريفاً بالتشديد، ومنهم من جعله سيداً عملساً بالتخفيف ، ومات السيد سنة ١٠٩٩ وهي التي فتح الصليبية فيها بيت المقدس وبعد موته عادت بلنسية الى الاسلام وبقيت زمانا حتى استولى عليها جقوم كما ذكرنا سابقا وحملت جثة السيد محنطة على جواده المشهور

وبيده أحد سيفيه المسمى تيزونة وقدم نعشه في الجمع كما كان هو مقدما في الحروب ودفن فى كنيسة ماربطارس دوكردنه وماتت شيمانة امرأته بعده بسنتين وبقيت رايته وسيوفه فى ذلك الدير يحملها ملوك قشتالة في حروبهم تيمنا بالنصر ورواية كوربيل المسماه بالسيد أشهر من قفانبك

هذا ما آثرنا استيفاءه من خبر السيد قادما محبوبة ابن حامد السراجي فى قصة شاتوبريان الخيالية وذلك بعد تمحيص الاقوال وانتخال الآراء

ولنعد الى ذكر مملكة قشتالة فنقول : ان الاذفنش أو الفونس السادس استفحل أمره الى أن لقب بأمبراطور اسبانية لكن المرابطين هزموه مرارا وفي المرة الاخيرة انهزمت جيوشه في وقعة اقليش وقتل ولده فمات من الغم وترك الملك لابنته أوراك فتزوجت بالفونس الاول ملك أراغون ونافار وكادت تتحد الممالك الثلاث الا أن أوراك أرادت الاستقلال بملك قشتالة وأساءت معاملة زوجها ووقع الشقاق بينهما فحبسها في قصر فسطار فأفلتت وجمعت عساكرها ووقعت الحرب بين اراغون وقشتالة ودخل البابا فى الصلح فلم ينته الخلاف الا بفسخ الزواج بين الفونس وامرأته بعد أن أهرج خصامهما البلاد ولكن لم يستوثق الامر لاوراك في مملكتها بما كانت العامة نقمت عليها من مجاهرتها بالخلاعة ، وتجريرها أذيال المهر ، وقد اشتهر بين عشاقها الدون غونسالز دولاره والدون غومير دو كاندسبينا وحكي أن لها من هذا الاخير ولدا اسمه فرناندو ولقبه هرتادو ويقال أن آل هرتادو الاعيان ينتسبون اليه وكانت قد تزوجت في الاول بالكونت ريموند الجليقي فولد له منها الفونس السابع فلما بلغ أشده وشاهد أحوال أمه ثار عليها وشاطرها

الملك وانحازت اليه كثير من البلاد ولما ماتت في سنة ١١٢٦ استقل بملك قشتالة واستفحل أمره وأخذ قلعة رباح من المسلمين وهو الذي تناول منهم المرية وبقيت في حوزة الاسبانيول مدة ثم استرجعها المسلمون الى أن انطوت مع ما انطوى من بساط الاندلس وتلقب هذا الملك أيضا بأمبراطور اسبانية الا أن دولة بني عبد المؤمن ظهرت في أيامه فأصابه من الموحدين ما أصاب جده من المرابطين ومات غما وقسم مملكته بين ولديه الواحد على ليون والثاني على قشتالة فبقيت هذه القسمة ثلاثا وستين سنة فتولى شانجه البكر قشتالة وفرديناند الثاني ليون وجليقية وخلف شانجه ابنه الفونس الثامن وهو في الرابعة من عمره فكفله الدون دوغاسترو الى أن بلغ سن الرشد وخلف فرديناند ابنه الفونس التاسع وفي تلك المدة زحف الموحدون الى اسبانية وهزموا الفونس الثامن وجيوش الاسبانيول في وقعة الارك الشهيرة التي روى مؤرخو الافرنج أنه هلك فيها ثلاثون ألفا من المسيحيين أكثرهم من فرسان نظام قلعة رباح وماريعقوب وماريليان وبعد النصرة جيء بألوف من الاسارى الى يعقوب المنصور فمنّ باطلاقهم وترتب على هذه الوقعة استرجاع المسلمين كثيرا من المواقع والمدن ثم انعقدت الموادعة لعشر سنين في أثنائها تقاتل الفونس الثامن مع ابن عمه ملك ليون فأجمع رأي الاساقفة على تزويج ملك ليون بابنة ملك قشتالة تأييداً للصلح على ما بينهما من درجة القرابة الحائلة دون ذلك ومع كون ملك ليون تزوج بابنة ملك برتغال ففسخت الكنيسه الزواج لمثل تلك العلة إلا ان الزواج الثاني امضى في سبيله بالرغم من حرم الدين، وجاء عنه الملك فرديناند المعدود في القديسين، ومن

غريب الاتفاق ان البنت الثانية لالفونس الثامن ولدت قديسا ايضا هو مار لويس فيكون الاذفونش المذكور جدا لقديسين من جهة الدم

وفى ايام الفونس ايضا حصلت هزيمة العقاب على المسلمين وقتل منهم مائتا الف وفر الناصر محمد امير الموحدين شريداً وقد بالغ بعض مؤرخي العرب في عدد قتلى تلك المعركة فقالوا : انه لم ينج من الستمائة الف التي جمعها الناصر إلا الف فقط ونسبوا ذلك الى سوء تدبير الناصر وقتله الرجال العارفين بقتال الافرنج وجعل بعض محققي الافرنج السبب في هذه الهزيمة البعيدة عن التصديق التفاوت العظيم في السلاح بين الفريقين لان اكثر المسلمين كانوا كأنهم بدون سلاح والجلالقة كان معظمهم تحت المغافر والدروع وقيل في كتاب الفونس الى البابا ان عدد المسيحيين الذين جراحاتهم تنذر بالخطر على اثر الواقعة هم مائتان وخمسة وعشرون فقط وقد انتقد كثير من المدققين هذا القول ونسبوه الى ضعف ملكة النقد في ذلك العصر ووافق يوم العقاب الرابع عشر من صفر سنة ٦٠٩ وفق ١٦ تموز سنة ١٢١٢ واشترك فيه جميع ملوك الاسبانيول ، لذلك تقاسموا اسلاب المسلمين ووسع كل منهم بسطة امارته في املاكهم

ولما مات ملك ليون قام بالامر بعده ابنه فرديناند القديس ولما كانت امه ابنة ملك قشتالة وكان أخوها الدون انريك قد مات يافعا انحصر ارث التاجين في فرديناند على أنه في حياة أبيه كان قد وقع النزاع بينهما فلم يخل له الجو إلا بعد موته . وفي أيامه أخذت قرطبة من يد الاسلام وانتثر سلك الجزيرة من الوسط وتلا أخذ قرطبة ذهاب اشبيلية بعد

حصار سنتين وجلاء ثلثمائة الف من أهلها الى غرناطة وفي أيامه استفحل أمر محمد بن الاحمر وحالفه وأدى له الجزية وعصفت ريح قشتالة في اسبانية وعلت كلمة الصليب في تلك الارض لذلك جعل فرديناند في صف القديسين وعدّ من أعاظم الملوك إلا أنه مع تسميته قديسا روى عنه بعض مؤرخي الافرنجة أنه في سنة ١٢٣٦ بينما كان يحرق أحد الخوارج في الدين أخذ بؤرث النار بيده ويضع الحطب لعل ذلك من زيادة الحماسة والله أعلم

وخلف فرديناند ابنه الفونس الفلكي الملقب بالصابي وكان فريد وقته في الملوك في طلب العلم وألف في الفلك التآليف وكانت له فيها آراء نازعة الى مذاهب الاعصر التي بعده فقيل انهم بينما كانوا يتذاكرون امامه في الهيئة على المذهب الذي كان لعهده قال لهم ان كان ما تقولون حقا فيا ليت الله استشارني قبل ترتيب الافلاك فانكروها عليه وعدوها كفراً وانما كان يريد بها التهكم بآراء العلماء في ذلك العصر على أن مكانه في السياسة لم يكن في درجة مكانته في العلم فان مؤرخي الافرنج ينسبون اليه الاشتغال بالافلاك عن الاملاك ومعرفة ما في السماء مع جهل ما تحت قدميه

وفي أيامه استصرخ المسلمون يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب من بني مرين فأجاز الى الاندلس ونصر الاسلام نصراً عزيزاً وانحن في بلاد العدو بما أعاد ذكر الايام الاول، وخيل رجوع الامية والملثمين وتلك الدول، وهذا الملك الفونس هو الذي عقه ولده شانجه وطرده بمساعدة الرؤساء والاعيان فاستغاث بالمسلمين ونصروه وعززوه . عند وفاته كتب وصية حرمه فيها من ولاية عهده وعهد لالفونس حفيده ابن فرديناند بكره المتوفى وذلك لسكونه عقه ونشز عليه وأثار الرؤساء والدون فيليب أخاه

الذي ذهب مع جماعة من الامراء الى غرناطة وأقاموا عند سلطانها لكن وصية الصابي لم تغن عن الملك شيئا فانه ما غمض عينيه حتى قام شانجه بالامر ونازعه أخوه جويان قليلا لكنه اضطر الى الاذعان وفي مدة شانجه أخذت طريف من يد ابن مرين فاعمل في الجهاد وسرّب البعوث لاسترجاعها وأجاز اليه الدون جويان أخو شانجه بحسب رواية بعض مؤرخي الافرنجة وحضر حصار طريف مع المسلمين ومما يحكى فى هذا الحصار والعهدة فيه على الراوي أن جويان جاء بأحد أولاد دوغوزمان قائد طريف من قبل شانجه ووقف به على شفير الخندق ونادى القائد قائلا له أن سلم البلد أولا قذفن بالولد، فلم يجاوبه دوغوزمان ببنت شفة بل شهر سيفه ورمى به نحوه فرمى المحاصرون الولد فى الحفرة. وهذه من حكايات الاسبانيول التي يطاولون بها الجميع فى المفاخرة وعلى بقائها مثلا نادراً فى الامانة والوفاء لو صحت فهي دون رواية السموآل الذى لم يسلم الدروع ولم يخفر ذمته ولو بهلاك ولده، فان كان عند الاسبانيول شيء من هذه الاخلاق العظيمة فهي من رشح التربية العربية فى تلك البلاد كما يقرر ذلك أرباب التحقيق من مؤرخي اوربا انفسهم

ومات شانجه فى ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٩ تاركا الملك لولده فرديناند وهو شاب غض الاهاب فاستلم الزمام والملك جمرة تضطرم، والفتنة من كل ناحية تحتدم وفى أيامه ألغي نظام الفرسان الهيكليين وسببه أن هؤلاء الفرسان كانوا قد بلغوا درجة من القوة والثروة اعيت على سواهم، ووقفت بالاماني من دون مبلغهم فنفسوا عليهم امرهم، وأغروا بهم الملك وزينوا له ماشاؤا من خبرهم، حملا له على الايقاع بهم، وتذرعوا الى ذلك بمقالات لفقوها

عنهم ورموهم بالالحاد والتعطيل ، والناس فى امرهم بين مصدق ومكذب فصدرت الاوامر باستئصالهم فأحرق منهم جماعة ومات فرديناند هذا لسبع عشرة سنة من ولايته وقيل فى كيفية موته ان اميرين من جهة مارتوس اتهما ظلما بقتل جويان الونزو دو بونافيدز وهو منصرف من قصر الملك فقبض عليهما وامر بقتلهما دون ان يسمع لهما دفاع فقيل انهما لما كانا يساقان الى الموت انظرا الملك ثلاثين يوما لكي يحضر فى محكمة الديان تعالى فلم يمض ثلاثون يوما إلا ووجد فرديناند ميتا فى فراشه بدون سابق علة ولا سبب سوى الاجل

وخلف فرديناند ابنه الفونس الحادي عشر وكان طفلا فقامت بكفالته امه ثم عماه دون بطره وجويان الى ان قتلا فى مرج غرناطة لعهد اسماعيل بن الاحمر وفى مدته اجاز ابو الحسن المريني ابنه الملك برسم الجهاد فى الاندلس فقتل فى احدى الوقعات واستلحم من معه من المسلمين واستنفر ابوه السلطان ابو الحسن قبائل المغرب للاجازة وكانت المعركة البحرية بين اساطيل المسلمين والنصارى فى بحر لزاق فتكسرت اساطيل الاسبانيول وقتل امير البحر جوفر تنوريو واستلحم اكثر مقاتلته وذلك فى ٣ اغستوس سنة ١٣١٠ فالتزم الفونس ان يهادن جميع ملوك اسبانية ويؤكد معهم السلم جمعا لكلمة النصرانية وحصن مواقعه وشحنها بالمقاتلة واجاز ابن مرين بجيوشه وغنم كثيرا من اسطول الاسبانيول الى ان كانت الوقعة المشئومة على المسلمين فى حصار طريفة بالغ الافرنج فى تقدير قتلاهم ذلك اليوم فقالوا مائتا الف وليس هذا من الغرابة بمكان تقدير قتلى الاسبانيول فيه بعشرين رجلا ووقعت قلعة ابن زيد وروطة وغيرهما من

فسمّ البوكرك مهذبه فازدادت الحركة وتقوت العصبة وحاول القبض على امرأته الاولى بلانشة فنصرها الشعب وانضمت والدته الى الثوار فقبضوا عليه أخيراً وحجروه وأبعدوا عن دار من كانوا ممالئيه على مقاصده لكن لم تطل المدة ان تقسم رؤساء الثورة وفر الملك من معتقله واستنفر أشياعه وقاتل بهم أعداءه فظفر بهم واستمال جماعة منهم وأمر بضرب أعناق رؤساء طليطلة فقيل انه كان منهم رجل صائغ قد ذرّف على المائتين وكان له ولد في سن الثمانية عشرة جاشت به الحمية على أبيه فالتمس ان يقتل مكان أبيه فلم تأخذ الملك رأفة بشبابه ولا بشيخوخة أبيه فقبل البدل وقتل الولد محل الوالد

وبعد ان استراح بطره من ثوار الداخل وشردهم الى فرنسا وغيرها نشب فى حرب مع أراغون سببها ان فرنسيس بيرلوس قائد البحر عند بطره ملك أراغون كان ذاهباً ببعض اسطوله يساعد فرنسا على انكلترة في حرب بحر المانش فلما وصل الى ثغر سان لوكار دو براميدا في فم الوادي الكبير صادف مراكب جنوية فضبطها لوقوع الحرب يومئذ بين أراغون وجنوى بسبب سردانية فسأله بطره الجاي الافراج عن تلك المراكب وكان هناك يتنزه فأبى فامتعض منه وأرسل الى رسيفه في الرتبة الخصال بطره الملقب بالخنجرى يسأله تسليم فرنسيس المذكور فأجابه ان فرنسيس لم يزل غائبا وعند رجوعه تجري محاكمته بما يرضي ملك قشتالة لكن لا يمكن تسليمه فشهر بطره الحرب على جاره وسميه وانضم الى ملك أراغون جميع الناقمين من اخوة ملك قشتالة وأعيان مملكته وخف الدون انريك من فرنسا الى أراغون وكما كان في جانب بطره الاراغوني كثير

في القصر فلم يعثر إلا على رجل يقال له سانشو فقتله بيده وهو ماسك بأذيال ابنة الملك طلبا للنجاة . عاد فتناول الغداء فى القاعة التي كانت مطروحة فيها جثة اخيه وبعد أن فتك بفادريك دعا أخاه الثاني جويان ووعده بولاية بيسكاي ، استصحبه اليها لقتل متوليها أخيه الدون تلو وقطاعه اياها ففر تلوا الى فرنسا واستنجز الدون جويان وعد أخيه فبعث اليه بالحضور فقدم ومعه ثلاثة بقوا خارجا ودخل جويان ليس معه سوى خنجر صغير فجاء بعض حاشية الملك وألهوه وعلى غفلة منه سلبوه الخنجر وما حصل فى قبضتهم حتى صرعوه وانثالوا عليه بالدبابيس على أم رأسه فمات لحينه وقذف به الملك من غرفته الى الساحة وبعد ذلك تقبض على خالته الملكة ليونوره وايزابلا دو لاره امرأة الدون جويان ولما طالت الحرب بينه وبين أراغون وأبى ملك اراغون قبول مطالب بطره نسب هذا رفضه الى دسائس الدون انريك دو تراستامار والدون تلو والدون فرناند مركيز طرطوشة فانتقم منهم بقتل أمهم خالته ثم اعتقل امرأة الدون تلو الباقية كانت في البلاد ثم قتلها ثم قتل أخويه الصغيرين الدون جويان الذي كان فى التاسعة عشرة من العمر والدون بطره الذي كان فى الرابعة عشرة بدون ذنب اقترفاه وكانت الحرب لا تزال قائمة على ساق بين أراغون وقشتالة فحضر لدى الملك مرة كاهن من سان دومينيك دو لاشوسه وطلب أن يقابل الملك فمكنوه من ذلك فقال له مولاي . رأيت في النوم مار دومينيك الكبير فأمرني أن أجيء اليك وأنذرك لكي تأخذ حذرك لانك ستموت مقتولا بيد الكونت أنريك أخيك فراجعه الملك ان كان بعثه أحد ليقول له هذا القول فأصر

على أن هذه هي رسالة سان دومينيك فاستعاد حديثه بملاء من الناس فاعاده فأمر بحرقه حياولم يبال بمرسله ثم قتل أمين صندوقه صموئيل لاوي اليهودي الذي كان ملا خزائنه ذهبا واستصفى جميع أمواله ثم بعد عقد الصلح مع أراغون قتل امرأته الملكة بلانشه التي كانت قد قضت معظم حياتها باسبانية رهن الاعتقال وكانت كاسمها نقية البياض بديعة الحسن جذابة الملامح فسقيت كأس حتفها في الخامسة والعشرين من سنها ومضت طاهرة الازار حتى قيل على لسانها في أغاني العامة مامعناه: ,, أموت بدون أن يعرفني الملك وأذهب بين العذارى ،، مع هذا لم تنج هذه الملكة من أوهام الفصاصين الذين رموها بمعاشقة الدون فادريك أخي الملك ودافع عنها كثير من المؤرخين بكون زواجها وقع أثناء غياب فادريك وانها بعد ذلك لم تجتمع به فأين تمكن من رؤيتها ؟ وهذا الملك هو الذي التجأ اليه أبو سعيد بن الاحمر المنتزي على محمد الخامس فقتله قيل مع سبعة وثلاثين فارسا من بطانته وتولى قتله بيده قائلا له : ,, هذا من أجل المعاهدة المذمومة التي اضطررتني أن أعقدها مع أراغون ،، فعنفه ابن الاحمر وسبه ولكنه بادله كلما بكلام ولما قتل مع جماعته أرسل برؤوسهم الى سلطان الاندلس وتصافيا ولما أمن من جهة المسلمين خاف أن يناقشه ملك فرنسا الحساب على قتل الملكة بلانشة فأكد العهد مع صاحب انكلترة ومد يده الى ملك البرتغال وملك نافار وزحف معه نحو ملك اراغون فانهزمت جيوشه وآل الامر الى الصلح على شرطان يتزوج دون بطرد ملك قشتالة ابنة دون بطره ملك أراغون وان ولي عهد اراغون يقترن بابنة ملك قشتالة من حظيته ماريه دو باديليه وان ملك

اراغون يسلم اليه الدون انريك دوتراستامار والدون فرناند مركيز طرطوشة فقبل بذلك رصيفه وقتل فرناند وحاول اغتيال الثاني ففر واعصوصب حوله القشتاليون ، وذهب انريك الى فرنسا واستجاشها على أخيه وكان لهم ثأر في قتل بلانشه فأرسلوا ثلاثين الف مقاتل معقوداً عليهم لبرتران دو غوكلين فدخل مع أنريك مملكة قشتالة ونودي بهذا ملكا في كثير من مدائنها التي كان اهلها ينتظرون الفرصة لخلع طاعة الظالم ففر بطره الى البرتغال فأبى ملكها قبوله فعاد وافلت الى جليقية حيث لقي فرناند دو كاسترو ومطران سان جاك فوعداه بالنصرة وجهزله المطران كتيبة مؤلفة من ١٢٠٠ مقاتل لكنه جوزي جزاء سنمار وغدر به بطره واستصفى امواله وذهب بها بحراً الى بيون وكانت في يد الانكليز واستتب الامر لاخيه الدون انريك في قشتالة الا ان الانكليز اجازوا بطره واصحبوه بجحفل جرار لافتتاح مملكته وكان انريك قد اعاد اكثر الفرنسيس الذين معه الى بلادهم فضعفت قوته وانهزم امام البرنس دو غال في واقعه نافاريت فلحق بفرنسا ودخل بطره الجاسي مع البرنس دو غال الي البلاد وحاول قتل الاسارى الذين أخذوا في الوقعة فوبخه البرنس ومنعه ثم طالبه بنفقات الحرب فأخذ يطوف في البلاد ويقتل اعيانها ليأخذ اموالهم واهلك في تلك الجولة خلقا كثيراً حتى فر كثير منهم الى أخيه المنهزم وشدوا ازره ، وافلع البرنس دو غال غير راض عن أعماله ، وعاد الدون انريك الى البلاد ومعه جماعة من الفرنسيس فقامت أكثر المدن بدعوته ، وحصر طليطلة فدافعه عنها الدون فرناند الفارز أو الفارس من قواد الملك بطره وجاء هذا مع حليفه ابن

مبادئه وهاك ماخصه ابن خلدون من خبره قال :

قد تقدم ذكر تغلب الطاغية ابن الهنشة على الجزيرة سنة ثلاث واربعين وانه نازل بعدها جبل الفتح سنة احدى وخمسين ومات بالطاعون وهو محاصر له عند ما استفحل امره واشتدت شوكته وكفي الله شأنه وولي أمر الخلافة بعده ابنه بطره وعدا على سائر اخوته وفر أخوه القمط ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم ألريق بهمزة الى قطر برشلونة فأجاره وانزله خير نزل ولحق به من الزعماء المريكس ابن خالته وغيره من اقاطهم وبعث اليه بطره ملك قشتالة فى إسلام أخيه(١) فأبى من اخفار جواره وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتح فيها بطره كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي ارضه وحاصر بلنسية قاعدة شرق الاندلس مراراً وأوجف عليها بعساكره وملأ البحر اليها بأساطيله الى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيها ملكته فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف الى قرطبة وثار على بطره أهل اشبيلية وتيقن صاغية النصارى اليه ففر عن ممالكه ولحق بملك الافرنج وراء جليقية فى الجوف عنها وهو صاحب انكلترة واسمه الفلس غالس ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين فجمع قومه وخرج في صريخه الى ان استولى على ممالكه ورجع ملك الافرنج فعاد النصارى الى شأنهم مع بطره وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز بطره الى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين ونادى صريخا بابن الاحمر فانتهز الفرصة ودخل بعساكر المسلمين فاثخن فى أرض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم مثل ابذة وجيان وغيرهما من امهات أمصارهم ثم رجع الى غرناطة

---

(١) أي إسلامه اليه

على الحرب فاصطلت بين المملكتين عوانا وطالت زمانا ووفد الانكليز بالمدد على اشبونة وفي تلك المدة توفيت ليونورة امرأة الدون جويان فرأى صاحب البرتغال أن يزوجه ابنته التي كان يريد اعطاءها لابنه وهي المسماة بالدونة بياتريزة ويختم بذلك الحرب فانصاع عنه الانكليز وعقد للدون جويان على ابنته المذكورة وبعد زفافها عليه باربعة أشهر مات الدون فرديناند ونودي بكريمته ملكة على البرتغال فأسف رعية هذه المملكة أن يروا عليهم أجنبيا ولم يقبلوا الدون جويان فزحف الى عاصمتهم اشبونة وحاصرها برا وبحرا حتى هلك كثير من أهلها ومن عساكره فانكفأ عنها وطمع فيه البرتغال فقاتلوا من أطاعه منهم واجتمعوا وقرروا تحت رئاسة قائد أشبونة أن بياتريزة ليست ولدا شرعيا لفرديناند لان امها كانت متزوجة بالدون جوان لورانسو دوا كونها حينما انتقل الى الملك فرديناند فبايع البرتغال الدون جويان ابن بطره القاسط وانضموا اليه وكان متولي الدفاع عن أشبونة فزحف ملك قشتالة لقتاله فالتقيا في ١٤ آب سنة ٨٤ بعد الثلاثمائة والالف بقرب قرية الجبروته فانهزم ملك قشتالة وهلك من جيشه عشرة آلاف ومن البرتغال الف وهي وقعة مذكورة في التاريخ يقي البرتغال يحتفلون بتذكارها زمانا فتوطد بذلك أمر الدون جوان البرتغالي وجاء الدوق دولنكاستر الانكليزي فدخل قشتالة بجيش واستولى على بعض البلاد ومدّ يده إلى يد ملك البرتغال وهيأ قسمة بلاد عدوهما لكن هذا استجاش بالفرنسيس فأمدوه بالمال والرجال ولم يفز اعداؤه بطائل فانتهت الفتنة كغيرها من الفتن التي تضمنها هذا التاريخ بزواج انريك ابن ملك قشتالة بكاتالانه بنت الدوق دولنكاستر من امرأته ابنة بطره الجاسي

وفي ٩ اكطوبر سنة ٣٩٠ بعد الالف بينما كان الملك يجري فرسه فى ميدان مع بعض فرسان النصارى الجالين من افريقية وكانوا موصوفين بالفروسية اذ كبا به جواده فخر صريعا وحمل بدون حراك فخلفه ابنه الدون انريك في الثانية عشرة من العمر وكفله مجلس مؤلف من الدون فادريك ابن الدون انريك جد الملك من حظيته ومن الدون بطره حفيد فادريك رئيس نظام مار يعقوب الذي قتله أخوه بطره ومن أساقفة طليطلة وسان جاك وغيرهم من القوادفانتشرت السلطة وتمخضت الحال بالفتنة وصارت الناس فوضى وفى هيعة ذلك هجمت العامة فى قرطبة على اليهود فقتلوا منهم خلقا وانتهبوا اموالهم وفى مدته قام محمد ثاني أولاد يوسف بن الاحمر على أبيه ورماه بالضعف عن الجهاد وأثار عليه العامة فالتزم يوسف أن يخرج بعساكره ويجتاح بلاد النصارى لينفي تهمة ابنه الذي اتخذها حجة للخروج إلا أنه لما كان ميالا بطبعه الى السلم لم يلبث أن هادنهم وقفل

وفي تلك المدة ظهر رجل عند الاسبانيول يدعى سيو معروف بالنسك والزهادة وقبول الدعاء وصار لعامتهم فيه اعتقاد كبير فانبأ رئيس فرسان القنطرة بأنه يفتح غرناطة كما فتح السيد بلنسية فصدقه وأرسل اثنين من اعوانه الى سلطان غرناطة برسالة تضمنت قذفا وطعنا فى دينه ، وتهديداً وانذاراً من بطشه ، وهو يدعوه إلى النزال ، ويعده ان احجم من الانذال ، ويقاتله بفئة قليلة له أن يجمع بازائها اضعافها ، فلم يكترث صاحب الاندلس بكلامه إلا كما يكترث بهذيان المسوسين ، وطرد الرسل من حضرته مذمومين مدحورين ، فلما بلغ ذلك مارتين يانس

استاذ القنطرة جهز خمسة آلاف مقاتل وسار بهم نحو غرناطة ، قيل أن الدون انريك نهاره عن المسير لما فيه من النكث بالمعاهدات فلم ينته قائلا انها مسألة دينية لا سياسية يلزم فيها الخضوع للملك، ولما مر بجيشه بقرطبة حاول بعضهم أن يمنعه من جواز الجسر فثارت العامة واعترضت على تلك الممانعة فأذن له وفي ٢٦ نيسان سنة ٣٩٤ بعد الالف وصل الى ثغور غرناطة وحاصر برجا اسمه برج إيجة وبعث الى الحامية يعرض عليهم التسليم والنصرانية وإلا فالسيف فهزؤا به وجاوبوه بالنشاب والحجارة فجرح الاستاذ وقتل معه ثلاثة من أبطاله فدعا الناسك سيو وقال له أكدت لنا انه لا يهلك منا أحد وهو ذا ثلاثة قد سقطوا صرعى فقال له الناسك نعم قلت ولا أزال أقول لكن انما أردت بذلك الحرب في السهل لا الحصار امام الحصون فأخذ يجمع اكداسا من الحطب بقصد احراق البرج ، اذا بعساكر المسلمين قد اقبلت فذعر أصحاب يانس من كثرتها وصاروا ينسلون هاربين فوضع رايته والصليب في الوسط وأحاط بهما في نخبة رجاله إلا أن العدو أحاط بالجميع فلم ينج من الخمسة الآف سوى الف وخمسمائة وأما معلم القنطرة فسقط مع جميع الرجال الذين انتخبهم ليكونوا في موطنه وانتشر خبر هذه الهزيمة في اسبانية فخاف النصاري أن يستأسد المسلمون ويوقعوا بهم لكن السلطان يوسف حصر القتال في مكانه مع هذا الرجل المتحمس ولم ينكث بعهده معهم إلا انه لما مات وخلفه ولده محمد استؤنفت الحرب وأخذ كل من الفريقين ينحي باللائمة على الآخر في اخفار الذمة

وعام أربعة بعد الاربعمائة والالف خرج محمد بن يوسف غازيا في جيش كثيف فاكتسح البسائط وعاث في بلاد الاسبانيول ، وفي السنة التالية

غزا جيان وأذاقها مر القتال وقفل بالغنائم فأخذ الدون أنريك يحصن ثغوره دفعاً لعادية المغاربة

وسنة ١٤٠٦ قضى نحبه تاركا من الولد طفلا وابنتين فأوصى بتربية أولاده أخاه الدون فرناند الملقب بالرشيد وامرأته الملكة كاترينة وكان من فواتح أعمالها التجهيز لحرب غرناطة فشنت الغارات وعطلت الثغور ومات أثناءها محمد بن يوسف وخلفه أخوه البكر يوسف فتجدد القتال في مدته وتزاحف الفريقان فى سنة عشر بعد الاربعمائة والالف وحاصر الاسبانيول النقيرة وأخذوها واستفحل بذلك شأن فرناند

وفى هاتيك الآونة مات صاحب اراغون عن غير ولد شرعي كما قدمنا فى أخبار أراغون فأجمع رأي نواب تلك الامة على انتخاب فرناند الرشيد ملكا عليهم لمكانه من القرابة وما عرف من ذمته وأمانته وعفته عن اغتصاب ملك ابن أخيه الذي استودعه طفلا رضيعاً فتوج فرناند ملكا على أراغون وبقي كافلا لابن أخيه فى قشتالة وبينما كان سائراً لغزو المسلمين سنة ١٤١٦ وافاه أجله فاستقل بكفالة ملك قشتالة أمه كاترينة بنت دوق لنكاستر الانكليزي وكانت ممدوحة السيرة إلا أنها كانت مغرمة بالخمرة ونقم عليها الاسبانيول عدم كراهيتها الشديدة للاسلام فماتت حتف أنفها فى غرة حزيران سنة ١٨ فاستلم ابنها ملك جويان أزمة الملك وهو فى نحو الثالثة عشرة من العمر فتنازع الرئاسة الامراء والقواد وانتشبت الفتن وتوالت المحن الى أن تمكن من رأب الصدع

وفي تلك الايام حدثت في غرناطة حوادث جمة من وفاة يوسف ابن الاحمر وقيام ولده محمد الاعسر مقامه وخلع هذا وقيام محمد الصغير

وخلعه ورجوع الاعسر وانتزاء يوسف ابن عمه عليه وجلوسه على تخت الامارة وموته ورجوع الاعسر ثالثة مما استوفيناه فى أخبار غرناطة وامتدت لجويان في قضايا المسلمين بعضهم مع بعض يد طولى واستفاد من انقسامهم فهزمهم وأثخن في بلادهم .ومما سود صحيفته نكبته لامير الجيوش الدون الفارو دو لونه الذي حضنه ورباه ونصره على أعدائه وأخلص فى مناصحته مدة ثلاثين سنة فجزاه شر الجزاء بسبب اختياره ابنة ملك البرتغال لزواجه بعد وفاة زوجته الدونة مارية حال كون جويان يهوى رادغوند ابنة شارل السابع ملك فرنسا والصحيح أن الدون الفارو كان في دولة عشناة لعهد جويان أشبه بيحيى بن خالد البرمكي في دولة الرشيد لا يقطع أمر بدونه ولا تمضي قضية إلا على مقتضى ارادته حتى انصرفت اليه قلوب الناس من دون الملك وازدحمت في بابه الاقدام وثقل على جويان ان تتما هذا الامر أكثر مما احتمله إلا أنه لم يعمر زمانا بعد وفاة الفارو وقضى لسبيله في ٢١ تموز سنة ١٤٥٤ وكان ملكه مشوبا بالفتن ورأيه نسيجا للعجز إلا أنه كان ممن يحب العلم خصوصاً التاريخ والادب وخلف ابنه الدون أنريك الرابع فأول ما فكر فيه عند استوائه على الكرسي أن يتسلل لدى يورثه الملك فاقترن بالدونة جويانة البرتغالية لكن لم يلبث أن اتخذ من دونها الحظايا فاختار كاتالينه دو صندوفال مدة ثم تركها ولما علم أنها علقت بفارس غيره أمر بضرب عنقه ثم بلغه ان دير راهبات مار بطرس دولاس دوينياس محتاج الى الاصلاح فعين معشوقته هذه رئيسة الراهبات واتخذ الدونة عيومار دو كاسترو عشيقة فحكمها في ارادته وانقطع اليها دون العالمين فثار عليها حسد الملكة

الفونس في ٥ تموز من أشهر عام ٦٨ بعد الاربعمائة والالف فلما لم يجد الخوارج من يقدمونه عليهم جاؤا مبايعين الدونة ايزابلا أخت الملك اريك فأبت مزاحمة أخيها وذكرتهم بما عليهم من فروض الطاعة لمليكهم الا أنها طالبت بحق الوراثة فلما عرض ذلك على الملك عده مغنما بشرط دخول القوم في الطاعة وسكن الثوار على وثيقة استخلاف الدونة ايزابلا والعفو العام عنهم ورضي الملك بذلك واعترضت الملكة داعية لابنتها التي تقدم خبرها فلم يسمع لها وحل وكيل البابا الامراء الذين أقسموا يمين الامانة لتلك البنت من عقدة اليمين

وكانت ايزابلا جامعة بين جمال المنظر وجودة الادراك وأحسن منهما انها وارثة ملك قشتالة فاخذ جميع ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها الا ان اختيارها وقع على فرديناند ملك أراغون ومضت اليه رغما عن ارادة الكثيرين من أعيان المملكة فالتقيا في وادي الوليد وتم عقد النكاح بينهما في سنة ٦٩

فأحفظ ذلك المركيز دوفيلنه مستشار الملك فقام يسعى في ايجاد خطيب من الملوك لابنة الملك أملا بمنازعة ايزابلا الوراثة فمالوا أولا إلى ملك البرتغال ثم أبرزوا الدوق دو غويان واحتفلوا بالخطبة لكن سفراء الدوق اشترطوا على الملكة ان تحلف على رؤس الاشهاد بان هذه الفتاة هي ابنة الملك اريك وعليه أيضا ان يحلف بانه أبوها ففعلا ومع ذلك بقي الخطيب مشتبها حتى انه لم يهجم على النكاح وأخطبوها لامير آخر اسمه الدون اريك ثم لسوء ملكته كره الملك تزويجها منه فبقيت بدون عرس الى مابعد مهلك الدون اريك الذي وقع في ١٢ كانون الاول سنة ٧٤

ملك البرتغال مستصرخا لويس الحادي عشر صاحب فرنسا فلم يصرخه وخذله أحزاب خطيبته وراجع البابا نفسه في الرخصة التي أعطاها في شأن زواجه بابنة أخته وقال انها كانت على غير ترو فنسخها بمنع لاحق ورأت تلك المسكينة أن زواجها من أحد أصبح عسيراً وان نسبها الى الملك انريك أصبح مسألة خلافية والقائمون بنصرتها قليلون فتبتلت راهبة في دير سانت كليردو قويمبرة وكانت تلقب بالبلتراينجه

وكان يكثر في ممالك اسبانية لذلك العهد اللصوص وقطاع السوابل وقلما تخلو كورة من عيثهم وفسادهم وربما كان لبعض أمراء البلاد يد في امدادهم فوجه فرديناند وايزابلا عزمهما لاستئصال اللصوص ونظما عسكراً خاصا لتأثرهم وقطع دابرهم وسمياه هرماندا د وخصصا له مالا معينا وعقدا عليه للدون الفونس أخي فرديناند من حظية أبيه جرى في أثر اللصوص ونكل بهم في كل سهل وجبل حتى لم يبق من هذه الدعارة الا القليل

وفي هاتيك المدة هلك الدون جويان الثاني ملك أراغون وتولى مكانه ابنه فرديناند الكاثوليكي فضم أراغون وبلنسية وكاتالونة وصقلية وميورقة الى قشتالة فبينما كانت ممالك النصرانية العظيمة تتحد في تلك الاقطار كانت مملكة الاسلام الوحيدة فيها تزداد فتقا على فتق ليقضي الله أمراً كان مفعولا

الفصل الخامس

في ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطن الامم المتناظرة، ومواقف الاقران من حماة الاقوام المتبارزة، وكماة الشعوب المتحاجزة، ومقامات صدق المجاهدين، ومظان النخوة الجائشة بالرؤس للذب عن العرض والدين، ومنذ ظهرت دولة الاسلام بما شرع فيها من الجهاد لم تبرح مرابطة الثغور ومحافظة الدروب وبعوث الصوائف من اركان الملة وقواعد الدولة وأعمدة سرادق الخلافة، يتنافس في الوفاء بها والقيام عليها الاطول يداً، والابعد همّاً، والاشد عزمة، والارخى في الجد غاية، من خلائف الاسلام وسلاطينه وأمراء التوحيد وأساطينه ممن رفعوا في تعزيز الملة واجابة داعي الجنة شأن الجهاد، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد، فان كان للاسلام لواء خافق فوق رؤس بنيه فهو بقية ما عقد بأيدي الغزاة والمجاهدين، وان كان تحت أقدامهم مواقع للامتناع فهي نتيجة مواقع السيوف من رقاب المناهدين. ولما كانت الجزيرة الاندلسية، بموقعها من الاتصال ببر العدوة الاوروبية، والموازاة لبر العدوة المغربية، غير منفصلة عنه الا ببحر الزقاق الذي يتراءى الساحل من ورائه تعد ثغر الثغور بين البرين الكبيرين، وموطن الرباط ومعترك الثقاف من العنصرين العظيمين، استمر الجهاد فيها ثمانمائة سنة ونيفا بين حماة الحنيفية والنصرانية منازعة الارض بالشبر، فاذ كان الاسلام هناك في عنجهيته والعرب تترامى الى الاندلس للاعتمار من جميع الاقطار، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج وأجفلت هذه بين أيديهم وانهزمت من أوجههم وانتظمت دولة بني

أمية فى ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نضارة وأكمل عزاً وأبعد فى العدو مغاراً مضت على الاسلام فى الاندلس ثلاثة قرون كفت فيها نفسها مؤونة الجهاد، وقامت وحدها في وجه العدو الذي كان قد انضم بعد التخاذل واستمساك بعد الاسترسال، الى ان انقرض حبل الخلافة المروانية، وتشعبت الكلمة وصار الامر الى ملوك الطوائف، فاستأسد الفرنج واقتحموا ثغور المسلمين وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي فاستصرخ هؤلاء اخوانهم من وراء البحر بحسب الانقطاع فى تلك الجزيرة فوافاهم مدد المرابطين من بني لمتونة واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب فرمى اليه بأفلاذ أكباده من زناتة وصنهاجة وغيرهما وأجاز الى الاندلس بجحافله فرد عادية النصارى واسترجع كثيرا من القواعد، ولم يلبث ان تأذن الله بانقراض أمد تلك الدولة وقيام دولة الموحدين بني عبد المؤمن فاقتدوا بسلفهم فى الجهاد وأجازوا الى الاندلس على ظمإ من اهلها لنجدتهم، فصدموا تقدم العدو وفلوا غربه، ولم يسعد الاسلام الحظ بطول انتظامهم، وامتداد التئامهم، فخامر دولتهم الضعف واستولى عليها الانقسام، وظهر في عقبها الفشل، وجاءت وقعة العقاب لعهد الناصر من امرائهم الطامة الكبرى على الاسلام فلم تقم له بعدها قائمة تحمد فيما وراء البحر، وانجلى أهله أمام العدو المتقدم الى سيف البحر، وحشروا في مملكة ابن نصر الذي ضم شملهم فى غرناطة وجوارها، ورأى المسلمون أن الامر كاد يفلت من ايديهم وأن منزلهم هناك اصبح قلعة، وأن زيالهم لتلك الديار أضحى قريب الاجل، كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم كقول أبي البقاء الرندي

قواعد كنّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق ارکان

وكقول غيره

حثوا رواحكم يا أهل اندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير من جملة نصيحته لاولاده

« ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القاق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للذلة والاحتقار، وساعيا لنفسه أن تغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار، ومعوقا عن الانتقال امام النوب الثقال »

ولما ضعفت حامية الاندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن وضاقت مسالك المسلمين فى الجزيرة وتسامع بذلك أهل المغرب نفروا للجهاد وسابق الى ذلك الامير أبو زكريا بن أبي حفص صاحب افريقية فأمدهم بالمال والرجال واعطوه بيعتهم ولما قامت دولة بني مرين واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق واستبد بسلطنة المغرب وكان عظيم الاستعداد فى نفسه لاحراز تلك المثوبة وبلوغ هاتيك الرتبة وأهمه شأن ابن أخيه ادريس بن عبد الحق لما وقع بينهما من المنافسة واستأذنه عامر بن ادريس فى الجهاد اغتنم هذه الفرصة وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناتة وأجاز معه رحو ابن عمه ابن عبد الله بن عبد الحق فكان لهم فى الاندلس مقام كريم فى الجهاد ثم صارت الاجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب المنافسين فى الملك والمزاحمين فى الدولة اغتناما للاجر والذكر وتوسلا الى قطع أسباب المنافسة بالغربة والانقطاع وهؤلاء مثل ابناء عم الملوك من بني مرين الملقبين

بالاعياص ومثل عبد الملك يغمراسن بن زيان وعامر بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد بن عبد القوي فامتلأت الاندلس بأقيال زناتة واعياصهم وكان ممن أجاز معهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبو بن أبي بكر ابن حمامة ومنهم سليمان وابراهيم اللذان كرم مقامهما في الرباط، ثم أجاز موسى بن رحو بن عبد الله مع أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق فولاه السلطان ابن الاحمر رئاسة الغزاة والمجاهدين، ثم انصرف الى المغرب فولى مكانه أخاه عبد الحق ثم انصرف فولى مكانه ابراهيم بن عيسى بن يحيى ابن وسناف ثم رجعا فرجعت امارة الغزاة الى موسى وبقي فيها الى أن هلك فوليها أخوه عبد الحق الى أن هلك سنة ٦٧٩ فوليها ابنه حمو ابن عبد الحق بن رحو . وفي تلك المدة خرج عبد الحق بن عثمان من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الامراء على بني مرين علي السلطان أبي الربيع المريني وأجاز الى الاندلس لعهد سلطانها أبي الجيوش بن محمد الفقيه وخاطب ملك المغرب سلطان غرناطة في اعتقاله فقبض هذا عليه ففر من السجن لاحقا بالطاغية وعند ما ثار أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ودعا لنفسه وبويع بمالقة ووقعت الحرب بينه وبين ابن عمه سلطان غرناطة واخذ فيها حمو بن عبد الحق أسيراً وسيق الى أبي الوليد أطلق سراحه اكراما لعمه أبي العباس بن رحو فرجع الى سلطانه فارتاب به وولي مشيخة الغزاة عبد الحق بن عثمان فاستدعاه من دار الحرب ثم ارتحل هذا إلى افريقية إلى أن قتل في تلمسان. ولما انتزى أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر على ابن عمه صاحب غرناطة كان شيخ زناتة بمالقة عثمان بن أبي العلاء من آل عبد الحق فانتصر به أبو

الوليد على ابن عمه ولما استتب له الامر عقد له على الغزاة من زناتة وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان فلحق بوادي آش مع السلطان أبي الجيوش وصار حمو بن عبد الحق بن رحو من جملة عثمان ابن أبي العلاء بعد ان كانت الرئاسة له وبعد صيت ابن أبي العلاء واستفحل امره وعلت رايته وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده مالم يتوقعوه ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة وبويع ابنه صبيا لنظر الوزير ابن المحروق استبد عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة فوقعت الفتنة بينه وبين الوزير ونصب الوزير له كفؤاً من ذوي قرباه يحيى بن عمر بن رحو وارتحل عثمان وبقي الى أن استبد بالامر السلطان محمد بن الاحمر ونكب ابن الحروق فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين ومات لسبع وثلاثين سنة من امارته عليهم وكان مكتوبا على قبره هكذا

«هذا قبر شيخ الحماة» وصدر الابطال والكماة، واحد الجلالة، ليث الاقدام والبسالة، علم الاعلام، حامي ذمار الاسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والافعال المشهورة، والمغازي المسطورة، امام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاصم الاعادي، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام المجاهد، الارضي البطل، الباسل الامضى، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل، الهمام الكبير، الاصيل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق. كان عمره ثمانيا وثمانين سنة، انفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة» الى آخر ما هنالك

وأما ادريس ففر بعد رجوع المخلوع مع الرئيس أبي سعيد الى الطاغية باشبيلية فلما غدر الطاغية بأبي سعيد حسبما تقدم الخبر أودع ادريس السجن فلم يزل فيه حتى تحيل للخلاص بمداخلة أسير مسلم فلحق بأرض الاسلام واتبعوه فلم يدركوه وجاء الى السلطان محمد المخلوع فأكرمه واستأذنه في اللحاق بالمغرب فأسعفه وآل أمره الى الاعتقال في أيام السلطان عبد العزيز بن مرين وقتل خنقا بمحبسه وتولى امارة الغزاة بالاندلس علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبدالله بن عبدالحق وآثره ابن الاحمر أبو الحجاج لممانعته دونه ليلة لحاقه بوادى آش مفلتا من شرك النكبة بالحمراء كما سبق به النبأ فاستمر في رئاسته هذه الى أن توفي حتف أنفه سنة ٧٦٨

وقام برئاسة الغزاة بعده الامير عبد الرحمن بن علي بن يغلوسن ابن السلطان أبي علي قلده اياها سلطان الاندلس لقرب نسبه من سلطان المغرب وكون هذه الخطة مخصوصة بأعياص بن مرين كما قدمنا فأهم ذلك صاحب المغرب لما خشي من عاقبة الترشيح ، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات سرية فأفضى اليه بميله الى الافساد ما بين سلطان غرناطة وأمير زناتة فى الاندلس فاشتغل ابن الخطيب ذلك طبق خاطره حتى حمل سلطانه على اعتقال الامير عبدالرحمن وبطانته فألقاهم في السجن واسترضى بذلك سلطان المغرب فلما نزع ابن الخطيب الى هذا السلطان وتبين لابن الاحمر احتياله في شأنهم أطلق سبيلهم وجهز لهم الاسطول فأجازوا الى العدوة منازعين في الملك واستبد الامير عبدالرحمن بقسم من أعمالها وعفا رسم هذه الخطة من الاندلس وصار سلطانها

يباشر أمور الغزو بنفسه وربما عقد على الغزاة لاحد أولاده وكان محو هذه الخطة من الجزيرة لسنة ٧٨٣ وأكثر السبب استبداد امراء الغزاة أبناء عم الملوك على سلاطين بني الاحمر ومقاومتهم إياهم الجبايات للتفريق على الجند ومع هذا فقد احتملوا دالتهم مدة مديدة لمقامهم في الجهاد وأثرهم في دفع العدو وأخيراً لما ضاقوا بهم ذرعا رأوا الاحزم تحويل هذا الرسم الى أبنائهم فقلد محمد الغني بالله بن الاحمر ولده الامير يوسف مشيخة الغزاة وفي هذا التقليد يقول لسان الدين بن الخطيب : ,, هذا ظهير كريم فاتح بنشر الالوية والبنود، وقود العساكر والجنود، واجال في ميدان الوجود، جياد البأس والجود ، واضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود ، على الطائفين والعاكفين والركع السجود ، عقد للمعتمد به عقد التشريف والقدر المنيف زاكي الشهود ، وواجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود ، وبشر السيوف في الغمود ، وأنشأ ريح النصر آمنة من الخمود ، أمضى أحكامه ، وانهد العز أمامه ، وفتح عن زهر السرور والحبور أكمامه ، أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر أيد الله تعالى أمره، وخلد ذكره، لكبير ولده، وساق أمده وريحانة خلده، وياقوتة الملك على يده الامير الكبير ، الطاهر الظاهر الاعلى ؛ واسطة السلك وهلال سماء الملك، ومصباح الظلم الحلك، ومظنة العناية الالهية من مدبر الفلك ومجري الفلك، عنوان سعده، وحسام نصره وعضده، وسمي جده وسلالة فضله ومجده، السعيد المظفر الهمام الاعلى الامضى، العالم العامل الارضي، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج يوسف ألبسه الله تعالى من

رضاه عنه حللا لا تخلق جدتها ، الايام ولا تبلغ كنهها الافهام، وبلغه في خدمته المبالغ التي يسر بها الاسلام »

(الى أن يقول) رأي والله الكفيل لنجح رأيه، وشكر سعيه، وصلة حفظه ورعيه، أن يجهدلهم اختياره، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده، وابطال جلاده، وحماة أحوازه، والآت اعتزازه، من يجري مجرى نفسه النفيسة في كل مبني، ويكون له لفظ الولاية وله أيده الله تعالى المعنى، فقدمه على الجماعة لاولى كبرى الكتائب ، ومقادة الجنائب، وأجمة الابطال، ومزنة الودق الهطال، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام ، واعلام الاسلام، وسائر قبائل بني مرين، ليوث العرين، وغيرهم من أصناف القبائل، أولي الوسائل، ليحوط جماعتهم، ويستخلص لله تعالى ولابيه أيده الله تعالى طاعتهم، ويشرف بأمارته مواكبهم، ويزين بهلاله الناهض الى الابدار على فلك سعادة الاقدار كواكبهم، تقديما أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل، واحس باقتراب ما أمّل، فللخيل اختيال ومراح وللاسل السمر اهتزاز وارتياح، وللصدور انشراح، وللآمال مغدى في فضل الله تعالى ورواح، فليتول ذلك أسعده الله تعالى تولي مثله ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربي محتد لطيب طبعه ،، الخ

وقال في تقليد الامير سعد أخي الامير يوسف: ،، هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعقد منه في سبيل الله تعالى لواء منصوراً ، وأعطى المعتمد به باليمن كتابا منشوراً ، (وما كان عطاء ربك محظوراً) ، واطلع

صبح العناية المبصرة الآية يبهر سفوراً ويسطع نوراً ، وأقر عيون المسلمين وشرح صدوراً ، ووعد الاهلة أن تصير بامداد شمس الهدى اياها بدوراً ، وبشر الاسلام بالنصر المنتظر والفتح الرائق الغرر مواسط وثغوراً ؛ واتبع حماة الدين لواء الامارة السعيدة النصرية فأسعد بها آمراً وأكرم بها مأموراً ، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه امير المسلمين عبدالله محمد ابن امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الوليد بن فرج بن نصر ، اعلى الله رايته وسدد رأيه ، وشكر عن الاسلام والمسلمين سعيه ، لقرة عينه ، ومقتضي حقه من العدو ودينه ، وغصن دوحه ، وآية لوحه ، ودرة قلادته ، ودري اسلاك مجادته ، وسيف نصره ، وهلال قصره ، ولده الاسعد ، وسليل ملكه المؤيد (الى ان يقول)

« حامي الحمى تحت ظل طاعته ، وكافي الاسلام الذي يأمن من اضاعته ، المحرز مزايا الاعمار الطويلة حظ الشهر في يومه وحظ اليوم في ساعته ، الموقر المهيب المؤمل المعلم ابي النصر سعد ، عرفه الله تعالى ببركة سعد بن عبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعظم بمجده ، ووزيره في حله وعقده ، واجناه ثمرة النصر الذي كناه به ، ووصل سببه بسببه ، فما النصر إلا من عنده

(الى ان يقول) اختار لقيادة ميمنته المنصورة ، وامارة غزواته المبرورة ، اقرب الناس الى نفسه نسبا ، واوصلهم به سببا ، واحقهم بالرتب المنيفة ، والمظاهر الشريفة ذاتا وأبا ، وصرف اليه آماله واستعمل في أسنته يمينه وفي اعنته شماله ، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزة نصره ، وراي الظهور على

من خور العزائم المؤمنة بعد كورها، وتسويف مواعد النصرة بعد استشعار فورها، وان الحركة معملة الى مراكش الجهة التي في يديكم زمامها، واليكم وان تراخى الطول ترجع أحكامها، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة، ولا يعجزكم عن الصولة، ولا يطابيكم ان تركتموه، ولا يمنعكم ان طرقتموه وعركتموه، فسقط في الايدي الممدودة، واختلفت المواعد المحدودة، وخسئت الابصار المرتقبة، ورجفت المعاقل الاشبة، وساءت الظنون، وذرفت العيون، وأكذب الفضلاء الخبر، ونفوا أن يعتبر، وقالوا هذا لا يمكن حيث الدين الحنيف، والملك المنيف، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم، وحمل النصيحة أعناقهم، هذا النفترض الذي يبعد، والقائم الذي يقعد، يأباه الله تعالى والاسلام، وتأباه العلماء الاعلام، وتأباه المآذن والمنابر، وتأباه الهمم والاكابر، فبادرنا نستطلع طالع هذا النبإ الذي اذا كان باطلا فهو الظن، ولله المن، وان كان خلافه لرأي ترجح، تنفق بقرب الملك وتبجح فنحن نوفد كل من يقدم الى الله تعالى بهذا القطر في شفاعة، ويمد اليه كف ضراعة، ومن يوسم بصلاح وعبادة، ويقصد في الدين بث افادة، يتطرحون عليكم في نقض ما ابرم، ونسخ ما أحكم، فانكم تجنون به على من استنصركم عكس ما قصد، وتحلون عليه ما عقد وهب العذر يقبل في عدم الاعانة وضرورة الاستعانة والاستكانة، أي عذر يقيل الاطراح، والاغراض الصراح كأن الدين غير واحد، كأن هذا القطر الكلمة الاسلام جاحد، كأن ذمام الاسلام جامع، كأن الله غير راء ولا سامع » الخ

ومن كتاب آخر في وصف ضيق المسلمين بالاندلس قوله « وان تشوفتم الى احوال هذا القطر ومن به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين

والفضل المبين، فاعلموا إننا في هذه الايام ندافع من العدو تياراً و نكابر بحراً زخاراً ، و نتوقع الآن وقي الله تعالى خطوباً كباراً و نمد اليد الى الله تعالى انتصاراً و نلجأ اليه اضطراراً و نستمد دعاء المسلمين بكل قطر استمداداً به و استظهاراً و نستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ اخطاراً و ينشيء ريح روح الله طيبة معطاراً فان القومس الاعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع و مخالفته لا تستطيع رمى هذه الامة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يسد طريقها ولا يحصى فريقها التفت على أخي صاحب قسطالة وعزمها أن تملكه بدله وتبلغه أمله ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين ومناصبة هذا الدين واستئصال شأفة المؤمنين وهي شدة ليس لاهل هذا الوطن بها عهد ولا عرفها نجد ولا وهد وقد اقتحموا الحدود القريبة والله تعالى ولي هذه الامة الغريبه وقد جعلنا مقاليد امورنا بيد من يقوي الضعيف ويدرأ الخطب المخيف ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) إلى آخر ما قال

وله من جملة كتاب عن سلطانه الى سلطان المغرب في ذلك المقصد: « وليعلم مقامكم وهو من إصالة النظر غني عن الاعلام ولكن لابد من الاستراحة بالكلام والتنفث بنفثات الاقلام إننا إنما نجري امورنا مع هذا العدو الذي رمينا بجواره و بلينا والحمد لله بمصادمة تياره على تعداد أقطاره واتساع براريه وبحاره بأن تكون الامة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق واسواق النفاق غير ذات نفاق والجماهير تحت عهد من الله تعالى وميثاق فهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد ووقع بينهما

في قبول الطاعة رد ساءنا واقعه وعظمت لدينا موافعه وسألنا بأن يتدارك الخرق رافعه لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا وتفرغ العدو الى ضرنا» (الى آخر ماقال وانعم في المقال)

وله في مثل ذلك عن سلطانه الى أحد أولاد السلطان أبي الحسن المريني قيل الى السلطان أبي فارس عبد العزيز وهو قوله :

«ان هذا القطر الذي تعددت فيه المحاريب والمنابر والراكع والساجد والذاكر والعابد والعالم واللفيف والارملة والضعيف قد انقطع عنه أرفاد الاسلام وشحت الايدي به منذ أعوام وقوبلت ضرائره بالاعذار والمواعيد المستغرقة للاعمار وان عرضت شواغل وفتن وشواغب ولحن فقد كانت بحيث لايقطع السبب بجملته ولا يذهب المعروف بكليته

ولابد من شكوى الى ذي مروءة يؤاسيك أو يسليك أو يتوجع

ولو كانت الاشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدس والدكم جبل الفتح وهو منازل أخاه بسجلماسة ولا أمده ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش (الى أن يقول) ولا كالحسرة في الجبل باب الاندلس وركاب الجهاد حسنة بني مرين ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسلطان المقدس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي ترد على قبره مع الساعات والانفاس وفود الرحمة وهدايا الزلفة وريحان الجنة فلولا أنكم على علم من أحواله لشرحنا المجمل وشكلنا المهمل إنما هو اليوم شبح ماثد وظل باثد ولولا ان الله تعالى شغل العدو عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا اليه ولا حوم طيره إلا عليه ولكان بصدد أن يتخذه الصليب ذراً وأن يقر به عينا والعدوة فضلا عن الاندلس قد

أوسعها شراً وأرهق مايجاوره عسراً نسأل الله أن لايسود الوجوه بالفجع فيه ولا يسمع المسلمين الثكله (الى أن يقول)

فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن حيث المآذن بذكر الله تملأ الآفاق وكلمة الاسلام قد عمت الربى والوهاد إنما الاسلام غريق قد تشبث باهدابكم يناشدكم الله في بقية الرمق وقبل الرمي تراش السهام وهذا أوان الاعتناء واختيار الحماة وأعداد القوات قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع وقد وجهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مقرراً الضرورة منهيا الرغبة مذكراً بما يقرب عند الله مذكراً لذمام الاسلام جالباً على من وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور وتسنى الآمال وتستدعي الدعاء والثناء فالمؤمن كثير بأخيه ويد الله مع الجماعة والمسلمون يد على من سواهم . المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا والتعاون على البر والتقوى مشروع في الذكر الحكيم مذكور وحق الجار مشهور وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب (الى آخره)

* * *

وما زالت الاندلس تستجيش بالمغرب أو ان الضعف وملوك بني الاحمر يستصرخون بني مرين من وراء البحر إلى المائة التاسعة حيث صار السائل لا يجد مجيبا والصارخ لايسمع ملبياً وتخاذل المسلمون عن النصرة وشغلوا في المغرب بشؤونهم الخاصة وفتنهم الناجمة عن مد اليد الى اخوانهم في اسبانية بل انصرمت حبال آمالهم ببقاء ذلك القطر على الكلمة وأيقنوا أن سوف لا يبقى أحد في ذلك البر من الامة المسلمة فصارت ترد عليهم الاخبار وهم ساهون وتحدثهم الجالية والركبان بما خلفوا

وراءهم من الفجائع والفظائع وهم لاهون ، وإذا ثار بأحدهم ثائر للجهاد لم يجد علما ينضوي اليه، ولا سنداً يعول عليه، ولا جماعة ينتظم فيها. ذلك بما أصاب المغرب من افتراق الكلمة وانحطاط الدول ، وتحول الاحوال الاولى، فلما سقطت الاندلس كانت اختها العدوة ناظرة اليها وهي تنشد

ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم

وأما النصارى ففي بداية برازهم مع المسلمين فى الجزيرة الاندلسية كانوا يستنجدون إخوانهم وراء جبال البيرانه فتخف إلى صريخهم امم الفرنج والالمان والانكليز وربما نهض معهم امم اخرى من جميع أقطار النصرانية ولولا نجدات البر الكبير لاهل اسبانية لتحولت الجزيرة باسرها إلى الاسلام، وكان الفاصل بين الفريقين جبال البيرانه بدل أن يكون بحر الزقاق، كما أنه لولا شارل مارتل المعروف عند العرب بقارله لسخر المسلمون قسما من أوربا وربما كانوا وصلوا الى القسطنطينية العظمى من طريقها حسبما كان يتخيل موسى بن نصير، ولكن دول أوربا خصوصا ما جاور منها اسبانية كانت لا تضن على هذه البلاد بدم ولا مال في مدافعة المسلمين تخلصا من غاراتهم الى ما وراء الجبال وحصولهم في قلب اوربا وكان نصارى اسبانية أنفسهم أهل شدة ومراس على الحرب، وكان أمراؤهم عند القتال يجمعون من في اقطاعهم من المقاتلة وينضمون الى الملك وبقي هذا شأنهم الى أن علقت آمالهم باجلاء المسلمين عن البلاد، ووجدوا في حالة الجند من جهة المؤونة قصوراً عن ادراك المرام، فرأوا انشاء مرابطة أشبه بمرابطة الاسلام، لا شغل لها الا الصلاة والقتال وسبق الى تحقيق هذا الوطر الفونس الباتليور صاحب أراغون فأنشأ جندية سماها بنظام

المخلص وجعل لها قوانين وعلامات وقاتل بستة آلاف من رجالها في غارته على بلاد المسلمين ، ثم ظهر نظام الفرسان الهيكليين الذي انشيء سنة ١١١٩ فلم تمض بضع عشرة سنة حتى بلغ من القوة والاستفحال المبالغ التي لا تصح الا للدول ، وسنة ١١٥٦ أنشأ إثنان من أمراء الاسبانيول أحدهما اسمه سويرو والثاني غرمان نظام مار جوليان الاجاص وذلك لكونهما بنيا حصناً في مكان مخصص بمار جوليان فيه غيضة أجاص نزل لهما عنها مطران طلمنكة

وسنة ١١٥٧ بعد وفاة الامبراطور الفونس السابع حينما جمع الموحدون عساكرهم لمنازلة طليطلة خارت عزائم الفرسان الهيكليين الذين في يدهم قلعة رباح فنزلوا عنها المدعو سانشو أو شانجه الملقب بالمأسوف عليه فأعلن هذا الامير ان من أراد من أمراء البلاد الدفاع عن قلعة رباح فهي له أقطاعاً بملحقاتها فلم ينهض احد وبعثت الحمية راهبا من دير فيترو سمي فيما بعد مار ريموند وراهبا آخر اسمه دياغو فلسكيز فطافا في البلاد وبالغا في التحريض والتنفير حتى جمعا عشرين ألف مقاتل في تلك القلعة وامتلات ذخائر فأنشأ لهم ريموند نظاما وقيدهم بروابط وسمى هذه الجندية الدينية بنظام قلعة رباح وجاءها التثبيت من البابا واستمسكت بقوانين مار بنوا وكانت علامتها الفارقة رداء أبيض وقلنسوة مرسلة من الرأس على المنكبين وبعد ذلك صارت علامتها صليباً أحمر على الثياب وفي هاتيك المدة تألف نظام رهباني حربي آخر يقال له نظام مار يعقوب السيف وثبته البابا اسكندر الثالث وجعلت لاصحابه علامات فارقة في الثوب وشكل الصليب وغير ذلك وكانت مدينة القنطرة في يد فرسان قلعة رباح فأسلموها الى فرسان مار يعقوب وصارت مركزاً لهم ومن هذه الفرق الرهبانية المرابطة أيضا

الفصل السادس

في سقوط غرناطة والجلاء الاخير

وصلنا في ذكر دولة بني الاحمر الى أبي الحسن علي المتولي الملك بعد محمد بن اسماعيل والذي يفهم من بعض مؤرخي الفرنج انه هو ابنه البكر وفي النفح يقول انه هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمد الغني بالله ولا يذكر كيف أفضت اليه الامارة بل جل مايقوله هنالك ان بني الاحمر ملوك الاندلس الباقية بعد استيلاء العدو على الجل كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم الى زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الاحمري واجتمعت الكلمة عليه بعد ان كان أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد المدعو بالزغل قد بويع بمالقة بعد ان جاء به بعض القواد من عند النصاري وبقى بمالقة برهة ثم ذهب الى أخيه أبي الحسن وانقضت الفتنة اهـ

وقال مؤرخو الفرنج انه لما ثار لزغل على أخيه وسرح أخوه الجيش في أثره فر هذا الى الدون انريك ملك قشتالة فتجاوز أبو الحسن حدود بلاده وأغار على بلاد الاسبانيول لكن روى دوليون قائد الثغور قابله بأخذ مدينة مونتجيقار ثم مات الدون انريك وتولى فرديناند وايزابلا فراسلهما أبو الحسن فى المهادنة فقبلا بها على شريطة أن يعترف سلطان غرناطة بسيادة ملك قشتالة فأجاب سفراء ابن الاحمر انهم غير مفوضين بذلك فأشخص فرديناند وايزابلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخضوع من صاحب غرناطة فلما عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن أبى قبوله كل

سلطنة غرناطة في تلك الايام كانت تحتوي ثلاثين مصراً وثمانين مدينة صغيرة وعدداً لايحصى من الابراج والحصون والمساكر، وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الاندلس باربعة ملايين من النسم وقالوا إن السلطان أبا الحسن بن الاحمر داخلته الخيلاء وخامره العجب ببسطة سلطانه وكثرة جنوده ففي سنة ١٤٧٨ لما حضر الدون جان دوفيرا من فرسان فرديناند وايزابلا ومعه جماعة يتقاضى الجزية المعتادة من مولاي أبي الحسن احتفل السلطان بلقائه وظن في الاول إنه قادم لمبارزة أحد فرسان المسلمين لما كانت جارية به العادة بين الفريقين من البراز والسجال في ألعاب الفروسية أيام الموادعة فلما عرض له الامر أجابه الجواب السابق من أن الذين سبق لهم أن يؤدوا الجزية قد ماتوا والآزدار ضربنا عادت لاتضرب إلا نصالا وحرابا فلم يتمكن الملك وزوجته من جواب أبي الحسن إلا بعد ثلاث سنوات لاشتغالهما بحرب البرتغال. وكان بين ملوك الاسلام والاسبانيول عهد على أن لكل فريق أن يشن الغارة على أرض الفريق الآخر خفية بدون نشر بنود ولا قرع طبول بشرط أن لاتطول مدة غارته فوق ثلاثة أيام فعلم أبو الحسن أن قلعة الصخرة قليلة الحامية وهي قلعة أمنع من عقاب الجو مبنية على قنة جبل لها طريق واحد منحوت في الصخر فقبل عيد الميلاد بأيام انتبه أهل الصخرة ليلا على صياح « المغاربة . المغاربة» فدخلوا القلعة وقتلوا الحراس وأسروا من سلم وساقوهم الى غرناطة وجرى ماجرى

وقال المقري في شأن ملك هذا السلطان مايأتي

واستقل السلطان أبو الحسن بما بقي من ملك المسلمين بالاندلس وجاهد

أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب لميل بعضهم الى أولاد الحرة وبعضهم الى أولاد الرومية وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لامدحدوه وضربوه ولما تم أمد الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الاولاد وتشكي الناس مع ذلك باوزراء والعمال لسوء ماعاملوا به الناس من الحيف والجور فلم يصغ اليهم وكثر الخلاف واشتد الخطب وطلب الناس تأخير الوزير وتفاقم الامر انتهى

وورد في تواريخ الافرنج أن السلطان أبا الحسن كان متزوجا بامرأتين احداهما ابنة عمه واسمها عائشة الحرة والثانية ثريا اسبانيولية اسلمت كان أبوها قائد مرتوس وله من الاولى أبو عبدالله محمد ويلفظ في بلده بالتخفيف فيقال أبو عبد الله وحرفه الاسبانيول أبو عبديل ومن الثانية ولدان أحدهما سيدى يحيي الذي كان يريد أبوه أن يوليه عهده اكراما لوالدته الحظية وبهذه المناظرات انقسمت غرناطة الى قسمين ومال قسم من الرؤساء والاعيان نحو الامير أبي عبد الله واشتدت الفتنة التي مصدرها النساء وفي خلالها ارتكب السلطان أبو الحسن الخطأ في منازلة الصخرة لوقوع الفرقة في مملكته فلما بلغ خبر أخذها الملك فرديناند جزع جزعا شديداً وأعمل في النفير وجمع مقاتلة الثغور، وبث الرهابين في جميع الاقطار يستنفرون فرسان النصرانية لقتال الاسلام، فأول من لبي الدعوة الدون لذريق بونس ليون الملقب بمركيز قادس وكان له في الاندلس أراض واسعة وحصون عديدة وعنده مقاتلة كثيرة، فاجمع الغارة وبلغه أن قلعة الحامة قليلة الحراس فارسل من جماعته رجلا حاذقا مقداما دريا باقتحام الثغور خبيرا بتسلق

الجدران اسمه اورتغادو برادو فرادله في نواحي الحامة بليلة مدلهمة وطاف حول الاسوار وصعد القلعة وعين مكان وضع السلالم وعاد مخبرا مولاه بما شهد فجمع هذا اصحابه وساروا في ثلاثة آلاف فارس واربعة آلاف ماش وكانوا في النهار يكمنون وفي الليل يسرون بدون جلبة ولا ضوضاء حتى وافوا الحامة قبل انبلاج الفجر بساعتين فسار اورتغا بثلاثمائة فقاتل وثلاثين من حملة السلالم الى جانب القلعة فتسلقوها بدون عائق وقتلوا بعض الحرس وارتفعت الصيحة وملكت القلعة لكن أهل المدينة وان كانوا في الاغلب تجارا وصناعا فقد كانوا ذوي حفاظ وشدة بأس وبصائر في الحرب كسائر المغاربة فرشقوا المحاصرين بالنبال والحجارة وحملوا على القلعة فضيقوا عليها حتى خاف الاسبانيول أن يسترجعوها منهم وتشاوروا في حرقها والخروج منها فنهاهم المركيز عن ذلك وحرضهم على الثبات واستحر القتل بين الفريقين وقاتل أهل الحامة نساءا ورجالا صغارا وكبارا قتال الاسود عن أشبالها لكن العدو تغلب عليهم فقتل بعضا وأسر بعضا ونهب البلدة ودمرها تدميرا

وأسرع فارس مغربي الى الحمراء يخبر السلطان أن النصارى قد هموا تلك الليلة قلعة الحامة وحدث عراك شديد على الاسوار وانه عندما فارق المدينة كانت القلعة في يد النصارى فأرسل من غرناطة الف فارس لاجل المشارفة واستقصاء الخبر فوجدوا العدو قد تسلم القلعة والبلدة فزحف السلطان أبو الحسن بثلاثة آلاف فارس وخمسين الف راجل ولم يستأن ريثما يجهز جيشه بالمدافع والعدة وكان للمركيز صاحب هو الدون الونزو القرطبي قدم لنصرة صاحبه فلما أحس بقدوم أبي الحسن فر الى النقيرة فلم

يتعقبه السلطان . ظل قاصداً الحامة وحصرها من كل جهة وركز الاعلام حواليها لكن حيث كان جيشه مكشوفا للعدو أصبح هدفا للاسهام فقتل منه كثيرون وارتدوا على أعقابهم وادرك ابن الاحمر خطأه بالزحف بدون آلات الحصار ولكنه لم يرجع عن كيده بل أمر بحفر الخنادق حول السور وواصل القتال فقتل وجرح من المسلمين نحو الالفين

فأعمل المسلمون الحيلة في قطع المدد عن الحامة وكان لها نهر يسقيها فأداروه عنها بعد أن تقاتلوا عليه فقتل اليأس واذ لم يكن فيها عيون ولا آبار إشتد الخناق بالاسبانيول ولم يبق لهم مورد سوى قناة صغيرة وعليهم اذا وردوها أن يقاتل منهم فريق ويشرب فريق حتى يصح أن يقال ان كل نقطة ماء بنقطة دم

ثم سقطوا على بئر أغاثهم ماؤها قليلا ولكن بلغ منهم الضيق حده فأرسلوا بالصريخ الى ملوكهم فأصرخهم دوق مدينة سيدونيا من اشبيلية في خمسة آلاف فارس وخمسين الف ماش وظاهره رئيس فرسان قلمة رباح وتقدم فرديناند بجاشية غير وافرة وأرسل يقول للدوق ان ينتظر اجتماع الحشود فأجابه الدوق انه لا يمكنه الانتظار لكون الذين تحت الحصار في ضيق شديد واذ علم أبو الحسن بدنو الجيوش عزم على الهجمة الاخيرة وفي صباح يوم اجتمع نخبة من أبطال المسلمين وتسلقوا السور من ناحية برج عل ووضعوا السلالم وقتلوا الحفراء ووصلوا الى السوق وكادوا يبلغون الابواب وهم نحو سبعين رجلا فقط فأحاط بهم الاسبانيول لمحاطة السوار بالمعصم فانضموا شبه دائرة رافعين في وسطهم راية النبي صلى الله عليه وسلم وظلوا يدافعون عن حوضهم دفاع الليوث حتى لم يبق

منهم سوى رجل واحد سقط وهو معتنق الراية النبوية فأصاب أبا الحسن اليأس من هذا الفشل وأقلع عن الحامة الى غرناطة ووصلها المدد الكثيف انتهى ماذكره الافرنج في شأن الحامة وهلك ماورد في نفح الطيب بهذا الشأن

وصح عند النصارى ضعف الدولة واختلاف القلوب فبادروا الى الحامة فأخذوها غدراً آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة وغدوا للقلعة وتحصنوا بها ثم شرعوا في أخذ البلد فملأوا الطرق خيلا ورجالا وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ونهبوا الحريم والناس في غفلة أيام من غير استعداد كالسكارى فقتل من قضي الله تعالى بتمام أجله وهرب البعض وترك أولاده وحريمه واحتوى العدو على البلد بما فيه وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عند مابلغهم العلم وكان النصارى عشرة آلاف بين ماش وفارس وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه واذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا فرجع العدو الى البلد فحاصرهم المسلمون وشددوا في ذلك ثم تكاثر المسلمون خيلا ورجالا من جميع بلاد الاندلس ونازلوا الحامة وطمعوا في منع الماء عن العدو وتبين للعامة ان الجند لم ينصحوا فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير وبينما هم كذلك اذا بالنذير جاء ان النصارى اقبلوا في جمع عظيم لاغاثة من بالحامة من النصارى فأقلع جند المسلمين من الحامة وقصدوا ملاقاة الواردين من بلاد العدو ولما علم بهم العدو ولوا الادبار من غير ملاقاة محتجين بقلتهم وكان رئيسهم صاحب قرطبة

ثم ان صاحب اشبيلية جمع جنداً عظيما من جيش النصارى الفرسان والرجال وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى وعند ماصح هذا عند

العسكر اجتمعوا وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد والصلاح الرجوع الى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا مايحتاج اليه الحصار من العدة والعدد، فعند ما أقلع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون وتشاوروا فى إخلائها أو سكناها واتفقوا على الاقامة بها وحصنوها وجعلوا فيها جميع مايحتاج اليه وانصرف صاحب اشبيلية وترك أجناده وفرق فيهم الاموال ثم عاد المسلمون لحصارها وضيقوا عليها وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة منه ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى فعادوا عليهم وتردى بعضهم من أعلى الجبل وقتل أكثرهم وكانوا من أهل بسطة ووادي آش فانقطع أمل الناس من الحامة ورقم الاياس من ردها انتهى

فأنت ترى قرب الروايات العربية من الافرنجية فى مؤداها وقد آثرنا المقابلة بين النقلين زيادة فى التمحيص واتعانا في النصح لقلة تداول هذا التاريخ فى العربية

ثم قال صاحب نفح الطيب وفي جمادى الاولى من السنة تواترت الاخبار ان صاحب قشتالة أتى في جنود لا تحصى ولا تحصر فاجتمع الناس بغرناطة وتكلموا فى ذلك وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصد أن يضيفها الى الحامة وجاء بالعدد والعدد وأغارت على النصارى جملة من المسلمين فقتلوا من لحقوه وأخذوا جملة من المدافع الكبار ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة وناوشوا النصارى فألجأوهم الى الخروج عن الخيام وأخذوها فهرب النصارى وتركوا طعاما كثيراً وآلة ثقيلة وذلك فى السابع والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة انتهى

وقال مؤرخو الافرنج ان فرديناند عقد مجلسا في قرطبة ليري ماذا يفعل بالحامية فأشار اكثرهم بهدم حصونها واخلائها لصعوبة حفظها من طارقة العدو ولزوم حياطتها دائما بحامية وافرة تقتضي نفقات باهظة فعارضت في ذلك الملكة إيزابلا وأصرت على ابقائها وجعلت حمايتها لنظر قائد اسمه فرناند بورتو كاريرو مع اربعمائة فارس والف راجل وأجمع فرديناند على حصار لوشة وهي موقع حصين على مقربة من الحامة فاستنفر جميع المدن وبالغ في حشد العساكر وبلغ ذلك المسلمين فراسلوا اخوانهم من وراء البحر فارسل فرديناند وإيزابلا اسطولهما لمنع إجازة المدد واكتساح أرياف بر افريقية وسار من قرطبة وقد ترك أكثر جنوده في استجة وإنما استصحب خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف ماش فنازل لوشة فشاهد من حصانة لوشة وصعوبة مسالكها ومنعة النهر المطيف بها ما هاله فادرك خطأه بسرعة الاقدام لكنه أرسل كتيبة من جيشه للنزول بربوة محاذية للجسر يسميها المغاربة « صنتو أبو الحسن » وكان قائد لوشة رجلا يقال له علي العطار شيخا عالي السن مناهزا التسعين لكنه لم يفقد شيئا من صلابة جنانه ولا قوة ادراكه وهو حمو الامير أبي عبد الله ابن السلطان أبي الحسن وكان عنده ثلاثة آلاف فارس فارسل في الليل طائفة من جنده فكمنوا وراء « صنتو أبي الحسن » وعند الصباح خرج وهاجم المسيحيين فثاروا في وجهه فانهزم إمامهم خديعة منه فطاردوه ملحين واذا بالاصوات ارتفعت من خلفهم فالتفتوا فاذا بالمغاربة مقبلين فرجعوا للمحافظة على خيامهم فكر عليهم علي العطار وأرهف فيهم السيف وبقي يطاردهم ويستلحم منهم حتى تكاثرت نجداتهم فعاد عنهم وقد قتل منهم جملة وافرة وفيهم من أكابر فرسانهم

لذريق جيرون صاحب قلعة رباح الذي استشعر الاسبانيول فقده كثيرا فلما رأى الملك فرديناند مارأى أيقن بلزوم الرجعة وتأهب للاقلاع واذ رأى علي العطار حركته في الرجوع برز كالاسد اذا جاع وهجم على معسكر الاسبانيول فهزم منه جانبا فتداعى كله للفرار وارتفعت الضوضاء والصياح وبذل المسلمون فيهم السلاح فثبت فرديناند وبطانته ريثما أمكنهم نقل الخيام والمدافع والميرة لكنه كاد يلقى حتفه مرتين لولا تهالك الدون جان دوريبرا في وقايته وما زال في ذلك المأزق حتى وصل مركيز قادس وحال بينه وبين العدو فنجا الملك وفر الى بلاده وعلي العطار يطارده الى ريوفريو فلحق بقرطبة مدحوراً كسير القلب

وعلى رواية اخرى أن السلطان أبا الحسن خف الى نجدة لوشة وانه في ٢٦ جمادي الاولى سنة ٨٨٧ الموافق ١٣ تموز سنة ١٤٨٢ هاجم معسكر فرديناند من الوراء بينما كان علي العطار قد نهد اليه من جهة المدينة وانه بذلك دارت الدائرة على الاسبانيول وهذه الرواية أقرب الى خبر نفح الطيب اذ فيه أن جماعة من أهل غرناطة ذهبوا الى لوشة وناوشوا النصارى فاخرجوهم من الخيام

وقال آخرون أن أبا الحسن لما حضر بجيشه نجدة للوشة وجد فرديناند بجيشه قد جاز الدروب وانه لما بلغت أخبار لوشة حامية الحامة هلعت قلوبهم فقصدهم أبو الحسن فاسرع فرديناند باصراخهم فارتد ابن الاحمر عنهم وقصد مدينة قانيت فاستولى عليها وقفل الى غرناطة فبلغه انها بايعت ولده أبا عبد الله محمد وتبعها كثير من مدن المملكة فتوجه الى العاصمة التي حافظت على عهده هي ووادي آش وبسطة

قال بعض مؤرخي الافرنج انه في تلك الآونة استحكمت عري الخلاف في بيت ملك غرناطة وأخذ بنو سراج عشيرة من أعيان غرناطة أصلهم من قرطبة (١) بالخلاف مع بني زغبة واستفحل أمر أبي عبد الله نجل السلطان أبي الحسن ومالت اليه العامة بما نقموا على أبيه ذهاب الحامة وهي مفتاح غرناطة فلما قفل عنها المرة الاخيرة خائبا وجد الحاضرة مقفلة الابواب في وجهه فمال الى بسطة وهناك جمع خمسمائة رجل وحضر بهم الى الحمراء فقتل من النقباء فى الدور والساحات ولما أصبح الصباح تكاثروا عليه فافنوا أكثر جماعته ففر شريدا الى مالقة. وفى هذه الحادثة يقول المقري انه هرب الاميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفا من أبيهما أن يفتك بهما باشارة حظيته الرومية ثريا واستقرا بوادي آش وقامت بدعوتهما ثم بايعتهما تلك البلاد المرية وبسطة وغرناطة ، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن الى مالقة

وفى روايته شيء من مخالفة الرواية الافرنجية لكن على اتفاق فى النتيجة فانظروا أي زمن اختاره امراء غرناطة للشقاق والخلاف واذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه

أما أبو الحسن فاصبح بعد انقسام المملكة غير قادر على مناطحة فرديناند قرنا لقرن ولكنه يراقب الفرصة للقيام بعمل يمكنه من قلوب المغاربة ويعيد عليه سلطانه فعزم على الغارة فى أراضي دوق سيدونا وزحف بستة آلاف راجل وألف وخمسمائة فارس فلما حصل فى بلاد النصارى بين جبل طارق

---

(١) رواية ستانلي لان بول المؤرخ الانكليزي ان اصلهم من قرطبة فيكون بنو سراج غرناطه هم سلالة بنى سراج قرطبة المذكورين في نفح الطيب

وقسطليرة سرح اربعمائة فارس نحو حصن الجبل وأرسل اربعمائة اخري نحو طريف فعادوا بغنائم لاتحصى ثم رفأ الى ميناء الحصن اسطول بقيادة كارلوس دوفليرا فالتمس منه بطره دوفرغاز أن يتولى قيادة الحصن مكانه ليخرج الى لقاء العدو وسار بسبعين فارسا الى جهة قسطليرة وكانت طلائع السلطان منفصلة عن جيشه فناوشها القتال فخرج اليه ثمانون فارسا وحمي الوطيس فقتل جماعة من أبطالهم وجرح دوفرغاز وعاد كل من الفريقين الى مكانه فخيم أبو الحسن بساحة قسطليرة وأحرق بعض بيوتها ولم تمكنه منها ولكنه اعجب بشجاعة دوفرغاز فاستدعى اليه أسيرين من النصارى وسألهما عما هي وظائف قائد بلد طارق فأجاباه ان له على كل قطيع يمر بأرضه كبشا فصاح أعوذبالله من أن اعتدي على فارس مقدام كهذا وأرسل اليه اثني عشر رأس غنم عن الاثني عشر قطيعا التي عنده قائلا لمن أمره بسوقها اعتذر له عني بجهلي الواجب فأجابه دوفرغاز الرسول قبل لي يدي جلالته وقل له اني أسيف من انه لم يوجد عندي جند أكثر من هذا لاقوم بواجب لقائه وأملي عند وصول الثلاثمائة فارس الذين أرسلت بطلبهم من شربش ان احتفل له وليمة فاخرة ثم صرف الرسول مكرما

ولما بلغ أمراء الاسبانيول غزاة أبي الحسن عقدوا النية على أخذ الثأر واهتبلوا هذه الغرة من اشتغال المسلمين بالفتنة وما بينهم فاجتمعوا في النقيرة تحت زعامة مركيز قادس الدون بطرة هنريكس وقائد اشبيلية الكونت دوسيفونتاز والدون الونزو دوكردناز والدون الونزو دواغيلار وغيرهم وبلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة آلاف مع رجالة كثيرة وجعلوا وجهتهم الجبال لوجود قطعان الضان فيها بكثرة وخيلت لهم أنفسهم

الوصول الى وادي آش والاستيلاء عليها بغتة لضعف حاميتها فساروا مجتهدين في إخفاء أثرهم ولكن بلغ خبرهم وادي آش وهي وان كانت حاميتها قليلة فكان عليها قائد هو جيش بنفسه وأمة برأسه الا وهو الامير ابو عبد الله الزغل اخو السلطان أبي الحسن وكان أخاه أيضا في البسالة والاقدام لكنه أحذق وأليق وأدرب بكيد العدو وأبصر بمواقع الكر والفر وسمي الزغل عندهم الفتى الغض الشباب وكان هذا الاسم وحده يلقي الرعب في قلوب الاسبانيول

فلما اشرف الاسبانيول من الجبل المطل على مرج مالقة ابتهجوا برؤية تلك الارض ابتهاج بني اسرائيل بأرض الميعاد واذ شعر بهم الاهالي جمعوا قطعانهم ولاذوا بحصون الجبال فاحرق الاسبانيول المنازل المهجورة واخذوا بشعاب تلك الجبال، فتردى بعضهم في الاوعار، فبصر بهم المغاربة من ابراجهم فخرجوا ونضحوهم بالنبل ورموهم بالحجارة وتصايحوا بهم من كل جانب، وارتفعت الاصوات، وتجاوبت الاصداء، فوقع الرعب في قلوب الاسبانيول وأغاث بعضهم بعضا وانضووا الى مكان واحد وتشاوروا فيما يصنعون فاجمعوا الرحلة وتركوا الغنائم فساروا في الوعر والمغاربة يمطرونهم سيلا دافقا من النبل حتى خارت قواهم وجاءهم سحابة يومهم الى ان جن الظلام فحصلوا في وادٍ عميق واذا بصوت قد ملا الربى والوهاد « الزغل الزغل » فسأل صاحب انتياغو ماهذا، فاجابه أحد فرسانه هذا صوت الزغل فلعله قريب، فقال لفرسانه لنطلع هذا الجبل ذلك خير لنا من ان نذبح كالغنم في قعر الوادي، فاخذوا صعداً والنشاب والحجارة في ظهورهم حتى استلحموا لاسيما الرجالة الذين كانوا يتشبثون باذناب الخيل فتهوي بهم وبفرسانها فيهلكون جميعا وما زالوا في هذا الضيق الى ان بلغ

كردنازقنة الجبل فالتفت فاذا به قد فقد حامل رايته وجمامن أصحابه وانسبائه ورأى نفسه محاطامن كل جانب ثم تردي في مضيق حرج جداً وانتثر نظام جيشه

أما مركيز قادس فسار من جهة أخرى ومعه الكونت دوسيفنتاز والونزودواغيلار فالتقوا بعساكر الزغل فتناجزوا وضافر الزغل من هالك من ابطال الجبليين فانكشف الاسبانيول وأثخن فيهم المسلمون قتلا واسراً وأذرعوا الفتك فتاوم المركيز مقاومة شديدة لكن سقط أخواه وولدا اخيه صرعى بجانبه ولما رأى الثالث من اخوته قد خر صريعا طار قلبه شعاعا وأجهش بالعويل ولم يتمالك من البكاء وقتل فرسه فقدم له فرس آخر والتمس منه أصحابه الفرار فساعدهم فيه وانهزم بفلهم الى النقيرة

وأما الكونت دوسيفنتاز فبقي في الجبل مع جماعة وأرادوا اللحاق بالمركيز فروا بجثث القتلى من اخوانهم وفيهم سراة الاسبانيول وأماثل رجالهم ومغاوير ابطالهم فأصابهم جزع شديد وظلوا منهزمين الى النقيرة وتاه منهم جملة وافرة في الشعاب فأسرهم الجبليون حتى النساء واعتقلوا منهم بحصن مالقة نحو مائتين وخمسين فارسا وأكثر من خمسمائة راجل

ولما وصل مركيز قادس الى النقيرة مفلولا شريداً أشعث أغبر مخضبا بالدم عظمت النكاية في قلوب الاسبانيول لانه كان عظيم المكانة فيهم ولم يجسر أحد أن يعزيه بأخوته بل لزم غرفته كئيبا حزينا وانتشر خبر هذه الهزيمة الشنعاء في البلاد فارتجت الثغور وساحت البرات وهلعت القلوب حتى قلب فرديناند وايزابلا في وسط قصرهما أما المغاربة فطارت قلوبهم فرحا لاسيما عند ماشاهادوا أمراء الاسبانيول وأعيانهم مقيدين بالسلاسل تجلبهم فلاحوا الجبال وفي ايديهم راياتهم والكونت دوسيفنتاز

من جملة من ثقفوهم

وهاك ماورد فى (النفح) بشأن هذه الوقعة قال فى صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع رؤساء النصارى وتصدوا لقرى مالقة وباش فى نحو الثمانية آلاف وفيهم صاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب استجة وصاحب النقيرة وغيرهم فلم يتمكنوا من أخذ حصن ونشبوا فى اوعار ومضايق وخنادق وجبال واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة وصار المسلمون ينالون منهم فى كل محل حتى بلغوا مالقة ففر كبيرهم ومن بقي قتل أو اسر. وكان السلطان أبو الحسن فى ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب وبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند وقتل من النصاري فى هذه الوقعة ثلاثة آلاف وأسر نحو الفين من جملتها خال السلطان وصاحب اشبيلية وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم وهم نحو الثلاثمائة من الاكابر وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الانفس والاموال والعدة والذهب والفضة انتهى

وأما غرناطة فغبطت أبا الحسن على ماأصاب من الغنم والفوز وثارت بأبي عبد الله ولده لاجل الجهاد فلبي الدعوة وعقد عزما موفوراً على ابلاغ الغارة حدود قرطبة فحشد سبعمائة فارس وسبعة آلاف ماش وسار الى لوشة حيث وافاه حموه علي العطار بجيش من الفرسان كلهم مغاوير ثم دخل أرض النصارى واكتسح بلادهم الى حدود اشانة

وكان علي العطار خبيراً بالارض لكثرة ماقاتل فيها في زمانه فابصر ناراً على علم فقال لصهره لقد أصبحنا مكشوفين فانسرع الى فتح لشانة فسار معه أبو عبد الله وكان الدون دياغو دو قرطبة في حصن بانية وقد علم بقدوم المغاربة فخرج بمائتين وخمسين فارسا والفين ومائتي راجل لانجاد ابن أخيه

فى لشانة وفي الطريق تذكر أنه نسي راية بانية التي هي شارة بيته فنشر راية قبرة وعند وصوله انتعش به ابن أخيه مما اعتراه من خوف العدو وبرز الكونت لمنازلة العدو فتلاقيا وراء ربي وهضاب وقد أثقلت الغنائم حركة المغاربة وشوهد أبو عبد الله ممتطيا جواده الاشهب تحف به بطانته الباهرة ولما ظهر لابي عبد الله جيش النصارى سأل حماد عن رايتهم فأجابه لست أعرف ياسيدي هذه الراية وأظن الاندلس كلها زاحفة الينا اذ لا يمكن أن أهل مدينة واحدة يتقحمون لقاءنا واشتعلت نار الحرب واذا بأحد القواد قد جاء الاسبانيول بمدد جديد وعزف بموسيقي لإيطالية فقال علي العطار هذه ألحان طليانية لعل العالم كله أصبح ضدنا وكان الضباب كثيفا فغم على المسلمين أمر العدو وظنوه ضعف ما هو فكانوا يقاتلون رجوعا حتى بلغوا ساقية هناك فوقف السلطان أبو عبد الله على ضفتها حتى عبرتها رجاله وبقي الحرس حواليه والقتال بينهم وبين الاسبانيول فانهزم الحرس وعبروا الماء وأصبح السلطان فريداً برأسه فترجل وتوارى وراء الصفصاف لئلا يعرفه الاسبانيول فحضروا اليه وامسكوه وظنوه كبيراً من كبراء المغاربة فعادوا به الى لشانة أما علي العطار فبث سائراً والعدو في أثره لكنه كان يكر عليهم فيبدد شملهم ويستأنف سيره ولما وصل الخبر الى فرسان النقيرة اغتنموها فرصة لادراك الثأر وسار الدون الونزودواغيلار بجيش فالتقى بالمغاربة على ضفاف الشنيل فاقتتلوا شديداً وزعموا أن علي العطار أبصر الدون الونزو فقصده وطعنه بحربة فاثبتها في قلبه من درعه ولم تصبه بضرر فانتضى حسامه ووثب عليه كالليث الذي قد ثكل شبله فدفع الفارس الاسباني عن نفسه وبقي القرنان يتساوران ساعة تارة على ضفة

فشن الغارة على أراضي غرناطة وأبو الحسن ملازم مكانه لا يخرج اليه خوفا من أن يعود فيجد الابواب موصدة في وجهه كالعادة فكان نظير النمر الكاسر المحبوس في القفص وصيده بازائه وهذه نتيجة استبداد النساء بالامور ودخولهن في الاحكام ثم عادت إيزابلا فاطاقت مولاي أباعبدالله على شريطة أن يعترف بسلطانها وسلطان زوجها ويطلق من في جانبه من اسرى المسيحيين فخرج أبو عبد الله بحاشية وافرة لزيارة الملك فرديناند فلما قابله انحنى لاجل تقبيل يده فأبى فرديناند ذلك وانهضه بيده ولاطفه واكرمه

قالوا وقدم ابن سراج من غرناطة ومعه ولد أبي عبدالله وابناء الاشراف الغرناطيين فاودعوهم رهنا وجيء بالسلطان أبي عبدالله الى غرناطة وسار فرديناند في تشييعه بضع ساعات ولما وصل أبو عبد الله الى الحاضرة ثار به والده وأصحاب والده من جهة وانتصرت له والدته ومن اليها من اخرى فكان هناك في ذلك الوقت الضيق مشهد الحماقة الاعظم وجرى من الامور المنكرة ماليس في كتاب وامتلأت الاسواق بالمتقاتلين بعضهم ينادي باسم أبي عبد الله والبعض الآخر باسم والد أبي الحسن وكان أكثر ميل العامة الى أبي عبد الله فسالت الدماء وأصبحت حمراء غرناطة اسما على مسمى الى أن كل الناس من تقتيل بعضهم بعضا والعدو على الابواب، وسئموا من اهدار دماء المسلمين أعظم ما كانت الحاجة الى ادخارها لدفاع العدو، وارتضى ابو عبدالله اخيرا بالخروج من غرناطة والانحياز الى المرية المدينة الثانية بعد تلك في الاهمية والشأن وتشامخ البنيان لكن والدته حرسها الله لم تكن راضية عن ذلك بل قالت له ان الملك الذي لا يقدر ان يستقر في عاصمة ملكه لا يصح ان يسمى ملكا وكان بودها ان يبقى

حتى وصلوا الى الكامنين فتازوا بهم وحمل الجمع على الاسبانيول فهزموهم وأنجدهم بوبرتو كربرو فتشددوا به وعادوا الكرة فثبت المسلمون في مواقفهم لكن أسر قائدهم فذعروا وانشطروا شطرين فتأثف الاسبانيول احدهما وأحوا عليه والتقى الآخرة بصاحب قادس فناوشه واذ رأى جواد أخيه المقتول في الوقعة السابقة تحت احد فرسان المغاربة ورأى الاسبانيول خيول اخوانهم القتلى في جبال مالقة تحت فرسان اعدائهم غلت في صدورهم مراجل الغيظ وثاروا لاخذ الثأر فحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فكشفوهم وضل حامد طريقه الى رندة فرده اليه احد المتمسلمة من النصارى

وكان عند صاحب قادس بعض العيون والجواسيس اكثرهم من بنصر مغارة فأخبروه بضعف حامية الصخرة فتهيأ لقصدها وستجيش ببوبرتو السابق الذكر وجويان المارز فبادر الاجابته وزحفوا في ٢٨ اكطوبر سنة ١٤٨٣ بستمائه فارس والف وخمسمائة ماش فبلغوها ليلا بدون ان يشعر بهم أحد وكمن اورتغادو برادو المعهود بعشرة من أقرانه تحت السور ومعهم سلالم وكان رجال الحصن قد خرجوا الى المدينة وناشبهم الاسبانيول القتال ريثما تمكن هؤلاء الكامنون من صعود الحصن فعندما ايقنوا أن العدو أصبح فيه سقط في ايديهم واتفقوا مع العدو على الخروج بالامان

وبعث السلطان أبو الحسن جيشا الى الحامة وكان قائدها الكونت طنديلة فذب عنها حسنا وفي احد ليالي الشتاء خر جانب من سورها فخاف الكونت ان يدري المسلمون فيتقحموا الثغرة فنشر غطاءاً كبيراً من الدسيج وجعل وراءه الفعلة يشتغلون حتى اكمل بناء الحصن المتهدم

وفي تلك المدة احتشد أمراء الاسبانيول ثانية للغزو وزحفوا بستة آلاف فارس واثني عشر الف راجل وعليهم مركيز قادس وكونت قبرة وقائد القنطرة وصاحب صنتياغو والوفد الونزو دوغيلار وبويرتو كريرو وغونسالف القرطبي وغيرهم فاجتاحوا أراضي مالقة وحطموا زرعها وأحرقوا البيوت المنفردة ونهض اليهم المالقيون فلم يفوزوا منهم بطائل

وكان فرديناند قد استبدل بآلات الحصار القديمة المدافع النارية الجديدة ونزل بها على البورة ولم يكن لاهلها عهد بهذه الادوات الجهنمية فارتاعوا وسلموا بلدتهم صلحاً والتجأوا الى مالقة فلم يقبلهم أهلها ظنا بأنهم جبنوا عن القتال وخافوا عن اللقاء ثم سير فرديناند بهذه الآلات جيوشا اكتسحت بسائط غرناطة فسأله أبو الحسن الهدنة فأبى وأظهر التعصب لابنه أبي عبدالله وبعث اليه بالمدد بمكانه من المرية وكان أبو الحسن قد بلغ من الكبر عتيا وكف بصره ولزم الفراش فنزل عن الحكومة والقيادة لاخيه أبي عبدالله الملقب بالزغل وكان له أمينا وبه برأ مهاج أهالي المرية على أبي عبد الله محمد وقاموا ببيعة عمه ولم يلبث ان حضر هذا اليهم بنفسه فافتتح قلعة المرية وفر ابن أخيه شريداً الى قرطبة مستغيثا بالملك والملكة واستوسق أمر غرناطة كلها الزغل وسار الى مالقة وحومت عليه الخواطر وانشرحت له الصدور وعقد به مغاربة اسبانية انواط الا مال

قال صاحب النفح بشأن الوقائع المتقدمة: ولما استقر السلطان ابو عبدالله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها وأتى ابنه السلطان أبو عبدالله في جند غرناطة والجهة الشرقية والتقوا في موضع يعرف بالدب فكسر

السلطان أبو عبد الله . ولما سمع السلطان أبو عبدالله صاحب غرناطة بان عمه بمالقة غنم من النصارى اعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية وذلك فى ربيع الاول من السنة الى ان بلغ نواحي لشانة وقتل وأسر وغنم فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير قبرة وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار فانكسر الجند وأسر من الناس كثير وقتل آخرون، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبدالله ولم يُعرف، ثم علم به صاحب لشانة وأراد صاحب قبرة ان يأخذه منه فهرب به ليلا وبلغه الى صاحب قشتالة ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد وتفاءل به فقلما توجه لجهة أو بعث سرية الا وبعثه فيها ولما أُسر السلطان أبو عبدالله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الاندلس وذهبوا لمالقة للسلطان ابي الحسن وذهبوا به لغرناطة وبايعوه مع انه كان أصابه مثل الصرع الى ان ذهب بصره وأصابه ضرر ولما تعذر أمره أقام اخاه ابا عبدالله وخلع له نفسه ونزل بالمنكب فأقام بها الى ان مات واستقل اخوه ابو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده انتهي

وقد سار المؤلف رحمه الله في تاريخ هذه الوقائع كلها على قاعدة الايجاز فيه البلاغة

ثم ان فرديناند اعاد الكرة سنة ١٤٨٥ خامس ابريل فحشد في قرطبة تسعة آلاف فارس وعشرين الف راجل وقصد بها مالقة لانها ميناء غرناطة ومنها كان يتسرب المدد من جهة البحر فابتدأ بفتح الحصون التي في طريقه وأشهرها ذكوان وأسرع حامد الزغبي لإغاثتها فوجد اهلها قد استأمنوا وخرجوا منها . وفي النفح ان الف دارع من النصارى دخلو

ذكوان عنوة فاظفر الله تعالى أهل ذكوان بهم فقتلوهم جميعاً ثم طلبوا الامان وخرجوا . فسار الى مائدة فخرج اليه الزغل بالف فارس فرده وقتل من الفريقين فانعطف صوب رندة بشارة مركيز قادس لمنعة هذا الحصن وكثرة ما فيه من اسرى المسيحيين وكان قائد رندة قد خرج للغزو وعاد بغنائم لا تحصى وعند ما وجد الاسبانيول منازلين حصنه بعث بالصريخ الى أهل الجبال المجاورة فاسرعوا اليه واشعلوا الحرب واقدموا اقدام الآتي ولم تؤخذ رندة الا بسبب عين كان يستقي منها أهلها وينزلون اليها بدهليز طويل ولا ماء لهم غيرها فلما تمكن العدو من هذه العين لم ينفعهم الثبات وطلبوا الامان على شرط الاجازة الى أفريقية فأذن لهم وخرجوا ووجد في اسرهم عدد غفير من كبار الاسبانيول وابناء الامراء

ثم عزم فرديناند على منازلة حصن مكلين لما بلغه من ضعف الجند المرتب له وحصل التواعد بين الملك وبين كبير قبرة على المسير معا فبادر الزغل الى الجهاد وبرز الى ملاقاتهما فلم يصبر صاحب قبرة عن ملاقاته وحده وناوشه باربعة آلاف فارس وستة آلاف راجل ظانا انه يأسره كما أسر ابن اخيه لكن الزغل غير الشيقتو والفرق شاسع بين أبوي عبدالله ابني الاحمر فوصل صاحب قبرة الى واد عميق وكمن فيه لكن القمر بغى عليه وخانه فافتضح امره للمغاربة وانهالوا عليه بنبل متتابع فاستسلم جيشه وقتل أخوه وهلك جواده فامتطى جواد أخيه ولما رأى شدة فتك المغاربة باصحابه فر شريداً فطاردوه مدة واذرعوا في عسكره القتل فهلك في ذلك اليوم جملة وافرة من أمراء النصاري وابناء البيوتات الاسبانية وآب الزغل بالغنيمة

وساء جدا وقع هذه الواقعة عند الاسبانيول فاراد الملك محو أثرها وأجمع على مهاجمة حصن قبيل والحصن الذي بجانبه وهما مبنيان على صخرتين متناوحتين ترتبطان بجسر ولهما حامية شديدة تكثر المغاورة فى أراضي العدو خصوصا جهة جيان وقائد الحصنين محمد بن يوسف بن سراج من رءوس فرسان العرب فوضع الملك المدافع الدارية الجديدة بازاء الحصنين وشرع يرسل عليهما النيران وأدار الحركة الدون فرنسيسكو راميرز أول مهندس فى اسبانية لوقته واستمر إطلاق النار يوماً كاملا حتى خرت الجدران وهلكت الابطال ولم يجد ابن سراج فائدة فى المقاومة بازاء هذه النيران المحرقة التى لم تكن عنده فسلم القلعتين على شرط الخروج الى غرناطة فأجيب الى ذلك

وكان قائد الحامية الدون غايتارز دو باديلا خضر لديه مرة مغربي من طبقة التجار الذين من عادتهم أن يلحقوا الجيش لشراء السلب، طلب الكلام معه قائلا كم تفقدني من المال اذا سلمتك قلعة زالمة؟ فاجابه وكيف يكون ذلك؟ قال ان لى فيها اخا أو عزاليه سراً فيمكن جنودك من دخولها ليلا، قال له وهل تخون دينك وامتك لاجل المال؟ قال المغربي انني بدلت ديني وامتي وأمي أمة اسبانيولة وقائد زالمة رجل ظالم سلبني مالى فأريد الانتقام منه فأرسل الدون رجالا راسلوا الخائن فأنزل اليهم سلما تسلقوا بها الحصن فذبحوا نصف رجاله واستولوا عليه

وكان أبو عبد الله ابن أخي لزغل قد جعل حاضرة ملكه بلش البلانكو وتقوى به حزبه سكان البيازين وعادت الحال الى مكانها بينهم وبين أصحاب الزغل وتخضبت غرناطة بالدماء من أبنائها وازدادت الحمراء

أحدق به أبطال من غمارة ووثب كالاسد الحارد فاخترق مصاف الاسبانيول وهزم من لقيه فانتشر به بأس المسلمين وراجعوا بصائرهم ونبهوا عزائمهم وحملوا حملة الرجل الواحد فاختل مصاف الاعداء على كثافة جموعهم وكان هذا الفارس هو حامد الزغبي فانكشف الاسبانيول من جهة الوادي وكاد صاحب قادس يقع في الاسر فبادر الملك فرديناند ببقية الجيش والى جانبه اللورد سكالس البطل الانكليزي ومعه غزاة الانكليز يقاتلون بالفؤوس على عادة بلادهم ولم يكن ذلك معهوداً عند المغاربة فذعروا وجرح الزغبي فاحتملوه الى المدينة وارتخت عزائمهم فنكصوا الى الارباض وألح عليهم الاسبانيول فاشتد العراك وراجع المسلمون ضمائرهم وصدقوا الحملة فكشفوا العدو وجرح اللورد الانكليزي وحمل الى الخيام فنصب الطاغية مدافعه وأخذ يرمي البلدة بالنيران الدائمة فهدم أسوارها وحاول اهلها يرممون جدرانها وسد فرجها فلم يفلحوا وكان النساء والاطفال والشيوخ تحت نيران المدافع يصابرون على مر الحمام فيئس من ذلك المسلمون وحملوا على الاسبانيول فقتلوا منهم مقتلة عظيمة واستمروا يفتكون بهم ليلتين ويوما لكن تهدم بلدتهم وموقفهم بازاء النيران المحرقة اضطرهم أخيراً الى التسليم على شرط الانصراف آمنين فاجيبوا الى ما سألوا وخرجوا الى رياغو على ثلاث ساعات من لوشة

وهاك ما ورد في النفح بشأن ماتقدم ببعض تصرف قال

« ثم انتقل (أي الطاغية) في جمادى الاولى الى رندة وحاصرها وكان أهلها قد خرجوا الى نصرة ذكوان وسواها فحاصر رندة وهد اسوارها وخرج أهلها على الامان وطاعت له جميع البلاد ولم يبق بغربي مالقة

إلا من دخل في طاعته وتحت ذمته وضيق بمالقة وفرق حصصا على بعض الحصون ليحاصر مالقة وعاد الى بلاده

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطه لتحصين بعض البلاد وبينما هو كذلك اذ بالخبر جاءه ان محلة العدو خارجة لذلك الحصن وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن كانوا قد سروا اليه ليلا وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين فقاتلهم المسلمون من غير تعبية فاختل نظام المسلمين ووصل النصارى الى خباء السلطان ثم التحم القتال واشتد وقوى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شر هزيمة وقتلوا منهم خلائق وقصر المسلمون خوفا من محلة سلطان النصارى اذ كانت قادمة في أثر هذه ولما رجعت اليهم الفلول رجعوا القهقرى واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كله بالحصن ولم يحدث شيء بعد الى رمضان فتوجه العدو لحصن قبيل ونازله وهد أسواره ولما رأى المسلمون ان الحصن قد دخل طلبوا الامان وخرجوا باموالهم واولادهم وفر الناس من تلك المواضع واستولى العدو على عدة حصون مثل مشافر وحصن اللوز وضيق بجميع بلاد المسلمين ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ثم إن العدو دبر الحيلة معما هو عليه من القوة فبعث الى السلطان أبي عبدالله الذي تحت اسره وكساه ووعده بكل مايتمناه وصرفه لشرقي بسطة واعطاه المال والرجال ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين فانه فى الهدنة والصلح وخرج لباش فأطاعه أهلها ونودي بالصلح فى الاسواق وصرحت به فى تلك البلاد الشياطين وسرى هذا الامر حتى بلغ ارض البيازين من غرناطة

انجاد الغارة الى أن وقعا صريعين الواحد بعد الآخر، فعظم الخطب فيهما، واشتدت النكاية بموتهما، وبكاهما اهل غرناطة بسيول الدموع

وعاد فرديناند الى قرطبة بعد أن اجتاح مرج غرناطة واخفي على نضارته ولم يكد يخلص الى بلاده حتى استؤنفت الفتنة في غرناطة بين الزغل وابن أخيه وكان ماكان من حضور ابي عبد الله الى البيازين وقيام دعوته فيها واستمرار القتال بين الفئتين أياما حتي قيل ان السلطانين تبارزا بانفسهما في اسواق غرناطة فلم يفز أحدهما بالآخر

وذكر مؤرخو الفرنجة ان اخبار الاندلس كانت وصلت الى المشرق فارتج لها العالم الاسلامي ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر فتهادنا ووقع الاتفاق على أن يرسل بايزيد اسطولا على سواحل صقلية لكونها تابعة مملكة أسبانية وان يجهز صاحب مصر بعوثا من جهة افريقية فلما أحس بذلك فرديناند وايزابلا اجمعا على سد الثغور البحرية كلها عن غرناطة قطعاً للامداد ولما كانت مالقة هي الثغر الاعظم وميناء الاندلس ومركز التجارة مع مصر والشام ومنها كانت تتسرب الاموال والاسلحة والجنود والخيول من تونس وطرابلس وسائر المغرب كان أول ماأعملا فيه الاستيلاء على مالقة ولكن قبل النزول على مالقة عزما على أخذ بلش القريبة منها ففي ربيع سنة ١٤٨٧ زحف الطاغية بعشرين الف فارس وخمسين الف ماش قسمها قسمين احدهما بقيادة صاحب القنطرة والثاني قاده بنفسه وأخذ الاول بطريق الوادي وسار الثاني بطريق الجبل وامامه نحو أربعة الاف من الصناع وممهدي الطرق فلم يزل حتى أطل على مرج بلش وجنانها وهي من أزهي بقاع الارض

وابدع أقاليم الدنيا وقد ارتفعت حفافيها الحصون والابراج وهناك قوم من الجبليين اهل شدة ونجدة، فما خيم الملك حتى انقضوا عليه من وراء الصخور، انقضاض الذئب ورمن الوكور، فهزموا طائفة من جنده واستلحموا جماعة فقتل جملة وافرة من أبطاله وأصيب ابن دوق براغانس بجراحة ثم أرسل جنودا للمحافظة على الذخيرة الآتية بطريق الجبل فلم يتمكنوا من حفظها واصابها المغاربة وابعدوا في معسكره النكاية واخذوا يضربون النيران في الليالي على رءوس الجبال اشارة بعضهم الى بعض على حد ماقال

وضعوا السلاح الى الصباح واقبلوا يتكلمون بألسن النيران

وكبسوا معسكر الطاغية بياتا مرارا جمة وأخيرا تجمعوا من كل ناحية وهاجموا المعسكر وبعد قتال عنيف ارتدوا الى جبالهم هذا والحرب الداخلية لم تزل قائمة على ساقها في أسواق غرناطة فلما شاهد المسلمون ما هم عليه من الغفلة والاشتغال بمناظرة بعضهم لبعض أحوج ما كانوا الى الانضمام والوئام شددوا النكير على السلطانين ونصحوا لهما بالعدول عن الشأن الذي هما فيه فأبى أبو عبد الله التخلي لعمه عن الملك وأصر على المطالبة غير متأمل في عواقب هذه الحال التي ستنتزع الملك منه ومن عمه ومن جميع أهل بيته وملته في أرض عمروها ثمانية قرون الا ان الزغل لم يصبر عن نجدة بلش فابقى في الحمراء حامية كافية لدفع ابن اخيه المشؤوم وخرج ليلا بالف فارس وعشرين ألف ماش، واجتمع اليه من أهل الجبال أعداء، وعلا الصوت في الربى والوهاد، « الزغل الزغل » فوقع الرعب في قلوب الاسبانيول وكانت مدافع الطاغية في الطريق فحاول رضوان المكناسي استخلاصها فلم يفز بطائل وكتب الزغل الى قائد بلش يأمره انه عند ما يشاهد

النار ليلاً يخرج من احدى جهات المدينة وهو يقابله من الجهة الثانية وكان الرسول من المتمسلمة فوقع الكتاب في يد فرديناند فخاف جداً وخافت الملكة اكثر منه ولكن أفادهما الظفر بذلك الكتاب عدم وقوف قائد بلش على أمر الزغل فبقي في المدينة لا يبدي حركة وتقدم الزغل نحو معسكر الاسبانيول فلم يجدوا أحداً خرج من البلدة فلم ينكصوا على أعقابهم بل اقتتلوا اقتتالا شديداً وانتظر المغاربة ان يخرج اهالي بلش لمساعدتهم فطال الامد ولم يبرز أحد فاصابهم الهلع وتقهقروا وتقدم صاحب قادس فتبوأ مرقبا عاليا ركب فيه ريحهم فاجتهد الزغل في ضم شملهم فلم يفلح فعاد بهم الى غرناطة، ولما طار الخبر اليها بما حل به من الفشل بايع أهلها ابن أخيه فضرب هذا اعناق اربعة من اعيان الغرناطيين انصار عمه ولما بلغ الزغل نهر شنيل اخبره بعض حواشيه أن الحضرة بايعت ابن أخيه فتحول الى المرية فالمنكب فوادي آش . ولما أصبح أهالي بلش وقد رأوا الزغل أقلع بعسكره عنهم وهت عزائمهم فعولوا على التسليم وعقدت شروط الصلح بين رضوان قائد البلدة وبين الكونت دوسيفونتاز صاحب شريش الذى كان أسيرا في بلش وخرج أهل بلش باموالهم الى غرناطة وانطلق اسرى الاسبانيول وأطاعت جبال البشرات ونحو أربعين بلدة فيما قيل بنواحي مالقة وطلبوا حماية الطاغية وصار المسلمون في جميع هاتيك النواحي مدجنين

وقال صاحب نفح الطيب بشأن الحوادث المتقدمة ما ملخصه « إن صاحب غرناطة بعث الى الاجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكب وبلش ومالقة وجميع الاقطار وتجمعوا بغرناطة وتعاهدوا وتحالفوا على أن يدهم واحدة على عدو الدين ونصرة من قصده العدو من المسلمين

وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلته قاصداً نواحي بلش وبعث صاحب البيازين وزيره الى مالقة والى حصن المنشأة يذكر ويخوف ومعه النسخة من عقود الصلح فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته خوفاً من صاحب قشتالة وطمعاً في الصلح ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة والسبب الحامل لهم على ذلك فلم يرجع اهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الاندلس من العهود وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها والمصح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس فاشاروا بالمسير لاغاثة بلش للعهد الذى عقدوه واتى اهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ووصل بلش فوجد العدو نازلا عليها براً وبحراً فنزل بجبل هناك وكثر لغط الناس وحملوا علي النصارى من غير تعبية وحين حركتهم للحملة بلغ السلطان الزغل ان غرناطة بايعت صاحب البيازين فالتقوا مع النصارى فشلين وقبل الالتحام انهزموا وتبددت جموعهم مع كون النصاري خائفين وجلين منهم ولا حول ولا قوة الا بالله فرجعوا وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان فقصدوا وادى آش وعاد النصارى الى بلش ودخلوا ربضها عنوة ولما رأى أهلها تكالب العدو عليهم وادبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الامان فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الاولى من السنة واطاعت النصارى جميع البلاد التى بشرقي مالقة وحصن قارش ،، انتهى

ثم ذكروا أن فرديناند أجمع على حصار مالقة وكانت من قواعد

سلطنة غرناطة وميناء الاندلس وثغرها المحروس كما تقدم الخبر وهي مبنية في قعر واد خصيب فاتح فاه لجهة البحر تمنعها الجبال والابراج والاسوار من البر والامواج المتكسرة على الاسوار من البحر وعلى رابية في أحد طرفي المدينة القصبة (دار الحكومة باصطلاح المغرب) وفوق القصبة صخرة شامخة عليها المنارة البحرية المسماة بالفار، ولها وراء السور ربضان أما المناوح منهما للبحر فجنات معروشات وغير معروشات، ومنازل رحبات، وأما المقابل للبر فكان مشتبكا بالعمارة متصل البيوت. وكان لمالقة حامية وافرة مجربون في الحروب ومعتادون لقاء الاهوال وأهلها من ذوي الحركة والنشاط والعمل والحزم أكثرهم تجار وفيهم عدد من ذوي اليسار وفي مقدمة هؤلاء التجار الموسرين رجل يقال له علي دردوق له عدة سفن تجارية تسافر الى جميع موانى الشرق وله في ثغر مالقة الكلمة العليا والرأي المقدم، فجمع هذا عصبة من كبار القوم وسار الى قائد القصبة وبين له عقم الدفاع وخلو المقاومة من كل جدوى، وان الاجدر بهم قبول دعوة السلطان أبي عبد الله حليف الطاغية، فرضي القائد وسار الى خيام الاسبانيول للمكالمة فى شروط التسليم وترك القيادة لاخيه

وكان حامد الزغبي المشهور بلدد العداوة للنصارى قائد موقع المنارة البحرية وعنده من بني غمارة طائفته كلهم على شاكلته من شدة الباس وصعوبة المراس فطارت عقولهم عند ما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة واستنفروا من كان باقيا من أهلها على عهد الزغل واستدعى حامد الخواص الى حضرته فحضروا جميعا ولم يتخلف منهم الا دردوق الآنف الذكر فقرروا وجوب الدفاع ونقضوا ما أبرمه قائد القصبة بتمامه

وكان صاحب قادس قد عرف في بلاش مالقة رجلا شهير من تجار المغاربة وعده بقتل ذؤابة حامد عن المقاومة فعرض الامر للملك ففوضه بالعمل وأركبه المركيز جواده وقلده سلاحه واردفه بمغربي آخر من انسبائه بكتب يعرض فيها على حامد مدينة كوهين مع أربعة الآف ذهب ان سلم قصر المنارة أو جبل نارو وان رضي بتسليم البلدة كلها كان جزاؤه أعظم وكان حامد يحترم مركيز قادس احترام الابطال بعضهم لبعض فاكرم الرسل واصغى اليهم لكنه رفض خيانة ملته ووطنه رفضا باتا فكرر فرديناند الرسالة فكاد الاهالي يقبلون بالصلح لولا ماقال حامد للرسول وهو ،، اذهب وقل لسيدك اني قد تسلمت مدينة مالقة لاحبها لا لأسلمها ،، فعندما يئس فرديناند منهم قدم المدافع وزحف بالجيش وقابلته أساطيله من البحر فاحرق حامد الارباض وسير ثلاث فرق لمصادمة العدو وذلك انه لما كان لابد للاسبانيول من المرور بمضيق بين قصر المنارة والجبل امر الزغبي فرقة من جيشه باحتلال المضيق وفرقة أخرى باحتلال الصخرة المشرفة وفرقة ثالثة بالنزول بالجهة البحرية

وانتشبت الحرب بداية في المضيق المذكور وتصارعوا قرنا لقرن وعولوا على القتل اكثر من الاسر وتلاحقت النجدات للمسيحيين فعظم سوادهم واشتدت وطأتهم لكن المغاربة ثبتوا في مواقفهم وقلوا حدودهم فالزموهم الرجوع فنكصوا على أعقابهم ولما يقضوا وطرا وكان فرديناند مشتغلا بتركيب مدافعه وتصويبها مما اقتضي من المشقة مالا يوصف فلما تم له ذلك رمى البلدة بالنيران وظاهرته الحراقات من البحر وارتفع دوي المدافع ولكن المدينة قاومت مقاومة شديدة لمتانة أسوارها ومنعة مواقعها

ولم تؤثر النيران الا في برج واحد كبير تداعى اكثره للخراب فاهتبل النصارى فيه الغرة وتسلقوه فدحرهم المسلمون أول مرة وأهلكوا منهم خلقاً كثيرا فحملوا ثانية وصدقوا الحملة فازاحوا المسلمين وملكوا الحصن فتجمع المسلمون وحملوا عليه واحتفروا عند ركنه أخدوداً ووضعوا النار في الاخدود فخر منه جانب وهلك بسقوطه جم غفير من الاسبانيول ففتحوا منه ثغرة لجهة معسكرهم يتسرب لهم بها المدد وبقي الفريقان يراوحون القتال ويغادونه يومين وليلتين وانكفأ المسلمون ولم يتمكنوا من الحصن واشتدت عزائم الاسبانيول باخذه ولكنهم لم يطمعوا في مهاجمة المدينة لما فيها من الجيوش المدربة على القتال وطال بهم المقام فسئموا وتبرموا وخافوا العاقبة ووقر في نفوسهم من خوف الزغبي وطائفته ما آل بهم الى القنوط ففر منهم جماعة وافرة الى المدينة وانضموا الى المسلمين واخبروهم عن ضيق الحالة بالنصارى وبالغوا في الحكاية فثارت الحمية برءوس هؤلاء فاخذوا يندلقون على الاسبانيول اندلاق السيوف من الاغماد، ويندفقون اندفاق السيول من الانجاد، فلا يلقونهم في مأزق، الا مزقوا شملهم كل ممزق

واتصل بفرديناد ان النصارى الخائنين بشروا طامداً بكون الملكة ترجت زوجها كثيرا برفع الحصار عن مالقة فذهب الى تقطيع آمالهم باستدعاء الملكة الى المعسكر فجاءت وصحبتها ابنتها وبعد وصولها راجع حامداً في التسليم فجبه حامد الرسل وانكر الامر وترجاه بعض الخواص بالقبول فقيل انه قتلهم فامر الطاغية باطلاق المدافع فاطلقت نيرانها دراكا واتفق ان حضر الملك والملكة الى معسكر صاحب قادس فجرب في حضرتهما

بعض مدافعه الكبار ولم ينشب ان ابصر الراية التي فقدها في جبال مالقة وهي تخفق فوق برج قريب من جبل فارة أو المنارة فأثر ذلك في خاطره ولج في اطلاق النيران ثم تقدم بالجند نحو ذلك الحصن وطمع في أخذه فانهال عليه الف مغربي من ذؤبان الجيش فذبحوا أجناده ذبح الشياه وهزموا من سلم منهم فلاحق المدد للنصارى فاعادوا الكرة والتحم الفريقان وهلك منهما خلق كثير وتولى الصبر مقام المغاربة فكاد المركيز ينهزم ثانية وكادت رايته تقع أيضا في يد العدو لولا أن قائد تلك القطعة من جيش المسلمين ابراهيم بن زناتة جرح في معمعة القتال فعاد به قومه الي الحصن وأرسلوا من هناك نبالهم فنالت من الاسبانيول وتقهقر عسكر المركيز وفشافيه القتل وهلك في هذه الوقعة أورتاغو دوبرادوا الفارس الشهير أول من تسلق قامة الحامة فكان يوما شديدا على الاسبانيول

ومن ثمة أصبح الكفاح بين الفريقين يأس المرء من الحياة ومبايعة الارواح في أسواق المنايا وتهالكت المقاتلة وتكالب الجند بعضهم على بعض وشرع حامد يرمم المتهدم من أسوار المدينة حتى أنه عزم على بناء ست سفن حراقات بقصد الهجوم على اسطول الاسبانيول وأما الملك والملكة فاستجلبا لذخائر والاقوات من جميع مدن اسبانيا وأمرا ببناء ابراج من الخشب يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب ولها سلالم لاجل التسور والنزول وعقبا ذلك بحفر الخنادق ونقب الاسوار وحشر الهذه الغاية الفعلة والصناع واستكثرا من العدة والآلة وقام العمل على قدم وساق وحامد لا يترك للمحاصرين راحة ولا يمهلهم فواقا بل يغاديهم النزال ويراوحهم حتى ملوا وامتلات الخيام بالجرحى والمرضى ثم لم يلبث أهل

فأمده بالف فارس وعشرة آلاف راجل لاجل حراسته. لعمري جدير بملك كهذا أن يكون آخر لملوك قومه

وفي هاتيك المدة وصل وفد من ملك تلمسان الى فرديناند وايزابلا بهدايا فاخرة وقد تضمنت رسالتهم الكلام في شأن أهل مالقة فاستقبل الملك وامرأته ذلك الوفد برا وترحيبا واقتصرا على ذلك واشتد الجوع بأهل مالقة وأكلوا الخيل وهلك منهم سغبا خلق كثير

ثم ظهر من وادي آش رجل يدعى بابراهيم ويلقب بالصانتو أي الولي فلما رأى رجوع عساكر الزغل عن نجدة مالقة أخذ يطوف في أسواق وادي آش مناديا إن الله أوحى اليه كيفية خلاص مالقة فسألوه عن كيفية خلاص مالقة فاجتمع حوله اربعمائة رجل من أولى النجدة وساروا بصحبته الى تلك المدينة فرأوا أوفق مكان للدخول جهة معسكر المركيز صاحب قادس فهجموا عليه فمنهم من قتل الخفراء ومنهم من ألقى بنفسه في البحر ثم تسور جدران البلدة فبلغ منهم مائتان المدينة وانهزم الباقون

أما الصانتو فلم يغش الكريهة بل دلف اليه لاسبانيول فوجدوه ساجدا قائما لا يتحرك فأخذوه الى المركيز فسأله عن حاله فأجابه انه ولي الله وان الله تعالى قد كاشفه بفتح مدينة مالقة فسأله عن كيفية ذلك فأجابه انه نهي عن كشف ذلك السر الا للملوك فارسله المركيز الى الملك والملكة وكان فرديناند قد طعم ونام فلم ينبهوه وقادوا المغربي الى سرادق المركيزة مويا والدوق الفارو دو برتغال فتشابه هذان عليه بالملك والملكة لما رأى من اجلال الجند لهما وما شاهد من الرياش الفاخر في فسطاطهما فطلب ماء ليشرب وبينما هو يمد يده لتناول القدح اذا استل من تحت جنبه شفرة

وكان الجوع قد عض أهل مالقة بنابه حتى طلبوا لحم الخيل فلم يجدوه فاكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت وهلك منهم خلق كثير والتجأ جماعة الى معسكر النصارى مؤثرين الرق على الموت جوعاً فعند ذلك توجه على دردوق جماعة من أعيان البلدة الى حامد فوجدوا عنده الدرويش المار الذكر فقالوا له اننا نتوسل اليك بالله وبرسوله أن لا تصر على مقاومة عقيمة من الجدوى فان أسوارنا دون أسوار رندة وقد تهدمت رندة

وان رجالنا ليسوا بأشد من رجال لوشة وقد سلمت لوشة وليس لنا في غرناطة كبير أمل فان سلطانها أبا عبدالله تابع للملوك النصارى وان الزغل عمه طريد منها شريد في وادي آش فما ننتظر ونساؤنا وأطفالنا يهلكون أمامنا جوعا فأجابهم حامد علينا بهذه هجمة اخيرة فلا تثبطوا عزائمنا عنها وخرج في اليوم الثاني رافعا راية الدرويش ووراءه ابراهيم الزناتي وجماعة غمارة ورتب المصاف وصعد النساء والاولاد على أعالي الابراج لمشاهدة الوقعة الاخيرة وتزاحفت الصفوف وجاءت الهجمة على معسكر صاحب قلعة رباح ومعسكر صانتياغو فصدق المسلمون الحملة وهبت الريح المبشرة فخفقت لها راية الدرويش وحمي الوطيس وتسابقت غمارة الى تسنم الجنة وقاتلت بما يعرف من بأسها وصدق جلادها فانكشف الاسبانيول وطاردهم المغاربة بالقتل والاسر واذرعوا الفتك فوقع الرعب في قلوبهم وتداعوا من كل ناحية للفرار وبينما الامر كذلك اذ خر الدرويش صريعا بحجر أصابه وسقطت الراية فتطير المسلمون ونزل بهم الهلع ورجعوا أدراجهم فلما رآهم النساء مدبرين ارتفع عويلهن ونادين بالويل والثبور ولبث حامد سائرا الى معقله مع قومه الغماريين وانقطع أمل المالقيين وعولوا على التسليم فراسلوا الملوك

ملتمسين الامان على النفوس والنفائس فلم يجابوا اليه وقيل لهم إن أبا الرأفة قد مضت فراجعوا في ذلك فأجيبوا بالاعراض أيضا حينئذ أرسلوا الى الملك يقولون له انهم عزموا أن يشنقوا الفا وخمسمائة أسير مسيحي فوق السور ويجمعوا نساءهم وذراريهم في القلعة ويحرقوا البلد ويخرجوا منه بالسيف مقاتلين الى آخر نفس من حياتهم فعندها حسبوا لذلك حسابا ورضوا منهم التسليم على ذلك الشرط ودخلوا مالقة ورتبوا أوا الحصون وبقى الزغبي ممتنعا فى مكانه الا أن جماعته جنحوا الى التسليم من الجوع والتزم أن يتابعهم فبعث الى فرديناند بذلك فاجابه انه لا يناله الامان ال أهل مالقة فلما استسلم غدر به وأخذ هو وأصحابه أرقاء وحينما سأله عن سبب مقاومته الشديدة أجابه أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني وسلطاني ولو طاوعني جندي ماأسلمت السلاح أبدا فغضب الطاغية وأمر به فحمل على الادهم

وعند ما دخل مالقة حول المسجد الاعظم كنيسة واقام بالقصبة واقامت الملكة بجبل فارة وبعد فتح المدينة اطاع غربي البلاد كلها وخضعت شوكة اهلها وجدع مارن عزهم وسكنت سورة بأسهم، واما السلطان أبو عبد الله فبعث يهنيء الملك والملكة بهذا الفتح ولم يكن هذا المسكين يدع فرصة لاظهار امانته إلا وينتهزها فلم تنفعه تلك الامانة الا حينما كان مظاهرا للطاغية على عمه، وللاسبانيول على قومه، حتى اذا خارت قوى مناظربه واستسلموا الى العدو وظن الامر قد استتب له نزلت الصاعقة على رأسه وأخذ من حيث كان يرجو الامن وختم به ملك آبائه، وشقيت مئات من الالوف بشقائه، ولم ينج من المحنة سكان

البيازين الذين ظاهروه على غيه، وشاركوه فى فساد سعيه

وتأمل فيما قال المقري بشأن حصار مالقة تجده منطبقاً على الرواية الفرنجية لولا شدة الاختصار قال وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين وأتى اليها النصارى بالميرة ولما نزل باش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان مأسوراً عندهم فلم يلتفت اليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فارة وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش وارتحل صاحب قشتالة الى مالقة ونازلها براً وبحراً وقاتله أهلها قتالا عظيما بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم وطال الحصار حتى داروا على مالقة الخنادق من البر ، والسور والاجفان من البحر ومنع الداخل اليها ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار وحاربوا حرباً شديداً وقربوا المدافع ودخلوا الارباض وضيقوا عليهم بالحصار الى ان في ما عندهم من الطعام فاكلوا المواشي والخيل والحمير وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طاعمون فى الاغاثة فلم يأت اليهم أحد (ولكن عهدي بالنضال قديمُ) وأثر فيهم الجوع وفشا في أهل نجدتهم القتل ولم يظهروا مع ذلك هلعاً ولا ضعفا الى أن ضعف حالهم ، ويئسوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر، فتكلموا مع النصارى في الامان كما وقع ممن سواهم فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء وقيل لهم لما تحقق العدو التجاءهم : تؤمنون من الموت وتعطون مفتاح القلعة والحصن والسلطان ما يعاملكم الا بالخير اذا فعلتم وهذا خداع فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسرى وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ولم يبق فى تلك النواحي موضع الا وملكه النصارى انتهى

وفى هاتيك الايام خرج الزغـل بعساكره من وادي آش منقضا كالصاعقة على الاسبانيول فأجلب على الاطراف وشن الغارات في البسائط وقتل وأثخن وسبي وغنم وعاد بالاسرى والغنائم الى وادي آش ثم جمع فرديناند حشوده كلها في مرسية في ربيع ١٤٨٨ وزحف بها على ديار الاسلام فدخل فى طاعته نحو ستين بلدة الا المرية فان سالما قائدها هزم جيوش الطاغية فمال الى بسطة وكان الزغل قد وصل اليها ووضع كمينا في واديها فزحفت طلائع الاسبانيول فصدمها الزغل صدمة رئبال وبعد مقاتلة شديدة أخذ يتقهقر حتى أصبح الكمين من ورائها فلما حصلت بين الجيشين كر الزغل من ناحية ونفر الكامنون من أخرى وانقضوا على الاسبانيول انقضاض النسور فافنوهم بحد السيف ولم يسلم منهم الا القليل العمر فقدم الملك فرديناند للكرة فصدمه الزغل صدمة جديدة وعلا الصياح في الربي والوهاد «الزغل الزغل» فهلعت قلوب الاسبانيول فانهزموا ومنحوا القوم اكتافهم فتعقبهم المغاربة بالقتل والاسر فاهلكوا منهم خلقا كثيرا واجلت الواقعة عن مصرع الدون فيليب الارغواني من كبار أمراء أسبانية وغيره من الامراء ولم يرجع الزغل عنهم حتى وافاهم المدد فانصاع فرديناند الى نهر قريب وفرق كتائبه على المدن والحصون فخرج الزغل ودهم هذه المدن فلم يدع فيها اسبانيوليا فيه عين تطرف وافنى خلائق لا تحصى في قلعة نزار

وكان قائد قلعة قلار معتمداً على متانة جدرانه ومركزه من قمة الجبل محاطا بالاهاوي والاودية فغاب عنها فدهمها الزغل والسيف مشهور بيده فانهزم الاسبانيول من وجهه ولاذوا طراً بالحصن وكان لهم قائد مقدام

وكان قائد مجربا مقداما و للزغل فيه مزيد الثقة فاستدعاه من مكانه وأرسله الى بسطة بعشرة آلاف من شجعان المغاربة فتقوت بسطة بهذا العدد وبلغ مقاتلتها عشرين الفا عليهم ثلاثة من اكابر قواد الاندلس الاول محمد ابن حسن من أبطال عصره المشاهير والثاني حامد أبوحلى قائد الجند المخيم ببسطة والثالث قائد وجار وكان من روس القراد وكانت القيادة العامة لسيدى يحيى ولكن على الرأي كان لمحمد بن حسن لمزيد خبرته وبلائه وسداد آرائه وانحائه

وبسطة بلدة حصينة واقعة في واد خصيب متسع الارجاء طوله ثماني مراحل وعرضه ثلاث يسمى الهوية محاطة بسلسلة روابي اسمها جبل الكحل ويسيل في واديها نهران يسقيان أرضها والمدينة مبنية فى السهل لكنها محصنة من أحد طرفيها بوعر الجبل وبقلعة متينة ومن الطرف الآخر بسور مكين عليه أبراج شاهقة ولها ربض الى جهة السهل فيه حصون وأبراج وفي مقدمة هذا الربض غوطة أشجار مسافتها مرحلة مشتبكة السرح فينانة الدوح كأنها أجمة واحدة تدور عليها المياه باقنية متشعبة تسقي جميع غياضها وفيها مئات من الابراج متفرقة فى البساتين فكانت هذه الغوطة بما فيها من اشتباك الشجر وكثرة مجارى المياه وعدد الابراج والحصون تجعل مقترب تلك المدينة في غاية الصعوبة

فعند ما قصد جيش الطاغية نزال بسطة اخذ أهلها يتأهبون للمقاومة ويعدون ما استطاعوا من قوة فحصدوا زروعهم قبل أن يستدرك الحب في السنبلة وادخروا لمؤونتهم جميع ما وصلت اليه أيديهم فكنت ترى اقاطيع المواشي تباعا داخلة من الابواب والبهائم موقرة احمالا من

المؤن والميرة والسلاح والكراع من كل نوع فيمكن أن يقال على وجه التقريب ان بسطة أخذت عدة لحصار خمسين شهراً ولما اناخت عساكر فرديناند بساحة الموقع اشتدت الحركة في البلدة وازدادت الجلبة من قرع الطبول وتقليب السلاح وجاء فرديناند فضرب خيامه في الوادي بين البساتين وبعث الي أهل المدينة يدعوهم الى التسليم على شروط موافقة لهم ان انقادوا الى ذلك منذ البداية ويؤكد لهم أنه لا يرفع الحصار ولا يفرج عن البلدة ابداً حتي يتمكن منها، فعقد قواد المغاربة مجلساً حربيا وتشاوروا فيما يجاوبون به ملك الاسبانيول وكان سيدى يحيى قد استاء من انذار فرديناند فاراد أن يجاوبه بان حامية بسطة لا تسلم ابدا ولكنها تقاتله حتى تفنى جميعاً تحت انقاض السور فاجابه محمد بن حسن ان لا فائدة لنا من هذا الجواب فلنجتهد ان يكون في فعلنا ماينقض اعلان الطاغية وان نزيد فصاحة العمل على فصاحة القول وهكذا فقد أرسلوا الى الملك فرديناند جوابا في غاية اللطف والايجاز يشكرونه فيه علي عرضه التسليم بشروط خفيفة لكن يعتذرون له عن الرفض بكونهم اؤتمنوا على المدينة ليحافظوا عليها لا ليسلموها

فعند ما أخذ الملك جوابهم شحذ غرار العزيمة وعوّل على التضييق والاخذ بالمخنق فتقدم بحملته صوب السور لاجل تمكين المحرقات من البلدة وأوجف بخيله ورجله وتغافل الاسبانيول في البساتين ليتخذوا مركزا يمنعون فيه المغاربة من الخروج وانتشروا في أطرافها وكان الشبان الاغرار منهم متقدمين كأنما يوفضون الى اعراس الا أن أهل الحنكة والتجربة كانوا يرون في كل خطوة بين تلك الغياض خطراً، وأما صاحب

وفرديناند ينتظر بذاهب الصبر نتيجة المصاف وهو في غاية القلق والجزع لا يعلم شيئا مما وراء هاتيك الاشجار الحاجبة لنور الشمس فكان يسرب البعوث وتنجدات الي المواقع التى يخشي فيها الدائرة على قومه واجلت المعركة عن مهلك الدون جويان دولارة من أفراد ناشئة الاسبانيول وأعيانهم وأحبهم إلى قلب الملك ، وكان قد اقترن حديثا بالدونة كاتالاينة دو أوريا من أبدع فتيات عصرها

وأما من الجهة الثانية فكان القائد محمد بن حسن وحوله جماعة من القواد مراقبين حركات القتال من فوق الاسوار مدة اثنتي عشرة ساعة استمرت فيها المناجزة وكانت كثافة ورق الاشجار تحول دون رؤية التفاصيل فلم يكن يرى الا بريق الخوذ ولا يلمح سوى لمعان النصال، ثم أخذت تفد الجرحي فارتفع عويل النساء وكانت ضجة هائلة عند موصل جثة رضوان ذي الفرغى من متسلمة النصارى الذى صار من اعاظم قادة المسلمين ثم أخذ المغاربة يتقهقرون الى جهة المدينة وأمر فرديناند بنقل خيامه الي هاتيك الجهة وعندها طار محمد بن حسن الى نجدة سيدي يحيي واجتهد أن يزحزح الاسبانيول عن مراكزهم الجديدة لكن هجوم الظلام، حال بينه وبين المرام، فوقف متربصا مكانه ولم يدع للعدو راحة الليل بطوله، ولما أصبح الصباح كان مشهد القتال هائلا فالارض مغطاة بجثث القتلى تنبيء بلسان حالها عما احتملت من الحرب وأهوالها وهكذا أصبحت تلك الحمائل وهاتيك الحدائق مجر الدوالى ومجرى السوابق

ثم ان فرديناند ادرك حرج الموقف الذى ضرب فيه خيامه وشدة الخطر الحائق، فاجمع على تقويض خيامه منه لكنه قدم طائفة من جيشه تشاغل العدو

الى أن يتمكن من إعادة المعسكر إلي محله الاول فاغار سيدى يحي بقوة جسيمة من الخيل والرجال فلم يفز من المعسكر بطائل يذكر لكن رجوع المحلة الى المكان الاول جعل المغاربة فى منجاة من السوء عند الكر والفر نحو المدينة فعقد الملك مجلسا مؤلفا من كبار القادة واستشار فيما يفعل فاشار عليه مركيز قادس بترك الحصار موقتا بزعمه ان المدينة محصنة مكتفية في الميرة والذخيرة والسلاح وعدد المقاتلة لا يمكن افتتاحها الآن والجيش في تربصه أمامها معرض للمرض وإذا جاء الشتاء تعذر القتال وسالت الاودية وان من رأيه أن يعتاض عن الاصرار على منازلة بسطة باجتياح الكورة وافساد زرعها واطلاق الغارة على المدن والقري المجاورة إلى ان تكون تهيأت فرصة أخرى. وأما الدون غوتيارو دو كردناس امير لاره فذهب إلى أن رفع الحصار عن بسطة يتخذه العدو دليلا على الضعف ويزيد المغاربة جرأة ويستأسد به الزغل وربما يكون سببا لانتقاض أهل غرناطة على أبي عبدالله وميلهم اليه فهو يرى الافراج من سفه الرأي، وكان الملك متردداً بين أن يقلع أو أن يقيم تارة يتصور المشاق التى ستحيط بعسكره خصوصا فى جلب الذخيرة فيميل على رأى صاحب قادس وطوراً يتأمل فيما يترتب على الانصراف من استغلاظ أمر العدو فيميل إلى رأي أمير لاره، وبلغ الجند ماكان من تشور الملك واهتمامه وعزمه على الرحيل ضنا براحتهم فقاموا يطلبون الاقامة في ساحة البلد إلي أن يتم لهم فتحه ولما تضاربت الآراء بعث الملك يسأل الملكة رأيها بمكانها من جيان وكانت بينهما بُرُد مرتبة ذات مراكز يقوم أصحاب كل مركز منها بقطع المسافة التى تخصه بحيث تصل الرساله في عشر ساعات فاجابته انها تترك قضية الاقامة أو

لكن فرنسيكوا دوبازان وانطونيو دوكويفا لم يوافقاهم على الفرار بحجة أن المشاة الذين معهما لو فروا لاستاحمهم العدو وان المقاومة هي أنجى لهم في تلك الحال فاختلفت الآراء بينهم وأراد القواد حسم النزاع فأمروا حامل الراية أن يتقدم فتوقف وكاد القوم يولون الادبار فتقدم فارس من الحرس الملكي اسمه هرناندو بيرز دلباغار قائد حصن سالار ورفع منديلا كان متلثما به على حسب عادة أهل الاندلس وعقده برأس الحربة ونادى أصحابه فدبت الحمية برءوسهم وكروا بقلب واحد وصدقوا الحملة فانكشف العدو دون انتظار وقتل نحو ثلثمائة من المغاربة وأسروا جماعة وقفلوا ظافرين فكافأ الملك هرناندو المذكور بلقب فارس وأجاز له رفع ذلك المنديل في مواطن قتاله

وبينما كان الزغل ينتظر اياب أصحابه بالغنيمة اذ رآهم راجعين فرقاء مغلوبين حزقاء فرأى الاقدار معاكسة له والدهر قد قلب ظهر المجن بما كان يترامى اليه من أخبار بسطة وهلاك قسم كبير من حاميتها واشتداد الكظام باهلها، ولم يكن في وسعه أن يخف اليها بذاته خوفا من أن يقتحم تلك الفرجة ابن أخيه من غرناطة فيسلبه ملكه فكان يبعث اليها بالمدد بعد المدد لكن الاسبانيول كانوا يلاقون الامداد فيقفلونها قبل الوصول الى المدينة مع ذلك بقيت حالته أجمل من حالة ابن أخيه السلطان أبي عبد الله لانه حفظ لنفسه هيبة سلطان ذى صولة وصاحب دولة

وأما ابن أخيه فكان ملكا تابعا للملوك قشتالة وحزب القتال في غرناطة لم يكن ليساوي بين المجاهد المرابط المثاغر والخائن الخاضع الخانع لغير أهل الدين، واخبار بسطة كل يوم تنكأ قلوبهم، وتفت في

To: www.al-mostafa.com

اعضاءهم ، حتى تعشت المراسلات فيما بينهم في الوثوب على الحمراء وقتل أبي عبد الله والنفو من غرناطة حزبا واحدا الى وادي آش ومنها الى بسطة للافراج عن المحصورين ، لكن لحسن بخت أبي عبد الله وسوء طالع الاندلس عرف هذا الملك بالكيدة فضرب أعناق رؤساء الحركة ورفع رؤوسهم فوق جدران الحمراء، فانزل بذلك الرعب في القلوب، ولم يبق في غرناطة عرق ينبض لثورة، واحس فرديناند بما كان في عزم الغرناطيين فأراد حذره وضاعف القوة ووضع المحارس وبث العيون والروادوأخذ يظاهر لاهل بسطة كل يوم من القوة بمظهر جديد، وهم ينتظرون النجدة ولا يحضر لنصريخهم أحد حتى يئسوا وغلب عليهم القنوط فاراد محمد بن حسن أن ينبه عزائمهم ويحيي آمالهم، فقال لسيدي يحيى لزم أن نظهر للعدو اننا لم نهن ولم نزل على عزمنا وقوتنا فجمع جيوشهم وخرج بقوة عظيمة فالتقاهما فرديناند بجموعه وهدرت طبول الحرب وتزاحفت الصفوف من كل جانب واستماتت كتائب المسلمين فانكشف الاسبانيول ووقع الخلل في مصافهم، ولم تتم عليهم الهزيمة لوفرة أعدادهم وسعة محلتهم فقفل المسلمون بالغنائم ودخلوا البلد ظافرين ومن ثمة أخذوا يرسلون الجنود من جهة الجبل فيهبطون السهل كالمح البصر ويثمنون المواشي ويعودون بها الى بسطة، وجرى خلال ذلك وقائع متفرقة شديدة امتاز فيها بين الاقران الدون الونزو دراغيلار

ومما يروى أن أحد فرسان الاسبانيول المسمى مارتين غالة وشاهد لمغيب الشمس فارسا مغربيا شديد الصولة باهر الفتك يحمل على الاسبانيول فلا يقف في وجهه فارس الا جدله، ولا يساوره قرن الا صرعه، فتعدى غالة لندو ببراذونه فتصاولا وتجاولا ساعة فجرح المغربي في وجهه وانقلب عن صهوته

فقبل أن يقحم الاسبانيولي جواده ليفتك به كان المغربي نهض على رجليه واستل حربته فاعجله بجرح في رأسه، ومع كونه على رجليه وكون قرنه راكبا كاد لشدة بأسه وخفة حركته يورده حتفه لولا اسراع رفاق للاسبانيولي بنجدته. فعندها أخذ المغربي يتقهقر رويداً رويداً الى أن صار بين أصحابه. فسئل عنه فاذا به من عشيرة بني سراج. ولما كان الوجه في أكثر هذه المبارزات الفردية للمغاربة شدد الطاغية في منع قومه عن قبول هذا البراز وحظر عليهم المناوشات الخاصة لعلمه اليقين ان المغاربة اقوم من كل شعب في الارض على هذا النوع من القتال وانهم أدرى بالارض وأهدى فيها سبيلا

قالوا وبينما كان الاسبانيول يحصرون بسطة اذ شوهد في المعسكر أثنان من أجلاء رهبان الفرنسيسكان الواحد منهما ذو هيبة وهيئة ووقار عظيم راكب جوادا كريما بسرج مذهب والآخر متصاغر متضائل يسعى وراء الاول راكبا مكة بسرج خالٍ من الزينة، وكان دائما مطرقا في الارض ماشيا القصد خافض الجناح، فلما شوهد هذان القسيسان في الجيش تكلم الناس في مجيئهما، على انه كان معهوداً حضور الرهبان في هاتيك الحروب المقدسة، فطالما اجتمعت الخوذة والقلنسوة تحت راية واحدة فظن من البداية أنهما من الرهبان المجاهدين لكن فُهم أخيراً أنهما قادمان من الاراضي المقدسة برسالة مهمة. أما صاحب الوقار والتصدر وعلو النغمة فهو الاب انطونيو ميلان رئيس دير الفرنسيسكان في بيت المقدس كان ممتلىء الجسم جهير الصوت طلق اللسان ذا أساليب خطابية كمن تعودان يقول في الناس ويسمع له الناس، وأما رفيقه فكان صغير القد مختصر الجرم مصفر اللون لين الحديث خفي الاشارة خافت الصوت وكان من التواضع وخفض الجناح على. اينبغي أن

سلمتهما غشاء باهر النفاسة مطرزاً بيدها الملوكية لوضعه على القبر المقدس
قال الكاتب الانكليزي الشهير واشنطون أرفن: ولم يذكر الاب أغابيدا مؤرخ هذه الوقائع نتيجة الرسالة التي وفد بها ذانك الراهبان وهي انه فيما بعد أزعج فرديناند وايزابلا المؤرخ الشهير بطرة مارتير انغلريا سفيراً الى الشرق لدى صاحب مصر أو بحسب قولهم السودان لاعظم فايدي من الحذق والمهارة بتلك السفارة ما أقنع به ذلك الملك الشرقي واستجلب به ميله وفاز منه بايثار غرضه وحصل على أوامر برفع كثير من المغارم عن زوار القدس الشريف ولبطرة المذكور رحلة شهيرة في بلادهم ضمنها جما من الفوائد والنوادر (١)

هذا وبقي الحصار مستمراً على بسطة ونفير فرديناند وايزابلا ينبعث الى آفاق اسبانية فتكثف الجيوش وتتوارد المقاتلة من كل فج ولم يكن الهناء كله في جمع الاجناد بل بازاحة علل هم توفير أقواتهم، ولم تنحصر النفقة في الجيش المقاتل وحده بل كان يلزم الملك وامرأته تسريب لذخيرة لجميع المدن التي دخلت في حوزتهما وكماية حماتها الماسبق أخذها من الاكتساح والعيث الذى غادرها كجوف العير فرتبت الملكة الوفا من البهائم لنقل الاقوات وجعلت عليها خفارة وافره لصد غارت المغاربة في الطريق وأقامت توصل الامداد صباح مساء ولما فرغت خزينتها من النقد استعانت باعيان البلاد والبطارقة فقدم كل منهم ما وصلت اليه يده من النقد وبعضهم قدم ما عنده من الحلي والجواهر وباع الاساقفة آنية الكنائس واستنزفوا

(١) لا يوجد حل لهذه المسائل الا بوجه واحد وهو ان الشرقيين اكرم اخلاقا من الغربيين وان قاعدة « اذا ملكت فأسجح » لا تعرفها اوربا

لا يرحلان إلا بتسليم بسطة مالوا الى التسليم وتمشت رجالات الاسبانيول بالصلح فحضر الدون غوثيار دو كردناس واجتمع بالقائد محمد بن حسن وقال له باسم الملك انه ان سلم أهل بسطة الآن يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وحرية اعتقادهم والا فان أصروا على المقاومة لم يأمنوا أخيراً لا على دم ولا على مال ولا على دين محمد، وذكره بما أصاب مدينة مالقة فراجع سلطانهم الزغل في ذلك وكتب له سيدي يحيى كتابا وأرسل به القائد محمد بن حسن فلما وصل الى وادي آش وجد السلطان منقطعاً في جهة من قصره يتأمل في سوء بخته وما آلت اليه الاحوال فسأله عن حال بسطة فأجابه تفهم من هذا الكتاب ودفع اليه كتاب سيدي يحيى فقرأه حتى أتى على آخره وعرف اضطرار البلد للتسليم وما عرضه عليهم الطاغية من الشروط الموافقة ولم يخالج صدره أقل ريب في كلام سيدي يحيى لما كان عليه من الثقة فيه والتعويل عليه وخلطه بنفسه كأنهما شخص واحد فتنفس الصعداء وتوجع ملياً وأخذ يفكر فيما يعمل مطرقا ساعة ثم أمر فحضر الفقهاء والشيوخ وتشاوروا فيما يفعلون فاجلى المجلس عن تعذر امداد بسطة بشيء فاستدعى الزغل قائد بسطة محمد بن حسن وقال له اذهب الى ابن عمي سيدي يحيى وقل له لا ينتظر مني نجدة لانني لا أقدر على تلبيته بشيء فليفعل مايبدو له فعاد القائد بالجواب وكان أمراً قضياً لان قواد بسطة تصالحوا مع فرديناند على أن يدخل البلد وينال الجميع الامان ويخرج من جاء في صريخ بسطة من فرسان المغاربة بخيلهم وامتعتهم الى حيث شاءوا ويكون تسليم البلدة والقلعة في ستة أيام وأما أهل بسطة فلهم الخيار بين أن يرحلوا باموالهم أو أن يقيموا بالربض متمتعين باملاكهم وحريتهم

المواقع والحصون فحضر في جملة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم وانقلبوا بالصلات والجوائز وكان شامخ الانف شديد الزماتة والوقار فلما وصل الدور اليه خاطب الملكين بحرية الرجل العسكري وان كان لم يستطع اخفاء يأسه وانكساره فقال لهما « أنا رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبرشنة قد تسلمت هذه الحصون لاجل محافظتها لكن الذين عهد إلي بقيادتهم فقدوا كل نهضة وقوة وعادوا لايطلبون سوى الامان فهذه الحصون أصبحت أيها الملوك العظام لكم متى شئتم ابعثوا من يستلمها » فأمر فرديناند في الحال باعطائه مبلغا طائلا من المال جزاء هذا التسليم الجزيل القدر فامتنع من أخذه منكراً ذلك انكاراً شديداً وقال لهما أنا لم آت لابيع ماليس ملكي بل لاسلم ماجعلته الاقدار الالهية ملكا لكما وليكن يقينا عند جلالتكما انه لو وجد من يسعفني كما يجب لكان الموت هو ثمن هذه الحصون بدلا من الذهب الذي يعرض علي »

فاعجب الملكان بانفة هذا القائد وشهامته وأمانته وتمنيا أن يكون منتظماً في جملتهم ويدخل في خدمتهم فأبى خدمة أعداء ملته وقومه ولما يئسا منه قالت له الملكة إيزابلا إذا لا يوجد لك حاجة نظهر لك بقضائها مالك في جانبنا من الاعتبار، أجابها بلى حاجتي عندكم أنني تركت في المدن والحصون التي سلمتها كثيراً من بني ملتي البائسين الذين لا يتيسر لهم الرحيل عن أوطانهم بنسائهم وأطفالهم فأرجوا أن تعطوني وعداً ملوكياً بحمايتهم واطلاق الحرية لهم في دينهم وأملاكهم، فوعداه بذلك ثم، قالت له الملكة وهلا تطلب شيئا لنفسك قال كلا سوى الاذن في الاجازة بخيلي ومتاعي فأراد الملكان أن يجبراه على قبول صلتهما من المال مع الخيل الثمينة الـ روج

الطعام في الاسواق وابدوا للعدو القوة مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عين ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس وعند تحققهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الامان على أنفسهم دون من أعانهم من أهل وادي آش والمنكب والمرية والبشرات فازدفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الامان وإلا فلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا وطال الكلام وخاف أهل البلد من كشف الستر فاتفقوا أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات ففعلوا ذلك ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو على شروط شرطوها وامور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم وقبض الخواص مالا وحصلت لهم فوائد. وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها ولم يعلم العوام كيفية ماوقع عليه الشرط والالتزام وقالوا لهم من بقي بموضعه فهو آمن ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالما ثم أخرج العدو المسلمين من البلد وأسكنهم بالربض خوف الثورة »

وكان الزغل قابعاً في كسر بيته من وادي آش يسمع كل يوم صريخاً ويرنّ في اذنه كل ساعة صدى ويل، وبلاده تسلم الواحدة بعد الاخرى الى العدو، والاقدار تعاكسه اطراداً، والضربات تنهال عليه دراكا، وفي هذه الحالة قدم عليه ابن عمه سيدى يحيى عدوا في ثياب صديق، وبعيدا في صفة قريب مشارك في الهم والدم، ولم يكن الزغل علم بتنصره اذ بقي ذلك سرا فارتاح جدا الى رؤية ابن عمه في ذلك الوقت الضيق ولما أقبل عليه عانقه لزاما وضمه الى صدره وبثه همه فأخذ سيدى يحيى توطئة لما يتوخى من خدمة الطاغية يبين له اليأس من الحالة وعقم الدفاع من الفائدة لما هو مقدر

من سقوط مملكة غرناطة بين أيدى النصارى، وان المنجمين لم يكذبوا فيما حكوه عن أبي عبد الله الشقي وان السقوط سيكون على يده وانه لما أسر في لشانة كان تبادر للظن انها هذه الواقعة التى أشار اليها المنجمون وان النحس قد انقضى فظهر الآن أن ليس المقصود واقعة مفردة بل وقوع المملكة باسرها، فحيث كان أمر الله قدراً مقدوراً لزم التسليم لمشيئته تعالى واذ وقع القضاء فليس الا التسليم والرضى. فاطرق الزغل ساعة وهو غريق في لجج الهواجس والاشجان، ذاهب من التأمل والتألم في بحران، ثم رفع رأسه وكبر وحوقل وقال ليس من القضاء مفر. (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) تالله لو لم يكن سقوط غرناطة قدراً لكان سناني وحسامي زعيمين بحفظها

فقال له سيدى يحيى وماذا استقر فى عزمك الآن هل أجمعت تسليم المدن الباقية لك الى ابن أخيك أبي عبد الله حليف النصارى فلما سمع الزغل ذلك اضطرب كله وقال له كلا بل أفضل ان أرى رايات العدو خافقة فوق هذه الابراج من أن أسلمها لهذا الشقى فاغتنم سيدى يحيى فيها الفرصة، وأخذ يرغبه فى التسليم ويحسن له الانحياش الى الطاغية والدخول فى ذمته، الى أن حصل أخيراً على موافقته، فانقلب الى الطاغية بما أراد وتقرر تسليم المرية ووادى آش وسائر البلاد التى فى يد الزغل وأن يكون الزغل لقاء ذلك حليفا للملكين ويقطع أرضاً واسعة فى البشرات مع نصف الملاحة ويلقب بملك اندرش ويكون الفا مدجن رعية له، ويتمتع بدخل أربعة ملايين مراويد هذا الى مواعد كثيرة

وتقرر بينهما على أن يكون التسليم في المرية ففى سبع عشرة خلت من دسمبر تحرك الملك فرديناند من بسطة بقسم من جيشه وتبعته الملكة

لرجاله وعدته ودفع بالتي هي أحسن ثم أخذ برج الملاحة وغيره وبناه وحصنه وشحن الجميع بالرجال والذخيرة وأظهر الصلح والصحبة مع صاحب وادي آش وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرا منه وخداعا ودهاء » انتهى

وأما صاحب غرناطة الشيقتو فلما وصل اليه خبر نزول عمه على حكم الطاغية طار فرحا وظن انه بالغ امنيته وانه من الآن فصاعدا أمن النزاع واصبح بدون مناظر وتمكن سلطانه بتمكين ملك الاسبانيول الذي هو حليفه الى غير ذلك من الاماني الكواذب التي قلما تخطر الا في بال امثاله ممن يضيعون مثلما أضاع وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمه لولا أن وزيره يوسف ابن كماشة نبهه من غفلته وأصحاه من نشوته وقال له أفق فان الزوبعة كانت في أفق واحد فسنتقل الى أفق آخر مع هذا لم يقنع لحماقته وسخفه وأمر فاسرج له جواده وخرج للنزهة فسمع باذنه كلام السوء في حقه وأيقن بغضب العامة منه اذ كانوا يعتبرون الزغل هو السلطان المجاهد المرابط الحامي ذمار الملة وانه ماسيق الى ماسيق اليه الا اضطرارا مظاهرة ابن أخيه للعدو عليه فأسرع ابو عبدالله الاوبة الى قصره وأرسل الى فرديناند يستدعي نجدته خوف الانتقاض فاجابه فرديناند يطلب النزول له عن غرناطة ويذكره بالعهد الذي عقده معه بعد أسره بأنه عند مايتمكن من وادي آش وريه بسطة يمكنه الحمراء من وهوذا قد تمكن فيتقاضاه الوفاء بالعهد الذي عاهده إياه فاجابه ابو عبد الله ان ذلك قد كان منه ولكن حيث أصبحت غرناطة مجمعا لجالية المسلمين من جميع أقطار الاندلس وملجأ للشذاذ والمشردين من المدائن التي دخلت في حوزة

الاسبانيول وقد غات في صدور الجميع مراجل الاحنة واستوفزوا للاخذ بالثار فان داخلهم في طاعة الملك فرديناند الآن انتقضوا عليه واستهدف للخطر المحيق فهو يلتمس المهلة لاجل سكون ثائرهم وانطفاء وقدتهم ومن ثمة لا يبقي مانع من القيام بماعاهد عليه

فلم يقنع الطاغية من جواب أبي عبدالله وقلب له ظهر المجن وكشر له عن ناب العداوة وارسل الى أعيان غرناطة والقواد يعرض عليهم تسليم القلاع والنزول عن الحمراء وهو يفي لهم في مقابلة ذلك بشروط الامان ويعاملهم بماعامل به أهل وادي آش والمرية والا فان حدثتهم انفسهم بالمقاومة وأصروا على الجفاء سار معهم سيرته مع اهل مالقة فمال جماعة التجار وارباب الاشغال الذين يدور نجاحهم على السكون الى رأي التسليم وتابعهم فيه من خاف في عياله مغبة الحرب وعاقبة الخذلان ولكن كانت غرناطة لذلك العهد قد غصت بالمطرودين والموتورين الواردين عليها من كل اوب قدملأ الضغن قلوبهم وغلا الثار في صدورهم ووطن اليأس نفوسهم على الاستماتة وقد شحنت بالمقاتلة واحلاس الحرب وانجاد الغارة ممن ولدوا على صهوات الجياد، ونشأوا في معامع الجهاد، وممن لاحرفة لهم سوي الغزو والمرابطة، وكان فيها آخرون وان لم تكن الحرب حرفة لهم يرتزقون منها فان همهم العربية تأبى لهم وحميتهم الاسلامية تربأبهم من أن يستسلموا للعدو صاغرين ويروا غرناطة الحمراء قبة الاسلام في الاندلس العهد الاخير وحضرة العز ومتبوأ المنعة مئين من السنين والمصر الذى يموج بجموع المؤمنين قد رطنها الطاغية بقدم استيلائه، وقادشمها بزمام استعلائه

واتفقت تواريخ الافرنج على انه كان واسطة عقد هذه الطبقة المجلي

والاستعداد للحركة، وقام موسى بن أبي الغسان من الجهة الثانية وقد حف به فتيان سراة غرناطة وتبايعوا على الموت تحت لوائه وتقرت فرسان المسلمين من كل أوب، وماجت أسواق غرناطة وساحاتها بالحشود، وملأ الآفاق صهيل الخيول وموسى روح الجهاد ومحط الآمال وقبلة الخواطر وحياة نفوس المثاغرين، واسمه الرعب الخيق بأقاصي الثغور

فلما أخذ الاسبانيول يشنون الغارات خرج الامير موسى فرسانه فوالى عليهم الهزائم، وصارت خيوله وسراياه تعود الى ثغرها، وتدخل غرناطة دخول الظافر، مما أعاد الى خواطر القوم ذكر الايام الماضية وحدتهم بعود عز الاسلام وايام غلبته على تلك الاقطار، ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال وأقبل الربيع فقال الطاغية علينا أن نفتاح هذه السنة كور غرناطة وفي التي بعدها نهاجم البلد بعد أن يكون قد انقطع المدد، فخضر بخمسة آلاف فارس وعشرين ألف ماش وأخذ يكتسح مرج غرناطة البديع النضير المنقطع النظير معه من أمراء بلاده دق مدينة سيدونة ومركيز قادس ومركيز فيلنه والدون الونزو دواغيلار وغيرهم من رؤوس قوادهم فشمل تلك المروج عيثا وتخريبا وبعث النار في جميع ارجائها حتى غطى الدخان الافق وأظلم جو غرناطة من دخان شجرها هذا وأبو عبدالله لا يجسر على الخروج من حمرائه خوفا من فتك العامة به، لقولهم انه هو وسبب هذه المصائب، لكن موسى قسم فرسانه الى عدة كتائب وعقد على كل كتيبة لواحد من آحاد القادة وأطلق الغارات على أطراف معسكر الاسبانيول فأبلغ فرسانه الكفاية، وربما عمد لكثرة حشودهم الى الخدعة والمكيدة أحيانا، ففي إحدى المرات بينما كانت قطعة من الجيش الاسباني سائرة في سفح جبل إذ التقت بجماعة من المغاربة

تقهقروا أمامهم فطمعت فيهم حتى نشبت بين صخور فانقض عليها المغاربة من وراء الجندل فاستلحم الاسبانيول وفر منهم جماعة وصبرت جماعة بقيت تقاتل فى أرضها واذا بخيل الاسلام قد أطلت منقضة انقضاض العقبان فحصلت فى وسط الاسبانيول وحمى الوطيس وكان مركيز فيلنه وأخوه الدون الونزو دوبشيكو فى بهرة المعمعة فما غنم أن جرح المركيز وخر الدون الونزو صريعاً وبجانبه اصطفان دوسوزون من صيابة القواد وضاق الخناق بالاسبانيول وشاهد الملك أن الوجه المغاربة وأن جماعته هالكون لا محالة فأمرهم بالرجوع فلم يتريثوا فى تلبية أمره وانكفؤا خاسرين بعد دفاع شديد

ولما رأى فرديناند أن مناجزة المغاربة خصوصا فى هذه المناوشات الخاصة تعود غالباً بالخسران على عسكره أصدر أمره الصارم باجتناب القتال معهم والاعتماد على العيث فى بلادهم واكتساح أراضيهم واستئصال أسباب القوت ليأخذ غرناطة بالمجاعة بدل الحرب

وكان على مسافة مرحلتين من غرناطة حصن يقال له حصن رومة من فوق هضبة مشرفة على المرج وكان فى مكانه أعز من الابلق يقصده الملتجئون من المغاربة والشذاذ منهم وفل العساكر اذا انهزمت وهو شجا فى حلوق الاسبانيول فلما كان الطاغية نازلا على مرج غرناطة ازدادت يقظة حراس الحصن وفى صبيحة يوم بينما كانوا ينظرون الى بعيد مراقبين حركات الطاغية اذ تراءى لهم عمائم عجراء واسنة مغربية ولم يكن غير قليل حتى وصل حذاء القصر نحو مائة وخمسين مغربيا معهم قطيع من المواشي مسرعين مهطعين وتقدم منهم عريف عليه سيماء الشرف والنباهة فالتمس الدخول قائلا انهم كانوا فى غارة ببلاد النصارى وقد غنموا منهم

ففي أحد الايام ساقت الزغل عمايته في بغض ابن أخيه الى النزول من اندرش بمئتي مقاتل والانضمام الى عسكر الاسبانيول فلما رأى المسلمون راية الزغل بين رايات ملوك النصارى تحققوا انحياشه للطاغية فألحقوه بسيدي يحيي في المنزلة عندهم وعلت عندهم مكانة ابن أخيه حينئذ ونوهي باسمه في الاسواق وهتفت الاصوات بالدعاء له وعقدت به الآمال فتنفس عمل عمه ونشط السلطان ابو عبد الله للحركة واعمل في الجهاد بما رأى من اقبال قومه عليه

وبعد أن لبث الطاغية شهراً كاملا يعيث في مرج غرناطة حتي أخنى على نضارته نقل الى قرطبة من طريق الجبل فتوارى عن العين حتي نهض ابو عبد الله متقلداً سلاحه وامتطى جواده ونفر واستنفر فالتفت عليه فرسان غرناطة وخفت اليه سكان جبال البشرات الموصوفون بشدة البأس وماجت ساحات الحضرة بالحشود وتبايع الناس على الموت وتبارى الفرسان في ميدان النزال يقدمهم الامير موسى بن أبي الغسان وهو روح النهضة وسيف العزيمة والفجر الصائح بليل الملمة

فخرج السلطان من الحمراء في ١٥ حزيران ودهم حصن همدان على بضع مراحل من غرناطة وهو من أعز حصون النصارى يحرسه مائتان وخمسون مقاتلا من أبطالهم معقوداً عليهم لفارس مغوار اسمه مندو دو كويشاده فأناخ بساحته السلطان ستة أيام وست ليال يغاديه القتال ويراوحه حتى هلك أكثر حاميته وسلم الباقون فدمر السلطان الحصن وجعله دكا وارسل الاسري إلى غرناطة .

ثم استولى أبو عبد الله على حصن مارشنة وحصن بلدة من حصون

النصارى وشاع بين المسلمين أن السلطان أنحن في النصاري وافتتح من معاقلهم وأن الكرة مأمولة، فقويت عزائمهم ولاحت لهم بارقة الامل وانتقض الخاضعون منهم للطاغية ناشرين راية ابي عبدالله واخذ خيالة غرناطة يغزون أرض النصارى من جهة ثغر جيان ويغنمون منهم الا انه مرة بينما كان بعضهم عائدين بغنيمة وافرة كمن لهم كونت تندلة في أحد الاودية فذعروا وقتل منهم خمسة وثلثون فارساً وأسر نحوا من خمسين واستعاد الكونت الغنائم وبقيت سرايا الفريقين يغزو بعضها بعضا فرأي السلطان أبو عبدالله ان بقاء الحال على هذا المنوال لا يزيده قوة وانه بعد أن جرى ماجري من حطم الزروع وقطع الاشجار ونسف العمران حول عاصمته لابد أن يؤخذ بالجوع ان لم يؤخذ بالحرب ففكر في فتح طريق بينه وبين البحر والاستيلاء على فرضة بحرية يتسرب منها اليه المدد حيث كانت جميع موانى الاندلس في ايدى النصارى فوجه عنايته نحو شلوبانية وهي مدينة كانت ممدودة عند العرب من أحصن مدن الارض وأصعبها مرتقى وكان ملوكهم يستودعون فيها خزائنهم وكنوزهم وكان الطاغية لذلك العهد قد جعلها لنظر الدون فرنسيسكو راميرز دو مدريد قائد المدفعية الاكبر لكنه كان عند زحف أبي عبدالله اليها غائبا في قرطبة ينوب عنه في القيادة أحد فرسانه فانتهز الفرصة سلطان غرناطة ونازل شلوبانية بجيش جرار وكان أهلها من المدجنين فلما رأوا رايات الاسلام قد اقبلت انضووا تحتها وخلعوا طاعة العدو ورأت حامية البلدة من النصارى انها لا تقدر على مدافعة ابي عبدالله فاعتصمت بالقلعة فدخل المدينة واستولى عليها وامتنعت عليه القلعة فنازلها وطمع في منع الماء عنها وامتد الصريخ في الجوار بان المسلمين

منازلون شلوبانية فامتلات قلوب نصارى الساحل رعباً وكان الدون فرنسيسكو انريك قائد بلش مالقة فجمع جيشا فيه فرناندو بيرز دلبلغار صاحب المنديل وحضر لاغاثة قلعة شلوبانية فوجد المدينة في ايدي المسلمين فخيم تجاه القلعة فاشتد به ازر الحامية وانساب فرناندو سرا بسبعين من أشداء رجاله فتسلقوا القلعة من باب صغير قبل أن تمكن العدو من الشعور بهم ولم يلبثوا أن حضر الى الميناء اسطول فيه جنود وعون لاغاثة النصارى فنزلوا في مكان حصين على شاطيء البحر ولما نازل المسلمون القلعة صاروا بين عدوين فارتدوا عنها وعزل ابو عبدالله على أخذ ميناء حمدرة الذي كان سلمه الى النصارى سيدي يحيى السابق الذكر فيما تزاف به اليهم من الخيانة لانه بلغه كون الملك فرديناند زاحفا بعساكره فهاجم القلعة الهجوم الاخير فلم تمز منها بطائل فاقلع عن شلوبانية عائداً الى غرناطة واشتغي في مسيره بالعيث في الاراضي المختصة لسيدي يحيى والانتقام من جماعته ورجال عمه الزغل ودخل الحمراء بغنائم كثيرة تسلى بها عن فشله امام شلوبانية ولم يكد يستقر في مقعده بالحمراء حتى وصل الطاغية بجيش مؤلف من سبعة آلاف فارس وعشرين الف راجل بقصد اغاثة شلوبانية فلما بلغه اقلاع ملك غرناطة عنها مال الى المرج فاستقصى جهاته تخريبا وتدميرا واستأصل أشجاره وافسد زرعه حتى قيل انه لم يبق فيه غصة اخضر ولا نعجة تسرح بفنا هو مرج أخضر ذات القلب قفرا اغبر، ودافع اهل غرناطة عن حياضهم ورياضهم فلم يجدهم دفاعهم، لانتشار العدو في بقاعهم، والتزامهم الاكماش في مدينتهم محافظة على اسوارها

وفي تلك الايام كشف النصارى مكيدة دبرها أهل وادي آش والمرية

وكان السلطان أبو عبد الله الزغل قد يئس من الحالة التي آل اليها وتكاده الهم واشتدت عليه وطأة الاحزان مما جرى له من فقد الملك ، وانتشار السلك، والنزول عن عرش سلطنة الى رتبة شيخ قرية بل كان أهل أندرش ابتدأوا ينشزون عليه وبعد لحاقه الاخير بجيش الطاغية أصبح اسمه ممقوتا عند كل المسلمين، وصار رديفاً للعنة اللاعنين، فضاقت مذاهبه وعول على الرحيل من الاندلس، فقدم على الطاغية وطلب منه المساعدة في الاجازة وعرض عليه شراء أملاكه الواسعة بثمن بخس وكانت نحو ثمن ثلاث وعشرين بين مدينة وقرية في وادي أندرش والهورين فاعطي بدلها خمسة ملايين من السكة المعروفة بالمراويد ووهب حصة في الملاحة وأماكن اخر لابن عمه سيدي يحي وشد حقائبه وأجاز الى افريقية

فلما وصل الى افريقية أخذه سلطان فاس والقاه في السجن وبعد ذلك سمل عينيه بدعوى إنه كان السبب في بلايا مسلمي الاندلس وذهاب غرناطة من اليد استصفى أمواله واستبد بخزائنه ولعل هذا هو السبب في نكبته ثم خلى سبيله فروى مؤرخو الفرنجة أنه التجأ الى أمير باش غمارة وكان صديقا له فاشبعه من جوع وآواه من قفر ولطف مصيبته بقدر الاستطاعة حتى إذا مضى هذا السبيله لم يبق له مغيث ولا ناصر فهوى ثانية في وهدة الذل والفاقة، وقيل إنه آل أمره أخيراً الى أن يستعطى في الاسواق ويطوف وعلى ثيابه رق غزال مكتوب عليه « هذا سلطان الاندلس العاثر الجد » وهذا مخالف لرواية نفح الطيب كما سترى عند ذكره جواز الزغل

هذا وبعد أن عطل فرديناند مروج غرناطة من حلاها زحف في

حادي عشر نيسان من ذلك العام باربعين الف راجل وعشرة آلاف فارس لحصار المدينة واستصحب في هذا السفر جميع عظماء قواده مثل لذريق بونس دوليون ومركيز قادس ومعلم صانيتاغو ومركيز فيلنه وكونت تنديله وكونت قبرة واورنيه والدون الونزو دواغيلار، وانعقدت العزائم على التضييق بالبلدة ومزاولة الحصار الى أن يتم تسليمها وإنه لا افراج عنها هذه المرة وكانت الملكة ايزابلا مع ولدها البرنس جويان وابنتيها جويانه ماريه وكاتالينه فى حصن كونت تنديله تبعث بالمدد والذخيرة الى المعسكر

فلما رأى السلطان أبو عبد الله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية مقبلة وقد غطى عجاجها الفضاء وسد الافق عقد مجلسا مؤلفا من أعيان غرناطة ورؤسائها فاجتمعوا كاسفي البال نادبي سوء الحال وتخوف بعضهم عواقب الحرب من نزول المرات فى بيوتهم فأشاروا على أبي عبد الله بتسليم مقاليد أمره الى كرم فرديناند أملا بأن ذلك يعود بشروط صالح مقبولة

وسئل الوزير أبو القاسم عبد الملك أن يبين مقدار الباقي من الطعام والذخيرة لاجل الحصار فأجاب أن الباقي يكفي مؤونة بضعة أشهر ماعدا الذي فى مخازن التجار ومنازل الاغنياء لكن أي فائدة من ذلك اذا كان حصار النصارى لا ينتهي، ثم سئل عن عدد المقاتلة فأجاب إنه عدد عظيم لكنه ماذا ينتظر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون ويزبدون فى أماكنهم حتى اذا دلف اليهم العدو سكنت ثائرتهم وانطفأت جمرتهم

فلما سمع موسى بن أبي الغسان هذه الكلمات نهض قائلا « أي باعث بنا الى اليأس فان دم الابطال من عرب الاندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا وعندنا قوة وافرة وجيوش معودة مجربة فى الوقائع لا نرتاب

مثل موسى أو كان ظهوره فى بداية هذه الحرب لكان تأجل سقوط مدينة غرناطة وبقي المسلمون مدة مديدة بعد ذلك متبوئين أبراج الحمراء »

هذا ونظر فرديناند الى حالة غرناطة ومن فيها من جموع المسلمين المنضوية اليها من سائر الاندلس تغلي فى صدورهم الاوثار غلي النار فى المراجل وفيهم من ذوبان الرجال وابطال النزال عدد يفوق الاحصاء فرأى أن أخذ البلد بالسيف من قبيل الاحلام، واعتمد أن يأخذها بالحصر والتضييق كما أخذ مدينة بسطة فقطع عنها المدد واجتاح جبال البشرات وصار يقبض على كل قافلة نازلة صوب غرناطة فكان موسى يشن الغارة فى خيله على معسكره فيغنم ويفتك ويعود بالسلب فأمر الملك اتقاء غارات موسى بحفر خنادق واقامة اسداد حول المخيم وجعل المخيم أقساما أربعة على شكل مربع وبينها الاسواق والدكاكين

وبعد أن تم ذلك على هذا المنوال استدعى امرأته الملكة ايزابلا فحضرت باولادها وأقامت معه وذلك دهاء منه لقطع آمال الغرناطيين من الرحيل عنهم حتى يمكنوه من بلدتهم. وكان لقدومها في المعسكر ضجة فرح عظيمة أما المغاربة فلم ترتح عزائمهم بذلك وقال لهم موسى « ان علينا الدفاع عن الارض التي تحت أيدينا لانه إذا لم تبق لنا ذهب ملكنا ومحيت اسماؤنا »

ولما رأى موسى أن الملك فرديناند لا يناوشهم القتال منتظراً تسليم البلد بالحصر والتضييق وقطع الميرة أخذ يرسل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى قرنا لقرن فلم يكن يمضي يوم الا ويقع فيه عدة مبارزات بين شبان الطائفتين فرأى فرديناند أن هذه المصارعات الشخصية قد أثارت جأش المغاربة وقوت عزائمهم وافقدته عددا من فرسانه فامر جيشه بعدم قبول البراز

ويقال إن هذا الجامع بعد دخول الاسبانيول الى غرناطة تحول الى كنيسة باسم السيدة مريم وإن الامبراطور شرلكان منح دابلغار هذا وذريته الحق في دفن أمواتهم بتلك الكنيسة

وكان بعد معسكر الاسبانيول عن المدينة بحيث لا يمكن منها سوى لمحتها العامة فارادت الملكة ايزابلا أن تشاهد تفاصيل البلد وقل صبرها عن ذلك فهيأ مركيز قادس بطانة كافرة واحراسا متعددين وسير قطعة من الجيش بين خيل ورجل وسار الملك والملكة وأولادهما وأمراء أسبانية بافخر الزينة وأنفس المراكب وقصدوا مزرعة يقال لها « الزينة » في حدود الجبل شمالي غرناطة مشرفة على حمرائها وأجمل أحيائها فلما قاربوا المحل تقدم مركيز فيله وكونت أورينه والدون الونزو دواغيلا بجنودهم وربطوا أعالي القرية ووقف مركيز قادس وكونت تندليه وكونت قبره والدون الونزو وفرناند بجموعهم حذائها ودخل الملك والملكة أحد بيوت القرية حيث أعد المكان لجلوسهما وحف بهما الامراء والاساقفة ينظرون الى غرناطة الحمراء متأملين كيف تتحول قريبا مساجدها كنائس ومآذنها معالق للنواقيس

ولما رأى المغاربة إصطفاف جيش الاسبانيول كانما يريدون القتال رأوا من الذل الاحجام عن مناجزتهم فمامضت هنيهة حتى شوهدت سرية من فرسان غرناطة قد خرجت من المدينة بالمدد الكاملة والاسنة اللامعة وعلم انها فرسان موسى بن أبي الغسان فصدر أمر الملكة لمركيز قادس باجتناب القتال لانها لا تريد أن يراق بمقدار بغبة الطائر من الدم في سبيل نزهتها فالتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة السبب فيه فأخذوا

يتحرشون بالاسبانيول ويدعونهم الى النزال والملك يمنع قومه من الاجابة وألح بعض سرعان المسلمين حتى صاروا في مصاف النصارى يهزون أسنتهم ويحركون حفائظ أعدائهم وهؤلاء ساكنون في مواطنهم وإذا بفارس زميت الهيئة مفتول السواعد غريب الصولة عظيم البطشة قد تقدم ووراءه جماعة فعرف بالقرينة انه هو طرفة الذي اهان الملكة حسبما تقدم ونظر الاسبانيول فاذا به معلق بذيل جواده اللوح الذى كان دلبلغار قد ركزه في باب الجامع الاعظم بما فيه من الكتابة فلما رأى الاسبانيول هذه الاهانة غاب صوابهم وضاع رشدهم واسرع أحد ابطالهم المدعو كارسيلاسو فاستأذن الملك في النزول لمبارزة هذا الذي اهان السيدة مريم فاجابه الى ذلك اجلالا لمقام الطلب فعاد كارسيلاسو وتقلد سيفه وتأتب بدرعه واعتقل سنانه وامتطى حصانه ونزل لمبارزة الفارس المغربي فتساور الفرسان بمشهد من الجيشين الشاخصة أبصارهما وكان المغربي بحسب رواية مؤرخي الفرنجة اسد ساعداً وأعظم خلقاً وأوثق اضلاعا وأحسن ركوبا من خصمه ولذلك كان النصارى خائفين على فارسهم وفي الصدمة الاولى تزحزح كارسيلاسو عن صهوته وكاد يهوي لولا انه تمكن حالا من لجام حصانه وعاد مستويا على ظهره فاخذ المغربي يدور حوله منوثبا به دوران الباز الاشهب حول فريسته وكان جواده طائعا له وخيل للناظرين عند كل ضربة يضربها ان رأس الاسبانيولي قد طار عن جثته اوفلق شطرين لكن كارسيلاسو بسرعة حركته اتقى ضربات طرفة تارة بالنكوس بجواده وأخرى بالدرق يحتمي بها ومع هذا فكانت كلوم البطلين قد غطتهما بالدم وخارت قوى الاسبانيولى ولحظ ذلك طرفة منه فوثب عليه وأهواه عن سرجه ولما

حصلا على الارض صرعه على ظهره ثم ركع فوق صدره واخترط خنجره وهم ان ينحره به فصاح كارسيلاسو صيحة رج بها الفضاء ولم يكن الا كالبرق حتى سقط المغربي قتيلا وعلم أن خصمه وجأه في احشائه بمدية كانت معه وقام من تحته وقد علا ضجيج النصارى من شدة فرحهم بنجاة فارسهم ونسبوها لمدد جاءه من السيدة مريم العذراء التي انتصر لها، وقد روعيت في هذا البراز قواعد الفروسية فلم يتعرض أحد من الفريقين لنجدة ابن جلدته لكن المغاربة لما رأوا سقوط فارسهم هاجت احقادهم فامر موسى بقطعتين من مدافعه فاخذتا ترميان النار على صفوف الاسبانيول فاختل مصافهم فقال موسى لرؤساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا تضيعن الوقت في المبارزات الشخصية ثم وثب كالغضنفر الطاوي وتبعه جماعة من خيل ورجال وحملوا حملة الرجل الواحد على صفوف النصارى فشطروها وأوقعوا بها فلما رأى مركيز قادس ذلك لم يجد محلا لطاعة أمر الملكة في التزام السكون وأمر بالقتال واستحر الطعن والضرب من كل الجهات. قال مؤرخو الفرنج ان الملك والملكة وجميع حاشيتهما من الاساقفة والامراء لما حمى الوطيس جثوا على ركبهم بمكانهم من السطح المشرف على ميدان الحرب مستغيثين بمريم العذراء وان استغاثتهم قد صادفت القبول فان الشدة التي حمل بها المغاربة لم تلبث ان انحلت ووقع الرعب في قلوب رجالتهم فولوا الادبار واجتهد موسى كثيراً مع خيالته في ضم شملهم فلم يفلح لان أكثرهم انهزموا الى الجبال وبلغ بحسب زعمهم عدد من قتل وأسر وجرح من الفرناطيين نحو الالفين وهذه المعركة تسمى بمناوشة الملكة ويقال انه بعد ان بردت البلاد للطاغية ابتنت ايزابلا ديراً في قرية «زبية» باسم مار فرنسيسكو لم يزل الى الآن وفي حديقة الدير

السلطان أبو عبد الله من حمرائه بنخبة جيشه يذب عن حوضه ويذود عن روضه في مواطن كاد الجبان فيه يساوي الشجاع، واوشك الهيابة أن يلقى السباع، اذ كان بنو الاسلام هناك يقاتلون في الدفاع عن أعراضهم واوطانهم الاخيرة ، ويناضلون عن أعز ماعندهم تحت أعين نسائهم واطفالهم وشيوخهم المطلين عليهم من مشارف الابراج والمنازل، ولم تكن هناك وقعة واحدة بل انتشرت المعارك بعدد الغياض والبساتين ففي كل حديقة معترك، وعند كل غيضة مشتبك، ولم يبق من الارض قدم الا اريق عليه دم، وكانت خيل موسى تجول في الميدان مشددة من عزائم المغاربة حتى لو كان منهم جريح معفر بالتراب وشاهد مرور موسى انتفض قائما وذهل عن جراحه وكم من صريع التفت صوب موسى فقرت به عينه ودعا له وحياه وهو يفارق الحياة

وملك الاسبانيول بعض الابراج بقرب البلد لكن بعد أن اذيقوا مر الكفاح ، وتساقوا كؤوس الحمام مساقاة لراح، والى أبو عبد الله في هذا العراك بلاء تحدثت به الركبان ، ولكن رجالته نكصت على الاعقاب وكاد يقع في أيدي الاعداء لولا انه نجا بفرسانه بخفة الحركة وظل قافلا الى المدينة تاركا في وسط المعمعة موسى الذي بذل جهد الاستطاعة في ضم شمل المشاة وكان يناديهم معنفا اياهم، ويحرضهم على الجهاد في سبيل حرمهم ودمهم ، ولكن غلب الجزع على قلوبهم فلم يجيبوا مناديا ولا لبوا داعيا ، وتراجعت المشاة كلهم صوب المدينة فثبت موسى وفرسانه وانتصب الميزان بينهم وبين العدو باسره ولم يعترهم فتور ولا ملال، ولكن قتل منهم جملة وافرة وأثخن البافون جراحا، فاخذ موسى يتقهقر بهم مدافعا إلى أن بلغ

المدينة فدخلها وأغلق الابواب وجعل وراءها الاثقال والسلاسل قائلا إنه عدم الثقة فى المقاتلة المعينة لحراستها وأمر بان لا يخرج المشاة مرة أخرى من المدينة لملاقاة العدو

وكانت مدافع غرناطة النارية قد فغرت أفواهها فرزأت طلائع الاسبانيول فأمر فرديناند برجوع الجيش بعد أن أحرق آخر ما أحدق بغرناطة من الخضرة وغادرها تختنق بدخان أشجارها، وكانت هذه الوقعة الاخيرة التي خرج بها المغاربة للقاء الاسبانيول دفاعا عن مدينتهم الفيحاء، وشهد سفير فرنسا الذي كان هناك من باهر شجاعتهم وإقدامهم واقتحامهم حياض المنايا ما ملأه عجبا. قال المؤرخ واشنطون ارفن الانكليزي «ان هذه الحرب حقبة عظيمة الشأن فى تاريخ الدهر بما تخللها من باهر اثبات والاصرار فان النكبات توالت فيها على المغاربة مدة عشر سنوات بدون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الاخرى وفنيت رجالاتهم قتلا وأسرا وقاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة كانما هم ينتظرون الفتح ولم يجدوا مكانا تثبت فيه أقدامهم ولا جدارا يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به يناز عون العدو وطنهم المحبوب حتى إذا لم يبق لهم إلا عاصمتهم مقطوعا عنها عن كل مدد غير طامعة في أدنى غوث نازلا على أسوارها أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها كانما هم يترقبون معجزة يرسلها الله فى حقهم» وقال غيره من المؤرخين القدماء «إن مقاومتهم الشديدة تدل على الالم الذى كانوا يشعرون به لفراق مرج غرناطة الذى كان لهم فردوسا ونعيما فبذلوا أقصى ما عندهم من القوة محاماة عن أعلق الارضين بقلوبهم لا يفصلهم عنها انخذال ولا ادبار سعد ولا

أثخان جراح حتى ولا الموت نفسه، بل لبثوا يناضلون عن محاب قلوبهم ومواضيع أشجانهم الى أن سقط في أيديهم وأبى السعد أن يخدمهم »

وبرهان ما قاله هؤلاء المؤرخون من الافرنج قول شاعر ذلك العصر في المصر سيدي محمد العربي العقيلي عند ما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة ذلك

بالطبل في كل يوم وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا وذاك الا القراع
يارب خيرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسلبني صبرا به لقلبي ادراع

وهو الذي قال فيمن تنصر من المسلمين :

فان يرتفع عند النصارى بالابتدا فكم عندنا من حرف حبل يجره

هذا وبعد ان دارت الدائرة الاخيرة على جند غرناطة وخاب الامل وخان الجد لزم المسلمون البلد لا يأتون بحركة وانما انتظروا اقلاع الطاغية وتبرمه بالحصار بعد حريق الخيام فكان منه ان شرع ببناء معسكر من الحجر بدل الاطم والاخبية ولم يكن الا قليل حتى قامت هناك مدينة عامرة باسواق وحوانيت مقسومة بشارعين عظيمين يقسمانها على شكل صليب فيتكون منها أربعة أحياء وفى الوسط رحبة فسيحة لاجتماع الجيش وللمدينة أربعة أبواب تناوح مهاب الرياح الاربع ولما تم بناؤها أطلق عليها اسم « صنتافي » أومدينة الايمان المقدس ولم يكد يستقر بها سكانها حتى دارت فيها الحركة التجارية فما كان يرى الا قوافل نازلة اليها وصاعدة منها بينما كانت غرناطة البائسة غريقة فى لجة مقطوعة الامداد ثم لم تلبث أن فشا فيها الجوع بانقطاع الوارد من الميرة

عليه اليأس ورأى الجمهور منه ذلك فمولوا على التسليم واصفقوا على الدخول فى ذمة الطاغية ، حينئذ قام موسى معارضا وحده اجماعهم قائلا «لقدعجلتم فى الكلام فى امر التسليم فان وسائلنا لم تنقطع ولم يزل عندنا بقية قوة عظيمة الفعل شديدة التأثير وطالما كانت سبب الفتح إلا وهي الاستماتة فلنستنفرن العامة الى الجهاد ولنسلحنهم ونقتحمن صفوف العدو حتى نخالط اسنتهم واني لحاضر ان مضي فى هذا السبيل واتوغر فى كثيف جمع الاعداء وخير لي مرارآن أعد فيمن استأكلهم الدفاع عن غرناطة من أن أعد في الاحياء من بعدها »

فلما تحرك كلماته منهم ساكنا ولم تثر عزما، لان اليأس كان قد استولى عليهم، والاعتقاد بان المصير هو الى ما انبأ به المنجمون من السقوط ودلت عليه الحوادث من البوار اصبح عاما عندهم، فكانوا اسرع الى طلب الوادعة من الماء الى الحدور، ولما رأى أبو عبدالله ان هذا هو استعداد القوم جنح معهم الى التي يبتغونها وتقرر اشخاص الوزير أبي القاسم عبد الملك الى الطاغية لعقد شروط الصلح

فلما قدم أبو القاسم على الملك والملكة رحبابه واكرما موصله واحلاه فى المذاكرة على غونسلاف القرطبي وفرناندو دو صفر كاتب أسرار الملك فبعد المراجعات الطويلة تقرر الامر على انه ان مضت سبعون يوما ولم يرد في اثنائها مدد للمغاربة يتسلم الاسبانيول غرناطة وان جميع أسرى النصارى يطلق سراحهم بدون فدية

وأن أباعبدالله وخواص رجاله يحلفون يمين الامانة للملك والملكة ويعينون لهم فى جبال البشرات اقطاعات معلومة لاجل معيشتهم وان سكان

غرناطة يصبحون رعية لملوك الاسبانيول لكنهم يحفظون املاكهم واسلحتهم وخيولهم ولا يسلمون سوى مدافعهم، وتكون لهم الحرية التامة في أمور دينهم، ويعينون لهم قضاة من أنفسهم يحكمون بمقتضى قواعد كتابهم تحت سلطة ولاة منصوبين من قبل ملوك الاسبانيول ويصير اعفاءهم من الضرائب مدة ثلاث سنين وفي ختامها يدفعون لملوك الاسبانيول الجزية التي كانوا يدفعونها لملوكهم بدون زيادة، ومن شاءوا منهم الاجازة الى بر افريقية في خلال هذه المدة تعطي لهم الرخصة بالسفر مع عيالهم واموالهم بدون رسم مرور من أي ثغر شاءوا من ثغور البحر

واتفقوا على تسليم اربعمائة شخص من ابناء البيوتات المغربية تبقي رهائن عند الطاغية الى أن يتم تسليم البلد وفيهم نجل سلطان غرناطة

هذه خلاصة الشروط التي قرأها الوزير ابو القاسم بمحضر الملا من اهل غرناطة وبين يدي سلطانه بعد عودته من معسكر النصارى، فلم يبق واحد ممن حضر الا أجهش بالبكاء ولج بالعويل، ففاضت شؤون الماقي، وبلغت الارواح التراقي، وتصاعدت الزفرات من الجميع إلا الامير موسى ابن ابي الغسان فانه بقي ثابت الجأش عصي الدمع، والتفت نحو الجمع وقال لهم « دعوا يا سوالينا البكاء والنحيب للنساء والاولاد فنحن رجال ولنا قلوب لا لاجل ذرف الدموع بل لاجل سفك الدماء واني لارى عزائم هذه الامة قد ارتخت وقطعوا أملهم من نجاة هذا الملك فوالله لقد بقي علينا اشرف الخطتين وهي الموت — فلنمت اذاً في سبيل استقلالنا والانتقام من عدو غرناطة فامنا الارض تتلقى ابناءها في أحشائها غير مقيدين بسلاسل العبودية ولا قدر الله أن يكون اشراف غرناطة صاروا يخافون

الموت فى الدفاع عنها

ثم سكت موسى وعلت المجلس السكينة فالتفت ابو عبد الله نحو الحاضرين واخذ يحدق فى وجه كل منهم فلم يقع نظره الا على وجوه علتها الكآبة وظهرت عليها دلائل اليأس وأبصر الجميع مطرقين كأن على رءوسهم الطير، فصاح حينئذ «الله اكبر لااله الاالله محمد رسول الله» باطل اجتهادنا فى معاكسة الارادة الالهية، فقد كتب فى اللوح المحفوظ انى اكون شقيا وان هذا الملك يذهب من يدي» فصاح الوزراء والفقهاء «والله اكبر لاحيلة فى قضاء الله»، وارتفعت الجلبة بالتكبير والحوقلة من كل جانب لكن وقع الاجماع على قبول الشروط ولما رأى موسى أن جميع الحضور متفقون على امضائها قام من بينهم غاضبا والتفت نحوهم قائلا «ياقوم لاتغشوا انفسكم ولاتتسلوا بالمحال ولا تظنوا أن ملوك النصارى وافون بمواعيدهم لكم وانهم كرام عند المقدرة كما هم فتاكون عند القتال» فوالله إن الموت الاحمر هو أهون ماتتوقع، وانما نحن مستقبلون أمراً أيسره اكتساح الاوطان وفضيحة العيال وانتهاب الاموال وقلب المساجد وتدمير المنازل، هذا عدا السوط والنار والقطع والنفى من الارض والضنى فى اعماق الحبوس إلى غير ذلك مما نحن صائرون اليه

فمن العجز أن تموت جبانا فاذا لم يكن من الموت بد

أما أنا فوالله دون أن اشهد ذلك» (؟) قال هذه الكلمات وخرج محل الاجتماع واجما مطرقا ثم طاف بقاعة الاسود وسائر ابهاء الحمراء بدون أن يكلم أحداً من الحشم الواقفين فى الابواب ودخل منزله وتقلد سلاحه الكامل وأمر فأسرج له جواده الكريم فركب وخرج من

من باب البيرة الى حيث لم يسمع لها بعدها خبر ولم يوقف له على أثر

قال المؤرخ واشنطون أرفن هذه رواية مؤرخي العرب في شأن غيبة هذا البطل لكن اغابيدا روى في انتهاء أمره غير ذلك فقال « كان في أكثر العشيات يجتمع عصبة من فتية الفرسان الاسبانيول سائرين للنزهة حفافي الشنيل ففي إحدى المرات أبصروا عند العشاء فارساً مغربيا أخذ يدنو منهم دارعا مرخي القناع وحصانه مثله مغطي بالزرد وكانوا دارعين مثله تحت المغافر لانهم في أيام الهدنة لم يكونوا يحملون الأسلحة الدفاع فلما شاهدوا هذا الفارس المجهول متقدما نحوهم بهيئة منكرة نادوه كي يقف عنده ويعرف بنفسه

أما هو فلم يحر جوابا بل ظل حاملا عليهم ومن أول طعنة بسنانه شك فارساً منهم فرماه عن صهوته، ثم دار حول الباقين شاهراً السيف فاذرع الضرب، وتلاحقت ضرباته فلم ترتفع له يد إلا بحتف، ولم يقم له حد الا في مقتل، وكان الظاهر عليه انه مستميت مولع بالفتك يقاتل للاشتفاء لا للملاء، ويرغب في المنايا لا في الجراح ويهوى الموت لا البقاء الى أن كب نحو نصف الخيالة الذين التقوه صرعى على وجوههم بفياصل ضرباته، وقواصم طعناته قبل أن يصاب بجراحة ذات خطر لشدة تلاحم زرده وسبوغ درعه لكنه أصيب في الآخر وخر جواده من تحته وخيل أنه وقع في اليد فحاول فرسان النصاري أن يمسكوه مسك اليد ابقاء على حياته بما بهرهم من فتكه وادهشهم من اقدامه لكنه بقي يقاتل وهو على ركبه بخنجر من خناجر فاس كان في يده ولما رأي قواه قد خارت واصبح لا يستطيع اطالة الدفاع وخشى أن يؤخذ اسيراً زحف الى النهر فرمي بنفسه في الماء حيث غاصت به درعه في الحال،

وكان هذا الفارس المجهول هو موسي بن أبي الغسان وقد عرف جواده بعض المتنصرة المغاربة ممن كانوا في معسكر الاسبانيول. قال ارفن ومع هذا فلم تزل هذه الحكاية مفتقرة الى زيادة التأكيد

*

أما شروط تسليم غرناطة فقد سردها المرحوم ضيا باشا في تاريخه للاندلس وهي خمس وخمسون مادة تتضمن تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق وفي طيها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وكراماتهم وراحاتهم ما لا يفي به إلا نصه

وقد تكرر في المادة الخامسة العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة، وعدم التعرض لامورهم الشرعية بل إعادة ذلك إلى فقهائهم والمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم وأن يبقى هذا العهد معمولا به في الاعقاب وأعقاب الاعقاب .

وفي المادة السادسة عدم سلب أسلحة المسلمين ومراكبهم ومواشيهم إلا الاسلحة النارية فتقرر أخذها

وفي المادة السابعة تسهيل السفر لكل من شاء الهجرة باملاكه وامتعته وفيما بعدها أجازته على نفقة دولة قشتالة من أي مرسى أراد وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل ، وإذا لم يتهيأ البيع وكل صاحب الملك وكيلا تعتبر وكالته ويساعد على استيفاء حاصلاته وايصالها اليه بمكانه وراء البحر

وورد في المادة الحادية عشرة تشديد مجازاة كل من يدخل من النصارى جامعها بدون رخصة الفقهاء

حاضر وغائب وقاص ودان وكبير وصغير ، وأعلن أن من يجتري على تحليل بشيء مما تضمنته هذه المعاهدة يجزى جزاء من اقدم على افساد البرآءات الملوكية او تقليد الحجج والسندات بدون ادنى تأخير

واقسم الملك فرديناند والملكة ايزابلا وسائر من أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها الى الابد على الصورة المبينة وكتبت على رق غزال محلي ومطرز تحريراً في ثلاثين من كانون الاول سنة احدى وتسعين واربعمائة والف من الميلاد

وحررها فرناندو صفره بأمر الملكين وأمضاها الملك فرديناندو الملكة ايزابلا وأولادهما الدون جان والدونة وايزابلا الدونة حنة والدونة ماريانة والدونة كتالينة ورئيس أساقفة أشبيلية الدون دياغو هرتادو رئيس أساقفة صانتياغو الدون الفونس وكبير فرسان صانتياغو المسمى بالدون الفونس أيضا والدون جان كبير فرسان القنطرة والدون الفارو زعيم رهابين ماريوحنا والدون بيروغونزالس كردينال إسبانية ورئيس أساقفة المملكة والدون هنري كبير حكومة أراغون ومن أبناء عم الملك والدون ألفونس من أبناء عمه أيضا والدون الفارو مدير دائرة الملكين والدون بترو فرناندز رئيس جند قشتالة ويليهم نحو أربعين دوناً كلهم من أبناء السلالة المالكة وأساقفة البلاد وامراءها واعيانها وقوادها

وكتب ايضا معاهدة اخرى لسلطان غرناطة ابي عبد الله بن ابي الحسن تضمنت اربع عشرة مادة فيها تمليك الاقطاعات والاراضي والبلدان التي وهبها اياه الملكان معينا كل منها بذاته والتعهد باعطائه اربعة عشر مليونا وخمسمائة قطعة من السكة المعروفة بالمراويد عند دخولهما قلعة الحمراء

واقرار ملكيته لجميع العقار الموروث ، واعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم واداء المكوس عما يجلب من الامتعة برسمه ، وانه في اي وقت شاء بيع هذه الاراضي والاملاك يشتريها الملكان كلها بقيمتها العادلة وان لم يشأ بيعها واراد النقلة الى بر المغرب فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها ويوردها عليه في اى جهة كان مما وراء البحر وفي اي وقت عول على الاجازة تنقله مع رجاله وعياله وأمواله سفن دولة قشتالة مجاناً ولا يطالب بشيء ولا يكون مسؤولا عن شيء مما حصل الى حين عقد الصلح ولا يسترد شيء مما غنمه وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقه تجري أيضا في حق والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاى ابي نصر والعهدة الثانية مؤرخة في يوم تاريخ الاولى الا اني وجدت اكثر المؤرخين يؤرخون امضاء المعاهدات في ٢٥ كانون الاول وفق ٢٢ المحرم سنة ٨٩٧

*

ولما كان الاسبانيول قد اعطوا المغاربة مهلة سبعين يوما لاجل التسليم بنا على امل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر ازداد الطاغية تيقظا وسهراً وجعل الجيوش محيطة بغرناطة احاطة السوار بالمعصم وجمع الاساطيل وبثها في مراسي الاندلس وفي فرضة المجاز منعاً لكل مدد وارد فلم يطل احد وان أطال فلم يغن شيئا لان سلاطين الاسلام كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية ومحاربة بعضهم بعضاً فضلا عن أن الذى اصبح مقرراً في أذهان عامة المسلمين ان لا أمل بحفظ مملكة الاندلس وتجديد دولة الاسلام فيها وراء البحر الى جهة العدوة الاسبانية وان الجهاد في هذا السبيل عبث وهذا الامر كائن لا محالة فتركوا الامور وشأنها وأهل

غرناطة يعللون أنفسهم بالعل وعسى ، ولكن ابتدأ الجوع يعضهم بانيابه فرأى أبو عبدالله ان انتظار آخر المدة مما لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة ولا رجاء في ورود اقل مدد ، ولو كان فى حيز الامكان لظهر ، أو كان فى قيد الحياة تنفس ، فشاور الرؤساء فاشاروا بالتسليم قبل انقضاء الاجل المضروب

وفى العشرين من كانون الاول أرسل وزيره يوسف ابن كماشة مع الرهائن الملك فرديناند وأصحبه بفرسين كريمين وسيف ثمين على سبيل الهدية فبثه مقصده وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الامد . وفى اليوم التالى ظهر درويش اسمه حامد بن زارة فأخذ يطوف الاسواق مناديا بالجهاد مستنفراً العامة إلى الدفاع قائلا لهم إنه سيرد اليهم نجدات من البشرات ومن برالعدوة وان الامل عظيم بالفرج لكن الملك أباعبدالله والرؤساء خائنون وكثر هذا القيل والقال فى البلد وصبوا اللعنات على ابي عبد الله ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن ، شأن كل أمة غلبت وشأن أمة اليونان اليوم بعد ان قهرتها الدولة العثمانية وجاست عساكر مولانا السلطان الاعظم خلال بلادها فقام كثير منها ناقمين على الملك جورج وولي عهده ولولا صلاتهما النسبية مع ملوك أوروبا لطردهما اليونان أو فتكوا بهما (١)

فثار نحو عشرين الفا من أهل غرناطة وتقلدوا أسلحتهم وخرجوا

---

(١) هذا كان في حرب اليونان للاتراك أيام السلطان عبدالحميد ولكن في الحرب الاخيرة بين الترك واليونان قام هؤلاء على اسرتهم الملوكية وطردوها كما لا يخفي مما حققت كلمتنا هذه

الى الاسواق بضوضاء ملأت الفضاء عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو فاستمروا يوما كاملا وقسما من الليل بهذه الحركة وإذا باعصار قد عصف بشدة فألزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف ،

وفي اليوم التالي خرج أبو عبدالله من الحمراء محفوفا برؤساء البلد وخاطب الامة قائلا لهم « لاذنب الا لي، انا الذي عققت والدي وجلبت الاعداء على المملكة، لكن الله قد أخذني بجرائري، وانزل النقمة كلها على رأسي وها أنا ذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لاجلكم ياقومي ضناً بدمكم أن يراق وباطفالكم أن يموتوا جوعا وبنسائكم وذراريكم أن تنزل فيهن معرات الحرب وحفظا لاموالكم وأملاككم وحريتكم وشريعتكم وديانتكم في ظل ملوك اسعد طالعا من أبي عبدالله المشؤوم » فاثرت رقة كلامه في خواطر القوم وسكنت سورة حقدهم، واستلت نعومة خطابه ماخشن في صدورهم. فانفضوا إلى امكنتهم وفي الحال ارسل ابو عبدالله الى الملكين يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي حذراً من تجديد الحوادث فرضيا بذلك وتأهبا لدخول الحمراء كما ان اباعبد الله واسرته وحشمه احيوا الليل في التأهب للخروج وقد غسلوا ابهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بنواحهم وزموا حقائبها بما فيها من الذخائر والاعلاق واحضروا لها البغال وقبل أن تبلج الفجر إنساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الابواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المغاربة الذين لبثوا متمسكين بعروة سلطانهم إلى الآخر وساروا من أحد الاحياء المتنزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية ،أما عائشة الحرة والدة أبي عبد الله فكانت متجلدة وتتجملة، وأما امرأته وسائر جواري القصر فقد قرح البكاء ماقيهن وخدد

الدمع خدودهن، ولما وصل الموكب الى احدى القرى التي على طريق البشرات وقف ينتظر وصول أبي عبد الله وعند طلع الشمس جاءت فرقة من الخيالة والمشاة يصحبها هرناندو دوتالافيرة مطران أفيلا ودخلت من أحد من أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتفاق فالتقاها السلطان أبو عبد الله، وقال للمطران المذكور «امض واستلم هذه الحصون التي صيرها الله الى يدكم عقابا للمغاربة على أعمالهم» ثم تقدم لملاقاة الملكين وتقدمت العساكر فدخلت الحمراء وكان فرديناندو وايزابلا ينتظران رؤية اعلام اسبانية فوق أبراجها فمضت مدة وانظارهما شاخصة فلم يريا شيئا وخشيا وقوع حادث لكن لم يكن الا قليل بعد ذلك حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الحمراء «حيث لم تزل خافقة الى الآن» وبجانبها راية مار يعقوب وعلا هتاف العساكر فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل خرا جاثيين على ركبهما واقتدى بهما جميع الامراء والقواد والجند شكراً لله تعالى على ما من به وبعد انتهاء الصلوات استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي فلما وقعت العين على العين اراد السلطان الترجل اجلالا للملكين فمنعاه فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يمكنه فرديناند من ذلك. وقيل أن الملكة أيضاً أبت ان ترسل له يدها وانها احسنت عزاءه وسلمته ابنه الذي كان مرهونا فضمه الى صدره واخذ يقبله كأن الشقاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر، ثم سلم ابو عبد الله مفاتيح البلد الى الملك قائلا له «هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في اسبانية خذها فقد اصبح لك ملكنا ومتاعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى فتقبلها بالرأفة

التي وعدت بها التي تنتظرها منك » فأجابه فرديناند «لا شك فيما وعدنا به وعسى ان يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك في عداوتنا » ثم دفع فرديناند المفاتيح الى الملكة فدفعتها الى ابنها البرنس جويان وهذا اعطاها لكونت تندليه الذي كان قد عين قائداً للمدينة ولسائر مملكة غرناطة

ثم انفصل ابو عبد الله عن الملكين قاصداً المقر الذي عين له في وادي برشانة وسار الطاغية وامرائه نحو المدينة واصوات الموسيقى مسموعة الى بعيد ولم يدخلاها يوم تسليمها بل انتظرا ان تتبوها جميع العساكر اما سلطان غرناطة السابق فلما وصل الى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يشرف عليها وقف يودع مدينته فلم تكن في عينه اجمل منها في تلك الساعة فأخذ يتأمل في ابراجها وقلاعها ومنائرها الضاربة في السماء ومرجها النضير والمنقطع النظير، ووقف وراءه حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه وهم يتأملون سكوتاً قد أبكمهم الحزن وأخرسهم الهم، وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة ودوي صوت المدافع إيذاناً بان المدينة دخلت في حوزة الاسبانيول وانقطعت منها دولة الاسلام، فعندها خفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه دون البكاء فصاح « الله اكبر » وفسح مجال الدمع، واستمطر ماء العيون، فجادت بالسكاب فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة «عليك ان تبكي بكاء النساء، ما عجزت أن تدافع عنه دفاع الرجال» وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ، فاجتهد وزيره يوسف بن كماشة في تعزيته فلم يقبل قلبه العزاء، وبقيت شؤون عينه فائضة وزفراته متصاعدة، وهو يقول « أي شقاء مثل شقائي » وقد سمي الاسبانيول تلك الذروة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب « بآخر

هكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين لم تفتر فيها الوقائع، ولا نشفت الدماء ولا انقطعت المصارع وبنهايتها انصرم حبل الاسلام في بلاد الاندلس، بعد أن استتبت دولته فيها سبعمائة وثمانيا وسبعين سنة منذ انهزم لذريق على ضفاف الوادي الكبير الى تسليم غرناطة، والله وارث الارض ومن عليها

وهاك ما قال صاحب نفح الطيب عن الوقائع المتقدمة الى حين التسليم ننقله ببعض اختصار تابعا لما تقدم من روايته

« ثم بعث (أي الطاغية) فى السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكنه عمه من القلاع ويكون تحت ايالته ويعطيه مالا جزيلا على ذلك وأى بلاد شاء من الاندلس يكون فيها تحت حكمه قالوا واطمعه صاحب غرناطة في ذلك فخرج العدو فى محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة وهـذا سر بين السلطانين فجمع صاحب غرناطة الاعيان والكبراء والاجناد والفقهاء والخاصة والعامة واخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمه أفسد عليه الصلح الذى كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه وليس الا احدى خصلتين الدخول في طاعته أو القتال فاتفق الرأي على الجهاد ونزل صاحب قشتالة على مرج غرناطة وطلب من أهلها الدخول فى طاعته والافسـد زروعهم فاعلنوا بالمخالفة فافسد الزرع وذلك فى رجب سنة ٩٥ ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة ثم ارتحل العدو عند الاياس منهم ذلك الوقت وهـدم بعض حصون واصلح برج همدان والملاحة وشحنها بما ينبغي ثم رجع الى بلاده وعند انبعرافه نزل صاحب غرناطة الى بعض الحصون التي في يد النصارى

ففتحها عنوة وقتل من فيها من النصارى واسكنها المسلمين ورجع لغرناطه ثم أعمل الرحلة الى البشرات فرجب المذكور فاخذ بعض القري وهرب من بها من النصارى والمرتدين أصحابهم ثم اتى حصن اندرش فتمكن منه واطاعته البشرات وقامت دعوة الاسلام بها وخرجوا عن ذمة النصاري وهنالك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملة وافرة فقصدهم في شعبان من غرناطة واستقر عمه بالمرية وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجه ثم تحرك عمه مع النصاري الى اندرش فاخذوها لرمضان وخرج صاحب غرناطة لقرية هسكان وكان برجها العظيم مشحونا فحاصره ونقب أهل غرناطة البرج الاول والثاني والثالث ثم البرج الكبير وهو القلعة وأسروا من كان بها وهم ثمانون ومائة واحتووا على ما هنالك من عدة وآلات حرب وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب فلما وصل حصن شلوبانية اخذه عنوة بعد حصاره وامتنعت القلعة وجاءتهم الامداد من مالقة بحراً فلم تقدر على شيء وضيقوا بالقلعة فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة فارتحل صاحب غرناطة عن شلوبانية وجاء غرناطة ثالث شوال ووصل العدو الى المرج ومعه المرتدون والمدجنون وبعد ثمانية أيام ارتحل لبلاده بعد هدم برج اللاحة وبرج اخر وتوجه الى وادي آش فاخرج المسلمين منها وهدم قلعة اندرش ولما راى ذلك السلطان الزغل وهو ابو عبد الله محمد بن سعد بادر بالجواز لبر العدوة فجاز الى وهران ثم تلمسان واستقر بها وبها نسله الى الان يعرفون ببني سلطان الاندلس

ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها واخذها واسر من

كان بها من النصارى . وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ حرج العدو بمحلاته الى مرج غرناطة وافسد الزرع . دوخ الارض وهدم القرى وكانوا يذكرون انه عزم على الانصراف فاذا به صرف الهمة الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة اشهر غير ان النصارى على بعد والطارق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج فانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء واستولى العدو على أكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب ضاق الحال وعظم الخطب وذلك أول عام ٨٩٧ وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر في صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع ناس مع من اشار اليه من أهل العلم وقالوا انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم فاحضر السلطان اهل الدولة وأرباب المشورة وتكلموا في هذا المعنى وان العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكان ظننا انه يقلع عنا في فصل الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرب منا ، فانظروا لانفسكم وأولادكم ، فاتفق الرأي على ارتكاب اخف الضررين وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد قبل ذلك في اسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطا ارادوها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط ، وذكروا أن رؤساء اجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل ثم عقدت بينهم لوثائق

علامة كما يجعل اليهود(١)، أهل الذمة — ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب، ويتركون من الغارم سنين معلومة وان يوافق على كل الشروط صاحب روسة ويضع خطيده. وامثال هذا مما تركنا ذكره. وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد. ولما سلم ذلك اهل البشرات دخلوا في هذا الصلح، شملهم حكمه على هذه الشروط ثم أمر العدو ببناء مايحتاج اليه في الحمراء واصلاح سورها وصار يختلف اليها نهاراً ويبيت بمحلته ليلا الى ان اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبراً بما يرومه انتهى

وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الاسبانيول انقطع السلطان ابو عبدالله بن الاحمر في ارضه بوادي برشانة حيث وفر له الطاغية الاقطاعات وكذلك لوزيره يوسف بن كماشة الذي لزم بابه فاقام مدة هناك ذاق اثناءها طعم الراحة وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط، لكن الامر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضي ملكه وعلائه. ويحن الى غابر حمرائه، فتثور فيه الاشجان، وتستشعر فؤاده الاحزان. في هاتيك المدة لم يدع المذكان وسيلة الا استعملوها لاجل صبائه عن دين آبائه وادخاله في النصرانية فاخفقت مساعيهما، وبقي لهما مشغولا من جهته اذ لم يزل وجوده هناك محلا للخوف من انتقاض مسلمي الاندلس تحت رايته والتفافهم حواليه، ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كماشة سراً في ابتياع اراضي مولاه بثمانية آلاف دوكا من الذهب فتمت الصفقة وانعقد البيع

(١) في الاصل: ولا يجعل علامة الخ — او — ولا يجعل له علامة كما يجعل لليهود اه مصححه

بدون علم ابي عبدالله وبدون أن يعتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكالة بل نقده المال فحمله البغال وسار الى البشرات فلما وصل بين يدى مولاه نثر الدنانير أمامه قائلا له

« رأيت يا مولاى أن بقاك هنا معرض للخطر فان المغاربة أهل اقدام وثار، وحملة أخبار، ولا يبعد أن يثوروا مرة رافعين رايتك وتعزى ثورتهم اليك فتقع فى المفيم لمقعد، ومادمت في هذه البلاد يخطر فى بالك انك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الامارة ، لذلك رأيت الانجح في حقك بيع اراضيك وهو ذا ثمنها لديك يمكن لك أن تتملك به اراضي واسعة جداً وراء البحر»

فلما سمع أبو عبدالله هذه الكلمات استشاط غضبا واخترط سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره فاسرع هذا إلى الفرار من حضرته وبقى أبو عبدالله وحده يتأمل فى هذه المسئلة ويقلب من وجوهها فلم يلبث أن ذهب مابه وعاد اليه سكونه واستدل أن هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة فرديناند فى زيالة هناك وان الحق قد يكون مع وزيره يوسف، فاجمع الرحلة وشد حقائبه ، جمع أمواله وكنوزه وتحمل الى أحد الثغور حيث شيعه كثيرون من قومه مدا بين له بالتسهيل . فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منهما العبرات ، تصاعدت من صدره الزفرات ، ونزل بمليلة ومنها سار الى فاس نزيلا على سلطانها متلهفا على ماسلف ، وفى بعض تواريخ لافرنج انه توفى قتيلا فى احدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ اي بعد ٤٤ حولا من فراقه اسبانية ولذلك قال فيه احد المؤخين انه قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعد ان جبن عن ان يقتل في الدفاع عن سبيل مملكته

واما النفح فيقول في نهاية أمره ما يأتي « ثم احتال (أي الطاغية) في ارتحاله (أي أبي عبد الله) لبر العدوة واظهر ان ذلك طلبه منه المذكور فكتب لصاحب المرية انه ساعة وصول كتابي هذا لاسبيل لاحد ان يمنع مولاي أباعبدالله من السفر حيث اراد من برالعدوة ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بماعهد له فانصرف في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر ونزل بمليلة واستوطن فاسا وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسمف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقي شدة وغلاء وبلاء »

ويقول بعد ذلك « والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم الانيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة، أو هو المخلوع الوافد على الاصقاع المرينية بفاس ، العائد منها الملكة وأرفع الصنائع لرحمانية العاطرة الانفاس . وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان اسمعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج بن اسمعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الانصاري الخزرجي رحمهم الله تعالى جميعا. وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه، متلهفا ، على ماخلفه وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الاندلس رأيتها ودخلتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف

المسلمين وحمل لملكة ايزابلا على ما بقي نقطة دهماء في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم وأكراههم على التنصر، فأثار ذلك ساكنهم، وأخرج كامنهم؛ وفي احدى المرات حبست امرأة من البيازين لشأن من هذا القبيل فثار سكان البيازين وتحصنوا وحملوا السلاح وكادوا يفتكون بالجند وأوشك الدم ان يسيل بحدة الكردينال كسيمينس

إلا ان المطران هرناندو الموصوف بالوداعة دخل ربض البيازين بالسكينة والانس مع نفر قليل من حاشيته بدون سلاح وسأل القوم عن شكواهم، فقابلهم بالاستماع والاحتفال وهدأ روعهم وأعاد طائر الامن الى وكره وحجب الدماء يومئذ، على أن كسيمينيس المشهور لم يزل يغوي الملكة حتى أصدرت أمرها بإكراه المسلمين على احدى الخطتين الجلاء أو النصرانية وذلك بأنهم كانوا يذكرون المسلمين بأنهم سلالة النصارى في الاصل فأقفلت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزيد الحقد وأذيق المسلمون العذاب اشكالا وألوانا ففضل عامتهم فراق دينهم على مراق وطنهم الا ان شعلة من الحمية الاسلامية بقيت تتقد في جبال البشرات حيث حتمهم أوعارهم من مضطهديهم

وأول جيش ارسل اليهم تحت قيادة الدون الونزو دو اغيلار البطل الشهير انهزم هزيمة شنعاء وذلك في سنة ١٥٠١ وقتل الدون المذكور وقيل انه الدون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين فازداد انتقام الاسبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت طنديلة على قوجار وهدم كونت تنرين جامعا على جماعة التجأوا اليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال

فمن بقي حيا من الثوار فر الى مراكش ومصر والبلاد العثمانية وانتهت الثورة الاولى في الجبال

ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب والمسلمون المتنصرون يعمدون أولادهم ظاهراً فاذا انصرف القسيس مسحوا عن الولد ماء المعمودية واذا تزوج أحد الموريسك (لقب المتنصرة من المغاربة) أجرى القسيس عقد الاكليل ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الاسلامية

وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونوهم على اختطاف أولاد النصارى ويأتون غير ذلك فلو كانت ثمت حكومة عاقلة قوية ترعى عهودها التي واثقت عليها عند تسليم غرناطة لم يكن محل لذلك البغض العميق ولكن حكام الاسبانيول لم يكونوا أهل عقل ولا عدل وكانوا يزادون بتمادي الايام شراً، وتلبث الاوامر ان صدرت باكراه المغاربة على ترك ألبستهم المخصوصة بهم ولبس البرنيطة والسراويلات الاسبانيولية وحظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداء بغالبيتهم في احتمال الاقذار، ثم منعوهم من التكلم بالعربية وصدر الامر بأن لا يتكلموا بغير الاسبانيولي، بأن يغيروا اسماءهم ويسيروا سيرة اسبانيولية ويسموا أنفسهم اسبانيولا، وكان تصديق الامبراطور شرلكان هذا الامر الفظيع في سنة ١٥٢٦ على انه لم يكن الظاهر من اعتماده اجراؤه بالفعل لكن عماله اتخذوه ذريعة لاستنزاف اموال الموسرين من المغاربة وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجر بهذه المسألة ولما صار الامر الى فيليب الثاني شدد في انفاذ الاوامر بحق الموريسك وسنة ١٥٦٧ عزز الامر الصادر بشأن تغيير الزي واللغة باستيثاق غريب لاجل منع النظافة التي هي من سنن الاسلام وذلك بأنه أخذ يهدم حمامات الحمراء

للبديعة فالطرائق التي أخذوا بها لتنكير أحوال تلك الامة هي اشد من ان يحتملها أى قبيل كان ، دع سلائل المنصور وعبد الرحمن وابناء سراج ، ولذلك لم يطل الزمن حتى استطار الشر واشتعلت الفتنة وثار فرج ابن فرج من نسل بنى سراج بجماعة من ذوى الحمية من غرناطه قاصداً الجبال قبل أن تمكنت الحامية من تعقبهم ونودى بهرناندو دو فلور من نسل خلفاء قرطبة ملكا على الاندلس تحت اسم محمد بن أمية وعمت الثورة في اسبوع واحد كل انحاء جبال البشرات ومرتفعاتها سنة ١٥٦٨

ولما كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الارض مرتقي وأوعرها مسلكا ، كان تدويخ سكانها من أصعب الامور منالا ، والفتنة فيها بعيدة المرمى ، فاستمرت هذه المرة حولين كاملين حافلة تاريخها بحوادث لا تحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاستيلاء من الجانبين ، لكنه ايضاً حافل بوقائع يندر في تاريخ الفروسية وكتب الحماسة الظفر بامثالها وتبقى على صفحات السير نخراً للقرون والامم وكان للمغاربة هناك في موطنهم الاخير والموقف الذي يحاولون فيه ادراك الثأر على نحو مئة سنة قضوها في البلاء العظيم ، والهون الذي ليس له نظير ، فهبوا جميعاً منادين باخذ الثار واقتضاء الاوتار قرية بعد قرية . وهدموا الكنائس وأهانوا مافيها وفتكوا بالقسيسين وعذبوا النصارى الذين وقعوا في أيديهم ، واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والابراج ودافعوا دفاعاً شديداً . وتلازم مركيز مونتيجارة قائداً في غرناطة فعهد الى المسالمة وأخذ بالملاينة . كادت لوقة تنطفئ لولا ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء في بيوس البيازين من المغاربة قيل إن ذبحهم وقع بغير علم المركيز ، لكن المورسكيين لم يقبلوا العذر ونشروا

لواء الثورة، وصار ابن امية اميراً بالفعل على جميع جهات البشرات، الا أنه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض اعوانه وقتلوه وبويع لرجل آخر موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبدالله بن ابوه

فارسلت دولة اسبانية لتدويخ الثوار الدون جون الاوسترى اخا الملك وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ الى ١٥٧٠ واتى من الفظائع، ما بخلت باندادهِ كتب الوقائع، فذبح النساء والاطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد، وكانت علامته « لاهوادة » وانتهى الامر باذعان الموريسك لكنه لم يطل واستأنف مولاي عبدالله بن ابوه الكرة، فاحتال الاسبانيول حتى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوبا فوق احد ابواب غرناطة ثلاثين سنة. وأفشى الاسبانيول في قمع الثورة بما اقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب هناك خلقاً كثيراً، وخنع الذين نجوا من الموت لكنهم وقعوا في الرق وسيقوا مماليك وعبداناً ونفي جملة منهم، فاخذ عددهم يتناقص. ولما كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠ بلغ عدد من ذهب منهم عشرين الفاً والذين أخذوا منهم في معمعة الفتنة صاروا إلى الاستعباد، والبافون أخرجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تعباً فمنهم من أجاز إلى بر العدوة وطافوا هناك سائلين لاجل قوتهم الضروري ومنهم من لجأ الى بلاد فرنسا حيث استقبلوهم براً وترحيباً واحتاج اليهم هنرى الرابع لاجل دسائسه في مملكة اسبانية ولم ينته اخراجهم تماماً الى سنة ١٦١٠ إذ وقع الجلاء الاخير ولم يبق في تلك البلاد مسلم بعد أن وليها الاسلام ثمانية

قرون. ويقال إن عدد من خرج منهم منذ اليوم الذى سقطت فيه مملكة غرناطه إلى السنة العاشرة بعد الالف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين وان الذين خرجوا لآخر مرة نحو نصف مليون .

واما الاسبانيول المساكين فلم يعرفوا ماذا يصنعون ولا أنهم يخربون بيوتهم بايديهم ، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة مع أن اسبانية ، كانت مركز المدنيه ومبعث اشعة العلم قروناً ، وقلما استفادت بقعة أوروبية من حضارة الاسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد ، فلما غادرها الاسلام انكسفت شمسها وتسلط نحسها ، وان فضل مسلمى الاندلس ليظهر فى همجية هؤلاء القوم وتأخرهم في الحضارة وسقوط هذه الامة في سلم الاجتماع ، بعد أن خلت ديارها من الاسلام انتهى كلامه ملخصا

واستشهد في حاشية هذه الجملة بنقل يمثل لك درجة هذه الحقيقة وهو أن الملك حول مدينة غرناطة ضياعا واسعة ومزارع التزموا بيعها سنة ١٥٩١ بسبب كونهم يخسرون عليها أكثر من غلتها ، مع أن هذه البقاع كانت لعهد العرب حدائق ، غناء وغياضا ، ذات افياء وموارد ثروة ورخاء

وقال واشنطون ارفن فى تاريخه لفتح غرناطة مامعناه ملخصا : انه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الاسبانيول بقيت الحال غير مستتبة تماما مدة سنوات إلى أن وقع من اجتهاد رؤساء مذهب الكاثوليك في حمل المسلمين هنالك على النصرانية ما ايأس مغاربة الجبال المتشددين فى دينهم فثاروا برؤساء الدين وقبضوا على اثنين من هؤلاء الدعاة في مدينة دارين وعرضوا عليهما الاسلام فامتنعا فقتلوهما . وقيل ان النساء والاولاد قتلوهما قبيصا بالعصي وشدخا بالحجارة وإنهم أحرقوا جثتيهما فانتقم النصارى

من هذه القصة بان اجتمع منهم نحو ثمانمائة فارس وساروا الى قرى المغاربة يخربون ويعيثون ، فاعتصم المغاربة بالجبال وانتشرت الفتنة في الجبال كلها لكن وسطها كان في جبل برجه العصاقب للبحر ، فلما اتصل الخبر بالملك فرديناند أصدر أوامره بنقل المغاربة الساكنين في جهات الثورة الى قشتالة وأعطى الامر سراً بان من يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه ثم رمى تلك الامة بالفائد الشهير الونزو دي اغيلار ومعه جيش وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة فلما قرب من بلادهم حتى هرع جملة وافرة منهم الى رندة للدخول في النصرانية وجر الباقون منهم تحت قيادة فارس اسمه الفهري سائقين نساءهم وأطفالهم الى حيث يتعذر السلوك من تلك الاوعار ورابطين شعاب الجبال دون مرور عساكر الاسبانيول فالتقى الجمعان أمام بلدة مونارده واشتد القتال فيقال ان الدون الونزو مع ابنه الدون بطرو وثمانية من شجعانه صدقوا الحملة على المغاربة فازاحوهم وتلاحقوا في الهزيمة بتتبعهم الجبل ينهبون ويسبون ولما امتلأت أيديهم بالغنائم كر عليهم الفهري بجماعة من أبطاله وعلت الصرخة فارتجت لها جوانب الاودية ، فذعر الاسبانيول فتسارعوا للفرار وثبت الونزو في مكانه يحرضهم ويضم من شتت شملهم فصبر معه جماعة وولى الاكثرون ودخل الظلام وخيم الغسق واشتد الخناق بالاسبانيول وجرح بطار ابن الونزو فامره أبوه بالرجوع فاصر على البقاء بجانب أبيه فأمر اتباعه بحمله إلى معسكر كونت أورينه فاحتملوه مثخناً جراحا ولبث الدون بمائتين من رجاله يناضلون حتى فنوا عن آخرهم

وتحصن الدون بين صخرتين يتقي بهما فبصر به الفهري فقصده

و استحر الصراع وألح الفهري وطمع في قرنه وكانا متماثلين في ثبات الجنان مع قوة الاضلاع وتوثق الخلق فصاح الونزو بخصمه « لاتحسبن نفسك وقعت على صيد هين فأنا الدون الونزو دواغيلار » فاجابه المغربي « ان كنت انت الدون الونزو فاعلم انني أنا الفهري » ثم كوره صريعا ومات بموته مثال الفراسة الاسبانيولية وانموذج الغشمشمية في الاندلس

واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الاسبانيول ولم ينكفئوا حتى لاح الصباح فاجلى المعترك عن قتل الدون فرنسيسكو دوراميز المدريدى الذى كان قائد المدفعية الاكبر وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة لكن مصرع الدون الونزو دواغيلار انسى الاحزان جميعها وعند وصول خبر هذه الفاجعة الى الملك زحف بالجيش الى جبال رندة فسكنت بحضوره الثائرة واشترى بعض المغاربة أرواحهم فجازوا الى افريقية، واحتمى آخرون بالنصرانية، وأما أهل البلد الذى قتل فيه الدعاة فسلكوا في سلسلة العبودية وبحث الملك عن جثة الدون فوجدها بين مائتى جثة من الاسبانيول فيها أجساد عدد من الامراء والكبراء فحملوها الى قرطبة في مشهد حافل، بين مدامع كالسحاب الهواطل، ودفن في كنيسة مار هيبوليتو، وندبه الاسبانيول دهراً طويلا » انتهى كلامه مجملا

* * *

وذكر المؤرخ الفرنسي الشهير فيكتور دروى في تاريخه مايأتي ملخصا « ان اسبانية تخلصت من العرب لكنها بقيت حافظة عليهم احنة شديدة ربتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب وكان لذلك العهد سكان الجزيرة اخلاطا من مسلمين ونصارى ويهود فعول فرديناند على

توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد تعزيزاً للدولة فانشأ ديوانا جديداً للتفتيش وكان الملك هو الذى يعين الرئيس والمفتش الكبير ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المتنصرين ظاهراً الباقين في الباطن أمناء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية كالبدع الدينية ايضا

وسنة ١٤٩٢ قرر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من اسبانية بعد ان سلبوهم أموالهم وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم ٨٠٠ الف (قلت منهم جماعة وافرة بأزمير وأقوام بالاستانة هاجروا اليها في تلك الكائنة ومنذ خمس سنين استقلوا بعيد مُضي الاربعمائة سنة على دخولهم بلاد الدولة العلية أكثروا فيه من الدعاء لسلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين) والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا بما لم يعذبه أحد من العالمين، وسنة ١٤٩٩ صدر أمر بسلب المغاربة حريتهم الدينية التي تقررت لهم بموجب عهد غرناطة فجلا منهم جم غفير ولم يتم خروجهم جميعاً حتى القرن التالي في سنة ١٦٠٩ وهكذا فازت اسبانية بوحدتها الدينية لكنها خسرت صناعتها وتجارتها اللتين كان العرب واليهود أهم عمالها

وذكر مرة عند كلامه على شرلكان انه أكمل مقصد فرديناند فأكره مغاربة بلنسية على التنصر وأهل غرناطة على ترك زيهم والتكلم بغير لغتهم وقال بمناسبة فيليب الثاني انه اضطهد المغاربة وضيق عليهم حتى التزموا الثورة سنة ١٥٦٨ وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال ايذانا بالخروج وكان يمكنهم بما أمسكوه من مخانق جبالهم الثبات طويلا لو امتدت اليهم يد

معونة من اخوانهم أهل افريقية ففرق فيليب شملهم وبددهم في مقاطعته ولم تمض سنون عشر حتى صاروا كلهم أرقاء

*

ثم لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة كلام المقري وهذه الوقائع الاخيرة وهو ببعض تصرف « ثم ان النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط عروة عروة إلى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم انهم قالوا ان القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى ان يرجعوا قهراً للنصرانية ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا قوة لهم ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو ان يقولوا للمسلم ان جدك كان نصرانيا فأسلم فلترجع نصرانيا، ولما فحش هذا الامر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر قالوا ان الحكم خرج من السلطان ان من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا ان يتنصر وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق واندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا، الا ماكان من جبل بللنقة فان الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة (هو الونزو دواغيلار) وأخرجوا على الامان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها

من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً إلى ان كان إخراج النصارى اياهم بهذا العصر القريب أعوام(١) سبعة عشر والف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران وجهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الاعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة

وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ووصل منهم جماعة الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين » انتهى

قلت وأشهر الائمة الذين أدركهم عهد الاستيلاء على غرناطة ورحلوا فيمن رحل الى الشرق قاضي الجماعة أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن الازرق صاحب التآليف الجليلة منها (بدائع السلك في طبائع الملك) حذا فيها حذو ابن خلدون وقد دخل مصر بعد الارتحال عن وطنه واستهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الاندلس قال المقري فكان كمن يطلب بيض الانوق. ثم حج ورجع الى مصر وجدد الكلام في غرضه فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس فتولاه بنزاهة وصيانة وله نظم بديع فمنه قوله

تأملت من حسن الربيع نضارة ... وقد غردت فرق الغصون البلابل
حكت في غصون الدوح قس فصاحة ... لتعلم ان النبت في الروض باقل

(١) لعل أصله : أي عام

وقوله

تعجبت من يانـع الورد فى ... سـنى وجنة نبتهـا بارض
ولم لا يرى وردها يانمـا ... وقد سال من فوقها العارض

ومنه قوله عند نزول الطاغية بمرج غرناطة

مشوق بخيمات الاحبة مولع ... تذكره نجد وتغريه لعلع
مواضعكم يالائمين على الهوى ... فلم يبق للسلوان في القلب موضع
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة ... ومن لي بجفن تنهمي منه أدمع
رويدك قارب للطائف موضعا ... وخل الذي من شره يتوقع
وصبراً فان الصبر خير غنيمة ... ويافوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقا باللطف من خير راحم ... فألطافه من لمحة العين أسرع
وان جاء خطب فانتظر فرجا له ... فسوف تراه في غد عندك يرفع
وكن راجعاً لله في كل حالة ... فليس لنا إلا الى الله مرجع

أما لرجوع الى الله فهو أحق الحقائق وأما انه لا بد من انكشاف الخطوب فهذا خطب الاندلس لم ينكشف إلا بتقلص ظل الاسلام من تلك الديار، وطالما ارتقب أهلها اللطائف فلم تطل عليهم إلا البلايا الكبار، حتى آل أمرهم الى الحريق بالنار ذلك بقدر من الله (١) إنا لله وانا اليه راجعون

---

(١) تكرر في هذا التاريخ ذكر القدر وهو هنا في موضعه فان القدر والمقدار أن تكون الوقائع بقدر اسبابها وعللها وجارية على نظام سنن الله المطردة في الخلق — وأما ماتقدم من الاعتذار عن الخضوع للاعداء بالقدر وكونه خضوعا لا لالمم فانما يصح في حال العجز التام عن كل عمل في جهادهم ولم يكن كل اولئك المعتذرين بالقدر كذلك، ولا سيما ذلك السلطان الافين الظالم الفاسق فيجب ان يعلم المسلم ان بدعة الاعتذار بالقدر عن المعاصي وعن القيام =

عنهم فنون، وشاعت بواسطتهم صنائع، وانتشرت بسببهم فوائد، وكانوا مع رثاثة حالهم وتشريدهم من بلادهم صفر الايدي الا من زهيد المتاع يمثلون حيثما حلوا قطعة من الاندلس ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معايشهم وسائر شؤونهم وماآخذهم مسحة اندلسية تمتاز بالذوق، وتدل على الاصالة في التمدن، حتى ان الكاتب فليكس دوبوا الافرنسي الذي ساح الى أواسط افريقية في العام المنصرم عثر على قبيل في جوار تنبكتو يقال لهم الاندلوز حقق بما أخذه من أخبار اصول تلك القبائل أنهم من جالية الاندلس كما يدل عليهم اسمهم، وذكر انهم مع فقرهم تجدهم اسمى ذوقا وأعلى طبقة في المدنية من القبائل المجاورة لهم، ولهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش — الى غير ذلك، والظاهر انهم مترامون الى السودان عن مراكش وسبحان من بيده تصاريف الامور

خاتمة

لا تزال آثار العرب حية في اسبانية تشهد بفضل هذه الامة وتنطق بامتزاج الاسلام مع الحضارة، وان كثيراً من الاماكن في تلك البلاد خصوصا غرناطة وقرطبة واشبيلية بل بلنسية وطليطلة قد يظن الداخل اليها أن المسلمين لم يغادروها الا منذ عهد قريب، وقد اندمج كثير من الاوضاع العربية في البناء بالهندسة الاسبانيولية كما اختلط اللسان الاسباني لي بالعربي وتولدت من هذا الاقتران ألفاظ خلاسية سرد منها الفاضل المحقق أحمد أفندي زكي (١) جمهورا في رحلته الى الاندلس المنشورة

(١) هو الآن الاستاذ العلامة احمد زكي باشا المصري

في جريدة الاهرام

وقد اتفق المحققون من مؤرخي الافرنجة أن اسبانية كانت مجاز العلم من الشرق الى الغرب ومبعث أشعه العرفان أفاضها العرب فاستنارت بها اوروبا واهتدت بها طويلا وقد تركوا هنالك آثارا في الصناعة والزراعة والبناء رائحم مابقي عنهم منها مبانيهم التي لا تزال الى الآن بهجة السياح ودهشة الناظرين ، على انهم في أيامهم لم يتركوا فرعا من فروع العلم ولا شعبة من شعب التمدن الا ضربوا فيها بسهم وكانوا فيها القدوة لغيرهم فما شئت من طب وجراحة وصيدلة وفلسفة ومنطق وطبيعة وهيئة ورصد وحساب وجغرافية .

ومن أشبونة خرج الاخوة المغرورون هائمين في بحر الظلمات طمعا في الوصول الى بر وراءه يعدون اليه على ما ذكر الشريف الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق ، الى اختراق الآفاق) ونشره هذا العاجز في الجرائد اجابة لبعض السائلين عن ذلك من أهل أميركا ، وكانت عندهم مباديء في الفنون العسكرية والملاحة وعناية جزيلة بخزائن الكتب وحمل العلم وتأليف الاندية العلمية واختراع الآلات وهم الذين أدخلوا الى اوربا الكاغد والبارود من الصناعة ، على ما أدخلوه من النبات والشجر الجديد في الزراعة ، وبالاجمال فكانوا حملة العلم وانموذج الامم المتمدنة في القرون الوسطى ، وكانت اسبانية لعهدهم جنة الله في أرضه ، ونكتة معمور الدنيا بطوله وعرضه ؛ وغابت شموسها من بعدهم ؛ وأوحشت لفقدهم

وقد ذكر لافاله على وجه الاجمال مدنية الاسلام باسبانية وأتى على

بيان مزاياهم في الصناعة والزراعة والغراس والبناء، ووصف قصر اشبيلية وحمراء غرناطة وجامع قرطبة، وأطال في خصائص الهندسة العربية والزخرف الشرقي، ثم تكلم على أسلحة الاندلسيين وقرر أن العرب هم أول من استعمل المدافع النارية في اوربا وانهم هم الذين هدوا الاوروبيين الى صناعة البارود وعرفوهم بصنعة اخرى أشد تأثيراً على الاجتماع الانساني وهي عمل الورق، قال وانهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين وبلغوا الدرجة القصوى من الحضارة حينما كان اقرانهم ملفوفين في حنادس الجهالة والبربرية، فكانوا فوقهم في العلم ومثلهم البأس، وكانوا حكماء في المجالس، أشداء في المآزق، فان قيل فان كانت الحال على ماوصفت فلماذا سقطوا . . ؟ قلنا انهم ظلوا مدة ثمانية قرون لم تنقطع بينهم الفرقة والشقاق الذي كان يمزقهم كل ممزق، وانه أعوزهم روح الوئام والاتحاد الذي به قوة الامم وفلاحها

ولا أتعرض الآن لتفصيل ما انطوى تحت هذه التضاعيف مما يستغرق المجلدات الكبار لا سيما وإن ذيل هذه الرواية قد طال طولا أخاف عليه انتقاد القراء، والسبب فيه انني لم أستحضر التأليف بتمامه قبل طبعه وانما كنت أؤلفه وأنشره متتابعا، فحرصت أن لا يفوتني فيه شيء أعتقده مهما مما وصلت الى الاطلاع عليه يدي القاصرة ليأتي كتابا مستوفى في بابه، ويكون قد نقع الغليل في هذا السبيل، وجعلت أكثر اعتمادي في متأخر المدة على الكاتب الانكليزي اللغة واشنطون ارفن مع المقابلة بينه وبين غيره ومزاوجة النقل الافرنجي دائما مع الرواية العربية من نفح الطيب البي لم أطلع على سواها في هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى. ولا

يبعد اني ان حققت أشياء فوق ما كتبت بهذا الذيل مما يتعلق باخبار غرناطة أضفته الى هذا الكتاب في الطبعة التالية

ولا ينس القارىء اللبيب انني نبهته الى غرضي في مقدمة الذيل وهو التنقيب عن أخبار الحقبة الاخيرة من نزول المسلمين بتلك البلاد لان هذه القطعة هي أشد الاقسام احتياجا الى هذا المعزز من تأريخهم، واني لا أستحسن مذهب الكتابة فيما طال تعاور الاقلام اياه بلغة قوم، وصار التأليف فيه زيادة أعداد، واضاعة مداد

ومن الغريب أن هذا التاريخ فضلا عن ندوره بالعربي لمن أجدر المطالعات بالوعي لما جاء فيه من سير الابطال، وأوصاف مواطن النزال، وما تبطنه من غريب الوقائع الحاكية موضوع القصص ومولود الخيال، مما لا يعتري قارئه الملال،

ولا أكتم القاريء الذي هو خليق بان لا يخفى عليه ذلك بشفوف بصره ولطف حسه أن الامر غير خال في هذا الاملاء أيضا من نزعة جنسية، وحنوة عصبية، وهفوة للفؤاد وراء آثار بني الجلدة، مما تستشعر فيه مرضاة هذه النفس العظيمة السر، البعيدة مهوى الغرض، الغريبة شكل الهم، وتوفر به اللذة والراحة لهذ الوجدان الداخلي السائح في أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها، على ترجيح الاقرب فالاقرب، وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه والميل للاتصال بابناء أبيه فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التي هي جزء من هذا المجموع لما يحس من أن أقرب أنواع الدم الى دمه هو الجاري في عروق قومه، فهو يحن اليهم، ويحنو عليهم، ويتألم لالمهم، ويعتز بعزهم، وتراه اذا غابت أشخاصهم استأنس

بآثارهم بعد الاعيان، وارتاح الى مواطنهم ورغب فى الدوس على مواطيء أقدامهم ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذي يصاب بعزيز أو بذي قرابة يختلف الى قبره ، ويشفي بالبكاء عنده حرارة صدره ، واذاظفر بقطعة من ملبوسه أو مفروشه ، أو برقعة من خطه ، احتفظ بها ، وغالى فى قيمتها، وجعلها مدار أنسه ، في خلوات نفسه، وروح حياته ، فى منتبذ مناجاته ، وبناء على هذه القاعدة أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين ، وتطلعوا بغريزة فيهم الى معرفة سير السالفين ،ووقفوا على الاطلال الدوارس،وبكواعلى الدمن البوالي ، كأنما يجددون عندها عهودهم مع آبائهم ، ويشدون لديها معهم عروة وفائهم .

ومن هذا المأخذ انبعث الشعور بالميل الى احتذائهم ومحاكاتهم في سيرهم ، واقتفاص الخافي والبافي من أثرهم ، تصديقا لقول نبينا صلى الله عليه وسلم «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » (١) فياليتنا نتبع الآن سنن من قبلنا ونقتدي بسلفنا ونبني بناء اوائلنا، ونعتبر بحمراء غرناطتنا، وخضراء

---

(١) الحديث في مسند الصحيحين وتتمته أن الصحابة (رض) سألوه(ص) عمن قبلهم فقالوا يارسول اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفي رواية انهم فارس والروم وكلتاهما بمعنى والمراد أنهم بعد الاهتداء بالاسلام والاعتصام به سيبتدعون في دينهم ويتفرقون شيعا بعد اتحادهم كما فعل من قبلهم من الامم المجاورة لهم فيحل بهم من عقاب الله ما حل بأولئك ، وكذلك وقع ، وما حل بهم في الاندلس من الشواهد عليه . ولكن المؤلف أراد أن يعظ المسلمين من طريق آخر على طريق أسلوب الحكيم فتمنى لو اتبعوا سنن سلفهم الصالح فيما أصلحوا فيه قبل فساد أمرهم . وكتبه مصحح الطبع

كتاب

أخبار العصر

في انقضاء دولة بني نصر

أعني آخر دول الاسلام في الاندلس وهو تكملة لكتاب

مختصر تاريخ الاندلس

أو ذيل الذيل لرواية

آخر بني سراج

(تنبيه) طبع عن النسخة الوحيدة المطبوعة في أورنة ولم يعرف اسم مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المبدىء المعيد، المنشىء المبيد، الفعال لما يريد، الذي جرت أحكامه بمشيئته السابقة في جميع العبيد، من اعزاز واذلال، وإدبار واقبال، واكثار وإقلال، وهداية واضلال «كل ميسر لما خلق له» وجار على ما كتب له، سبحانه وتعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) نحمده سبحانه وتعالى على كل حال، ونشكره على جميع نعمه التي لا تحصى شكراً كثيرا دائما لا ينقطع بانقطاع الايام والليال ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له المنفرد بالعزة والجلال ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمد عبده ورسوله خاتم النبيين والارسال (١) صلى الله عليه وعلى آله والصحب والآل (٢) صلاة دائمة لا نفاد لها ولا زوال

﴿ اما بعد ﴾ فهذا كتاب اذكر فيه نبذة من بعض تاريخ ماوقع في مدة الامير أبي الحسن علي بن نصر بن سعد بن السلطان ابي عبد الله محمد ابن السلطان ابى الحسن بن الملوك النصريين ومدة ابنه محمد وأخيه محمد ايضا رحمهما الله، وكيف استولى العدو على جميع الاندلس في تلك المدة،

«١» لا نعلم الارسال تأتي جمعا لرسول وانما يجمع رسول على رسل وارسل ورسلاء ويمكن ان تكون بالكسر مصدراً لارسل اي ارسال الرسل وأن تكون جمعا لرسل محركة وهي الجماعة من كل شيء وأصلها القطيع من الابل والغنم يرسل الى المرعى ثم عمموه في الاستعمال ففيه معنى الرسالة والارسال وفي الاساس : وجهت رسلي ارسالا متتابعة : رسلا بعد رسل

«٢» لعل كلمة آله كانت سبق قلم لانها هي التي يسبق اليها الذهن لكثرة استعمالها فلما كتب الآل لاجل السجع لم يفطن لها فرجحها

وعولت في ذلك على الاختصار والاقتصار ، وتركت التطويل والاكثار، لان باعي في التأليف قصير ، وبضاعتي في الفصاحة مزجاة، وسميته بكتاب (أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر) والله الموفق للصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل،

قال المؤرخ عفا الله عنه لما استقام ملك الاندلس للامير ابي الحسن علي بن سعد ودانت له جميع الاندلس ولم يبق له معاند وذلك بعد خطوب واحداث وكوائن جرت له مع أبيه ومع قواده بعد موت ابيه في أخبار وكوائن يطول ذكرها وذلك أنه كان محجورا للقواد لم يكن له من الملك الا اسمه فاراد أن يقوم بنفسه ويزيل عنها الحجر فانفرد بنفسه عن قواده وانفرد معه بعضهم ووقعت بينهم حروب واحداث، وذلك أن قواده لما اعتزل عنهم أخذوا أخاه محمد بن سعد وكان اصغر منه سنا فبايعوه واشتعلت نار الفتنة بينهم فاظهر الامير أبو الحسن التوبة للناس ووعدهم ان قاموا بدعوته أن يصلح شأنهم وأن يظهر الاحكام وأن ينظر في مصالح الوطن ويقيم الشريعة ، فمالت اليه الرعية وأعانوه على مأنواه من مراده وغيرهم، الى أن أظفره الله بهم وذلك بعد حروب كثيرة وقعت بينهم وذلك ان أخاه محمداً نفلت من أيدي القواد الذين بايعوه وسار الى أخيه ابي الحسن واجتمع القواد كلهم في مدينة مالقة فحاصرهم فيها حتى أطاعوه فاخذهم وقتلهم كلهم وانقرضت الفتنة وخمدت نارها ودانت له جميع الاندلس ولم يبق له فيها معاند، وهو مع ذلك يغزو بلاد الروم المرة بعد المرة حتى غزا غزوات كثيرة وأظهر الاحكام ونظر في مصالح الحصون ونمى الجيش فهابته النصارى وصالحته براً وبحراً وكثر الخير وانبسطت الارزاق

الاموال وشح بالعطاء الى غير ذلك من الامور التي لا يثبت معها الملك. وكان له وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفة وهو بعكس ذلك وكان الامير أبو الحسن علي المذكور متزوجا ابنة عمه الامير الايسر وكان له منها ولدان محمد ويوسف فمن جملة انهماكه انه اصطفى عليها رومية اسمها ثريا وهجر ابنة عمه واولادها منه فادرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على أزواجهن ووقع بينهما نزاع كثير ومال الاولاد محمد ويوسف مع امهم وغلظت العداوة بينهم. وكان الامير أبو الحسن شديد الغضب والسطوة فكانت الام تخاف على أولادها منه فبقوا كذلك مدة وهو مشتغل بلذاته منهمك في شهوته ووزيره يضبط المغارم ويثقلها، ويجمع الاموال ويأتيه بها، ويعطيها من لا يستحقها ويمنعها مستحقها، ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، وقطع عنهم المعروف والاحسان، حتى باعوا ثيابهم وخيلهم وآلات حربهم وأكلوا ثمنها، وقتل كثيرا من أهل التدبير والرأي والرؤساء والشجعان من أهل مدن الاندلس وحصونها

فلم يزل مستمرا على حاله والجيش في نقص والملك في ضعف، الى أن انقضى الصلح الذي بينه وبين النصارى فلم يشعر أحد حتى دخلوا مدينة الحمة وذلك انهم طرقوها ليلا على حين غفلة من أهلها فدخلوا قصبتها وكانت خالية فلم يكن بها الا عيال قائدها فملكوا القصبة والناس نيام مطمئنون فلم يشعر أحد الا والنصارى قد هبطوا من القصبة على البلد بالسيف والقتل والسبي الشديد حتى قتل من نفذ أجله وهرب وفر من قدر على الفرار واستولى النصارى على البلد وجميع ما كان فيه من الرجال والنساء والصبيان والاموال وكان ذلك في التاسع من شهر المحرم عام سبعة

وثمانين وثمانمائة فبلغ أهل غرناطة ما فعلت النصارى باخوانهم المسلمين فاجت الرعية وقالوا لا صبر لنا على عيش بعد هـذه المصيبة العظمى إما أن نفك اخواننا أو نموت دونهم، فاجتمعوا مع الامير أبي الحسن ووزيره فجعل الامير والوزير يعجزانهم عن المسير ويتربصان ويقولان نأخذ أهبتنا ونعمل على حال الحرب فلم تزل بهما العامة حتى أخرجوهما فتقدم صدر الجيش فوجدوا النصاري قد أخرجوا من البلد ما سبوا من الرجال والنساء والصبيان والاموال وهم قد أوقروا الدواب بذلك وهم عازمون على المسير إلى بلادهم فلما رأوا خيل المسلمين قد أقبلت عليهم حطوا الاحمال ودخلوا البلد وتحصنوا بالاسوار ثم أقبل المسلمون بمحلتهم وقربوا منهم فقاتلوهم قتالا شديداً بجد وعزم وقلوب محترقة حتى دخلوا بعض الابواب من البلد وكسروه وحرقوه وتعلقوا بالاسوار وطمعوا في الدخول اليـه فبينما هم كذلك اذا بالامر من الامير أبي الحسن والوزير بالرجوع عن القتال فأبى الناس عن الرجوع (١) فقالا لهم اذا كان غداً ندخل عليهم أول النهار لان الليل قد دخل علينا فترك النـاس القتال ورجعوا الى محلتهم وبات النصارى يصلحون شأنهم ويمنعون أسوارهم ويغلقون نقابهم (٢) فلما أصبح نظر المسلمون الى البلد فاذا هو على صفة اخرى من المنعة والتحصين والاستعداد فصعب عند ذلك على المسلمين الدخول والدنو منه

ثم انهم عزموا على حصاره والاقامة عليه واقبلت وفود المسلمين من

---

(١) أبى يتعدى بنفسه وقد عداه بمن بتضمينه معنى امتنع

«٢» النقب هو الثقب والجمع انقاب ونقاب

فلما رأى العدو دمره الله ان المسلمين قد عجزوا عن أخذ الحمة ونصرة من فيها من الاسارى وقع له الطمع في بلاد الاندلس فأخذ في الاستعداد والخروج اليها فلما كان شهر جمادى الاولى من عام التاريخ المذكور قبل هذا خرج صاحب قشتالة بمحلة عظيمة وقصد مدينة لوشة فنزل عليها بمحلته وكان قد اجتمع فيها جملة من نجدة رجال غرناطيين سمعوا بخروجه اليها فلما قرب من البلد خرج اليه الرجال والفرسان فقاتلوه قتالا شديداً وردوه على عقبه وقتلوا كثيراً من النصارى وأخذوا لهم من تلك العدة التي قربوا بها انفاطاً وغير ذلك من عدة الحرب ثم ان الامير أبا الحسن أمدهم بقائد من غرناطة يقود جيشا من الفرسان في تلك الليلة فاشتد عند ذلك عصبة المسلمين وقويت قلوبهم فلما أصبح ورأى النصارى الزيادة في المسلمين مع ما نالهم في أول الليل من الهزيمة والقتل وأخذ العدة داخلهم الرعب واشتد خوفهم وأخذوا في الارتحال عنهم، فخرج اليهم المسلمون فقاتلوهم قتالا شديدا فانهزم النصارى وتركوا كثيراً من أخبيتهم وأمتعتهم واطعمتهم وآلة حربهم وتركوا من الدقيق شيئا كثيراً فاحتوى المسلمون على ذلك كله وانصرف العدو مفلولا مهزوما الى بلده وكان ذلك في السابع والعشرين لجمادى الاولى عام سبعة وثمانين وثمانمائة

وفي هذا اليوم لما بلغ الخبر لمن كان في لوشة ان ابني الامير أبي الحسن محمد ويوسف هربا من القصبة خوفاً من أبيهما وذلك أن شياطين الانس صاروا يوسوسون لامهما ويخوفونها عليهما من سطوة أبيهما ويغوونها مع ما كان بينها وبين مملوكة أبيهما الرومية تريا من الشحناء فلم يزالوا يغوونها حتى سمحت لهم بهما فاحتالت عليهما بالليل وأخرجتهما اليهم وساروا بهما

الى وادي آش فقام اهل وادي آش بدعوتها ثم قامت غرناطة أيضا بدعوتها واشتعلت نار الفتنة ببلاد الاندلس ووقعت بينهم حرب وكوائن اعرضنا عن ذكرها لقبحها لان الامر آل بينهم الى ان قتل الوالد ولده

ولم تزل نار الفتنة مشتعلة وعلاماتها قائمة في بلاد الاندلس والعدو دمره الله مع ذلك مشتغل بحيله في أخذ الاندلس الى أن ساعده الزمان ووافقته الاقدار ، فلما كان شهر صفر عام ثمانية وثمانين وثمانمائة اجتمع من زعماء النصارى واقنادهم (١) جمع عظيم ولم يكن معهم ملكهم وقصدوا قرى بلش وشرقية مالقة يريدون أخذ أهلها وفسادها فلما وصلوا تصالح أهل تلك الجهات واجتمعوا دون فرسان وصاروا يعرضون للنصارى في المضايق والمخانق والاوعار ويقاتلونهم فيها حتى قتلوا منهم خلقا كثيرا فلما رأى النصارى ذلك جعل الله الرعب في قلوبهم ووقع فيهم الخذلان فانهزموا في تلك القرى والمخانق والاوعار وصاروا يتهافتون فيها تهافت الذبان والمسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ولم تغن عنهم كثرتهم ولا عدتهم شيئا باذن الله ، وكان في وقت هذه الكائنة الامير محمد بن سعد بمدينة مالقة فلقيهم فقتل وأسر منهم خلقا كثيرا وولوا مدبرين ، وأسر منهم ما ينيف على ألفي اسير فيهم جماعة من قوادهم واقنادهم ، وهرب باقيهم وتركوا خيلهم ودوابهم ورجالهم وامتعتهم فاحتوى على ذلك كله المسلمون

---

(١) العرب في ايام الحرب الصليبية وحروب الاندلس حصلت لهم اللغة بألفاظ افرنجية عربوها على هوى نطقهم من جملتها لفظة كونت وهو من القاب الشرف عند الافرنج دون البرنسس فنطق بها العرب كند بضم الكاف وسكون النون وقند بالقاف وجمعوها على أقناد كما ترى

اليوم الخامس عشر لجمادى الاولى عام التاريخ المذكور فبينما أهل البيازين ينتظرون قدوم الامير محمد بن علي عليهم اذا به سار إلى مدينة لوشة ووقع الصلح بينه وبين عمه الامير محمد بن سعد أمير غرناطة في حينه على أن يسلم لعمه المذكور في المملكة ويكون هو من تحت يده وأرسل إلى البيازين بذلك وأدخلهم في الصلح فبينما هم كذلك إذا بصاحب قشتالة دمره الله أقبل بمحلته على مدينة لوشة فنزلها لامير محمد بن علي ومعه جماعة من أهل نجدة البيازين حين سمعوا بقدوم النصارى عليها تحصنوا بها مع أميرهم محمد بن علي المذكور فحاصرها العدو حصاراً شديداً ونصب عليها انفاطه وعدته وقرب اليها بجيشه وآلة حربه حتى دخلوا ربضها وهدموا بعض أسوارها بالاسباط وقتل كثير من نجدة الرجال واشتد عليهم الحصار فلما رأى أهل لوشة ما لا طاقة لهم به من شدة الحصار وكثرة جوع النصارى وتأخير أهل غرناطة عن نصرتهم طلبوا الامان واتفقوا أن يخرجوا مؤمنين باموالهم وأولادهم وخيلهم وسلاحهم ودوابهم وجميع ما يقدرون على حمله فاجابهم إلى ما طلبوا ووفى لهم به، فأخلوا البلد ورحلوا الى غرناطة بما معهم واستولى العدو على مدينة لوشة في السادس والعشرين من جمادى الاولى عام احدى وتسعين(١) وثمانمائة ولم يسرح صاحب قشتالة الامير محمد بن علي بل حبسه عنده ليستاصل به بقية الاندلس

فلما كان النصف الاول من جمادى الآخرة عام التاريخ المذكور خرج ملك الروم بمحلته دمره الله فقصد حصن البيرة فنزل عليه ونصب أنفاطه وعدته فلما رأوا ما لا طاقة لهم به من شدة القتال والحصار طلبوا منه الامان

---

(١) أثبت العدد هنا وفي مواضع تأتي وذكره في مواضع سبقت والقاعدة معروفة ولعل الاختلاف من تصرف النسخ أو الطبع. وكتبه مصحح الطبع

على أنفسهم وخيلهم ودوابهم واسلحتهم وجميع ما يقدرون عليه من أمتعتهم فاجابهم الى ما طلبوه منه ووفي لهم بما خرجوا وأخلوا له الحصن وصاروا الى غرناطة

ثم انتقل اليه و الى حصن مكلين فنزل عليه بمحلته وقرب منها بعدته وانفاطه وقاتلهم قتالا شديدا وهدم بعض الاسوار بالانفاط وكان له انفاط يرمي بها صخوراً من نار فتصعد في الهواء وتنزل على الموضع وهي تشتعل ناراً فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه (١) فكان تلك من جملة ما كان يخذل في أهل المواضع التي كان ينزل عليها

فلما رأى أهل حصن مكلين ما نزل بهم من البلاء وأن لا طاقة لهم به طلبوا الامان كما فعل أهل حصن البيرة وخرجوا مؤمنين باموالهم وفي لهم بما طلبوه منه

فلما سمع أهل حصون قلنبيرة ما حل بمن جاورهم من الحصون خافوا على أنفسهم فطلبوا من العدو ادره الله الامان على أنفسهم وأموالهم وأن يعطوه الحصن من غير قتال ففعل لهم ذلك وأعطوه الحصن ثم رحلوا الى غرناطة باموالهم وأمتعتهم وأولادهم

وتوجه العدو الى منتفريد فنصب عليه عدته وانفاطه وقاتله قتالا شديدا فلما رأوا ما لا طاقة لهم به ولم تغن منعة الحصن شيئا أذعنوا وطلبوا الامان مثل طلب أهل الحصون المتقدمة فأجابهم الى ما طلبوا وخرجوا مؤمنين بما معهم من الامتعة قاصدين مدينة غرناطة أيضا

وكذلك اتفق بحصن الضحة أيضا واستولى في هذا الشهر المذكور على جميع هذه الحصون وصارت بيده وتوجه بها غرناطة وأخذ في بناء هذه الحصون

---

(١) أشبه بالشرابنل وغيره من مقذوفات المدافع الحديثة

وتمنيعها وتحصينها واصلاح شأنها وإشحانها بجميع ما تحتاج اليه من طعام وعدة ورجال وغير ذلك ليضيق على اغرناطة

ثم إن العدو دمره الله تعالى ارتحل الى بلاده فبقي فيها بعض أشهر وسرح الامير محمد بن علي وأمره بالخروج الى حصون الشرقية كيدا منه ومكرا ليعمل الحيلة على تلك الجهة فخرج الامير محمد الى حصن بلش من حصون شرقية الاندلس فقام بدعوته ودخل ثم جعل يكتب الى المواضع ويرسل الكتب ويعدهم بالصلح مع النصارى ان أطاعوه فلم يقبل منه ولم يقم بدعوته أحد، فلم تزل شياطين الفتنة يوسوسون ويعدون الى أن وجدوا في ربض البيازين من غرناطة طائفة من أهل الشر والفساد فقبلوا قولهم ووعدوهم أن يقوموا بدعوته ان كان له صلح مع النصارى، أخفوا حديثهم ولم يظهروه، ثم ان حصون الشرقية قامت بدعوته طمعا في الصلح مع النصارى وبقي الامير محمد بن علي يكتب الى المواضع والقرى ويخبرهم ان معه صلحا مع النصارى صحيحا فلم يقبل منه احد ذلك فلما راي اهل البلد لم يقبلوا منه اتفق رايه ان يسير بخاصته الى ربض البيازين فأخذ من خاصته ومن(؟) يثق به وخرج عن حصون الشرقية قاصداً ربض البيازين من غرناطة فدخل ربض البيازين على حين غفلة من عمه محمد بن سعد امير غرناطة ولم يشعر به احد حتى دخل واجتمعت معه تلك الطائفة المذكورة قبل وانضاف اليه آخرون فاشتدت عصابته وغلظت شوكته وامر مناديه ان له صلحا مع النصارى صحيحا فقام اهل البيازين بدعوته ولم يقبل منه اهل غرناطة ما ذكر من الصلح وانه ليس بصحيح، فاشتعلت نار الفتنة بين

بمحلته الى أرض المسلمين فقصد الى مدينة باش مالقة وكانت على ذمة أمير غرناطة فنزلها فلما سمع أمير غرناطة بنزوله على مدينة باش ندب أهل غرناطة ومن أطاعه من أهل الجهات وترك طائفة تقاتل أهل البيازين وخرج يريد نصرة أهل باش وذلك يوم السبت الرابع والعشرون لربيع الثاني (١) من عام التاريخ المذكور قبل فلما صار قريبا منها وجد المدو سبقه بالنزول عليها وداربها من كل الجهات فقصد الامير حصن منتميس فنزله بمحلته وأقام به بعض ايام فطلبه الناس ان يسير بهم نحو المدو للقائه فتوجه بهم نحوه فرتبهم وكان ذلك عشية النهار فدخل عليهم الليل بالطريق فبينما هم سائرون إذ قامت كرة ودهشة فانهزموا في ظلام الليل من غير لقاء المدو ولا قتال فرجعوا مهزومين مفلولين الى محلتهم فباتوا ليلتهم تلك فمن غد أتاهم الخبر ان المدو استخلص مدينة باش فسقط في أيديهم وانهزموا من غير قتال ومر كل أحد الى وطنه

وقصد الامير محمد بن سعد غرناطة فأخبر في طريقه ان غرناطة قامت بدعوة ابن اخيه محمد بن علي ودخل البلد وملكه وقتل القواد الذين كانوا بالبلد يقاتلونه فلما سمع عمه الامير محمد بن سعد ذلك رجع الى عقبه (٢) يريد البشرة فسار بمن هنالك الى وادي آش فدخلها بمن معه وكان قيام أهل غرناطة بدعوة أمير البيازين محمد بن علي يوم الاحد الخامس من جمادى الاولى عام التاريخ المذكور قبل فدخل البلد ونزل في القصبة القديمة واستولى العدو دمره الله على باش يوم الجمعة العاشر من جمادي الاولى عام اثنين وتسعين

(١) تكرر هذا في قوله والمنقول ربيع الآخر ويظهر ان قول المولدين ربيع الثاني من عصر المؤلف أو ما قبله «٢» انما يقال رجع أو نكص على عقبيه وكتبه مصحح الطبع

وثمانمائة ولما استولى العدو دمره الله على بلش دخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل منتميس وحصن قمارش وخرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين وحملوا ماقدروا على حمله من اموالهم وذلك بعد قتال شديد وحرب عظيم فمنهم من جوزه العدو الى أرض العدوة ومنهم من اقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار الى ارض المسلمين التي بقيت بالاندلس

فلما استخلص العدو بلش وماحولها سار بمحلته نحو مدينة مالقة فنزل عليها وقاتلها قتالا شديداً وحصرها وأحاط بها من كل جانب ومكان براً وبحراً فتحصن اهل مالقة ببلدهم واظهروا ماكان معهم من السلاح والعدة والانفاط وكان جملة من نجدة الرجال فقاتلوا الروم قتالا شديداً وقتلوا منهم خلقا كثيراً والعدو يفتح عليهم ابوابا من الحرب والخيل والمسلمون يحرسون بلادهم ويغلبون عدوهم ويقتلون من قرب اليهم وهم صابرون محتسبون مدة طويلة حتى ضيق عليهم ودور على المدينة سوراً من تراب وسوراً من خشب وحفيراً مانعا ومنع عليهم الداخل والخارج في البر ومنع أيضا في البحر بالمراكب الداخل والخارج وشد عليهم القتال والحصار وهم مع ذلك صابرون محتسبون ويقاتلون اشد القتال ويمنعون ولا يظهرون جزعا ولا هلعا ولا يطعمون العدو في شيء مما يرومه منهم حتى نفد ماعندهم من الاطعمة والزاد وأكلوا ماكان معهم من المواشي من خيل وبغال وحمير وكلاب والجلود وورق الشجر وغير ذلك من الاشياء التي يمكن أكلها حتى في ذلك كله وأثر فيهم الجوع أثراً عظيما ومات كثير من نجدة (١)

« ١ » أي من أنجاد رجالهم وجمع نجد على نجدة لم أجده وانما جمع نجد بمعنى شجاع على انجاد وان كان المفرد هو النجيد فتجمع على نجد بضمتين ونجداء ولعله أراد بنجدة جمع ناجد فأجراها مجرى فاعل وفعلة

رجالهم الذين كانوا يوالون الحرب والقتال فحينئذ اذعنوا وطلبوا الامان فاحتال عليهم العدو حتى دخل البلد بمكر ومكيدة وأسرهم وسبي نساءهم وأولادهم واحتوي على جميع أموالهم وفرقهم على أهل دخلته وقواده وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس وتبكي لمصابهم العيون فانا لله وانا اليه راجعون

وكان استيلاء العدو على مدينة مالقة في أواخر شعبان عام اثنين وتسعين وثمانمائة فحين خلصت للعدو دمره الله مدينة مالقة وبلش وجميع الغربية ولم يبق للمسلمين فى تلك الناحية موضع واحد ارتحل الى بلاده من قشتالة وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج نحو حصون الشرقية وكانت فى صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها غدراً ومكرا من غير قتال ولاحصار ولا تعب وصارت جميع حصون الشرقية فى قبضته وتحت ايالته ثم رجع الى بلاده من قشتالة

وفي شهر رجب سنة اربع وتسعين وثمانمائة خرج العدو دمره الله بمحلته وعدته وقصد نحو حصن موجر فحاصره وقاتله قتالا شديداً أياما قلائل فاستولى عليه واستولى أيضا على الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة وقصد مدينة بسطة فنزل قريبا منها فوجد بلدا مقيما بالخيل والرجال والعدة والطعام فكلما قرب من البلد وأراد قتال المسلمين رجع خائبا خاسرا وقتل خلق منه كثير ولم يقدر يمنع داخلها وخارجها كما فعل بغيرها من المدن وكان يدخلها كل من جاءها من نجدة الرجال فبقي محاذيا لها شهر رجب وشعبان ورمضان والمسلمون قائمون ببلدهم غالبون لعدوهم فكلما أراد الدنو من البلد قمعوه وردوه على عقبه خائبا خاسرا لم يقدر على نصب نفط ولا عدة من آلة

فقبض صاحب قشتالة ذلك كله من غير قتال ولا حصار ولا تعب ولا نصب فانا لله وانا اليه راجعون وجعل فى كل قصبة قائداً نصرانيا مع جماعة من النصاري يحكم أهل ذلك الموضع وفى هذا الشهر المذكور خلصت جميع بلاد الاندلس لصاحب قشتالة ودخلت تحت طاعته وتدجن (١) جميع أهلها ولم يبق للمسلمين في الاندلس غير مدينة غرناطة وماحولها من القري خاصة وزعم كثير من الناس أن الامير محمد بن سعد وقواده باعوا من صاحب قشتالة هذه البلاد والقري التي كانت تحت طاعتهم وقبضوا منه ثمنها وذلك على وجه الفرصة والانتقام من ولد أخيه محمد بن على وقواده لانهم كانوا في غرناطة ولم يكن تحت طاعتهم غير غرناطة وكان في صلاح العدو فاراد بذلك قطع علائق غرناطة لنهلك كما هلك غيرها

فلما صارت هذه البلاد كلها تحت ذمة العدو ولم يبق لصاحب قشتالة سوي غرناطة التي هي في صلاحه ورأى أن الاسلام دثر من جميع بلاد الاندلس وقع طلبه ونقض ما كان بينه وبين صاحب غرناطة محمد بن علي من الصلح (٢) فاخذ برج ملاحة غرناطة وبرج قرية همدان وكانا برجين كبيرين حصينين فزادهما تحصنا وتمنيعا وأشحنهما بالرجال وما يحتاج اليه من آلة الحرب ليضيق على أهل غرناطة لانهما كانا قريبين منها فضيق بذلك عليها أشد الضيق

« ١ » معلوم ان المدجنين هم المسلمون الذين دخلوا تحت حكم النصارى في الاندلس وقد اشتق المؤلف منه فعل تدجن

« ٢ » ما اشبه الليلة بالبارحة وما أقرب هذه الافعال من سياسة الدول المستعمرة اليوم في اغرائها أحد امراء الاسلام بقتال جاره حتى اذا قضت وطرها من جاره قلبت ظهر المجن لهذا الذي كان يظن انها حالفته

To: www.al-mostafa.com

وفي هـذه السنة وهي سنـة خمس وتسعين وثمانمائة بعث ملك النصارى الى صاحب غرناطة محمد بن علي يسأله أن يعطيه مدينة الحمراء من غرناطة ويترك للامير محمد المذكور سائر البلد والدخول في ذمته كما دخل فيها سائر الاندلس وظن أن ذلك يتم له فاطمعه الامير محمد بن علي في ذلك فخرج صاحب قشتالة مسروراً بحلته لقبض مدينة الحمراء غرناطة وللنزهة فيها وخرج معه النساء والصبيان بقصد النزهة ولم يظن أن في مدينة غرناطة مدافعاً له ولا مقاتلا ولا معاندا

فحين وصل خبر خروج صاحب قشتالة وأنه قادم على غرناطة حسبما ذكر جمع أمير غرناطة خاصته وعامته وأخبرهم بمراده وما طلب منه وانما خروجه ليدخل البلد على الصفة المذكورة واستشارهم في ذلك فاجمعوا على قتاله ومدافعته عنهم بما أمكنهم حتى يفتح الله عليهم أو يهلكوا عن آخرهم وتعاهدوا مع أميرهم أن يكونوا يداً واحدة على قتال عدوهم فبلغ ملك النصاري مقالتهم وما اتفقوا عليه فساءه ذلك وغمه فجمع جميع جيوشه ونزل بمحلته مرج غرناطة وجعل يقطع الطرق ويفسد الزرع وغيره فخرج اليه فرسان المسلمين من أهل غرناطة يقدمهم القواد وبرز الامير مع الرجال قريبا من البلد فلوبهم واثقة بالله يسألون من الله سبحانه النصر والمعونة على عدوهم وخرج معه ملك الروم في محلته جماعة من المرتدين الداخلين في ذمته من أهل الحصون والقري والمدن (١) يدلونه على عورات المسلمين ويحرضونه على قتالهم وكان خروج الروم في أول رجب من سنة التاريخ فكلما أرادوا الدنو من البلد وفتحوا اللكرب بابارد هم الله

«١» قد ورد فيما نقلناه عن تواريخ النمر نجة وعن المقرى طرف من خبر هؤلاء المرتدين

على أدبارهم مهزومين مفلولين بنصر الله ومعونته وفرسان المسلمين صابرون محتسبون حتى قتلوا من الروم خلقا كثيرا فلما عاين ملك الروم انه لا طاقة له بالدنو من غرناطة وان بها حماة من الفرسان والرجال منعوها من كل جهة ومكان وايدهم الله بعزيز نصره ولم يتركوه يجد فيها فرصة ارتحل عنها بعض ارتحاله عن الغيظ وذلك في النصف من شهر رجب عام تاريخه رهدم برج غَوِيو وزاد اشحانا للبرج من المرتدين أهل القرية وشرذمة أخرى من النصارى وشيأ كثيرا من الطعام والعدة وآلة الحرب وعمر أيضا برج الملاحة وشحنه بمثل ذلك ورحل الى بلاده من قشتالة فبعد ارتحاله بايام قلائل خرج أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن على الى قرية البذول وقاتلوا من بها من النصارى والمرتدين حتى فتحها الله تعالى ودخلوها عنوة وفتح الله ذلك الاقليم كله ودخل في ذمة المسلمين فرجع أهل غرناطة الى بلادهم فرحين مستبشرين بنصر الله تعالى (١) فبعد وصولهم وردت عليهم ارسال من قبل قرى البُشَرّة يطلبون من الامير محمد أن يقدم عليهم بجيش المسلمين ليدخلوا في ذمته نخرج اليهم من غرناطة فى بقية رجب المذكور بجماعة المسلمين من أهل غرناطة فقصد قرية الانجرون من قرى البشرة فنزل هنالك وانجلى من كان هنالك من النصارى والمرتدين

فلما كان شهر شعبان من سنة التاريخ بعث من بالبشرة الى الامير بغرناطة يعلمه ان هذه الجهات التي بقيت مع النصارى بعثوا أن يقدم الامير

---

(١) وترك الامير وزيره بجماعة انجاد الفرسان يقاتل من بقي . . . من النصارى والمرتدين . اهـ من حاشية الاصل المطبوع

محمد بن علي عليهم ليدخلوا في ذمته فبرح (١) الامير على أهل نجدة فرسان غرناطة وخرج بهم في العشر الاول من عام التاريخ يريد البشرة فقصد حصن اندرش وكان به الامير محمد بن سعد وجماعة المرتدين فلما سمع بقدوم الامير محمد بن على بجيش أهل غرناطة خرج بمن معه من المرتدين هاربا مهزوما الى مدينة المرية ورجع كثير ممن كان معه الى المسلمين ودخل أمير غرناطة بمحلته حصن اندرش واسترجعت تلك الجهات كلها الى الاسلام كما كانت أولا من غير حرب ولا قتال وسمع من كان ببرجة وديد بذلك فهربوا ورجعت ايضا تلك الجهات كلها الى المسلمين فرتب الامير محمد بن على هنالك قوادا وفرسانا وارتحل نحو غرناطة فدخلها فى نصف من شعبان عام خمسة وتسعين وثمانمائة بمن معه من جيوش المسلمين وعامتهم فرحين مستبشرين بنصر الله تعالى وتأييده

فلما كان العشر الاول من شهر رمضان عام التاريخ أتت طائفة من المرتدين والنصارى فغلبوا على حصن اندرش فملكوه وفر منه من كان به من فرسان المسلمين لانهم كانوا شرذمة قليلة واتاهم مالا طاقة لهم به وفي السادس من شهر رمضان عام التاريخ خرج ملك غرناطة بمحلته نحو قرية همدان يريد فتحها وأمر باخراج العدة وآلة الحرب وكان بالقرية المذكورة جماعة من فرسان النصارى دمرهم الله والمرتدين من أهل القرية وكان ملك النصارى بنى حول برجها بنيانا عظيما منيعا بأنواع من بناء الحرب وخندقه وحصن برجها تحصينا منيعا وأشحنه بكثير من الطعام وآلة

---

(١) اهل المغرب يستعملون برح عليه بمعنى نادى وهو من البراح بمعنى الامر البين والجهر

الحرب والمنعة يظهر لمن رآه أن لاطاقة لاحد بأخذه لما يراه من تشييد بنائه وتحصينه وتشعب أسواره وظن أهل غرناطة انهم لا طاقة لهم باخذ ذلك ولا افتحه فحين نزل أهل غرناطة مع امرهم بقرية همدان فتحصن (١) من بها من النصارى والمرتدين بحصنهم ودارت بهم جيوش المسلمين من كل جانب بالقتال الشديد حتى قربوا من السور الاول فجعلت كل طائفة من المسلمين نقبا حتى دخلوا معهم في الحزام الاول ثم في الثاني ثم في الحزام الثالث حتى الجئوهم الى داخل البرج وذلك بعد محاربة وقتال شديد واستشهد فيه جماعة من المسلمين رحمهم الله تعالى فحين وصل المسلمون الى أصل البرج أخذوا في نقبه فجعلوا ينقبون ويدعمون بالخشب الى أن نقبوا فيه نقبا كثيراً فلما رأى من في البرج أن النقب قد كثر خافوا من اهدام (٢) البرج عليهم ويهلكوا (٣) فاعطوا البرج واذعنوا للاسر فأسروا عن آخرهم ومن معهم من المرتدين واحتوى المسلمون على ماكان في البرج من الطعام والعدة والاموال ونحو مائة وثمانين أسيراً

ثم أقبل الامير بمحلته راجعا الى غرناطة في اليوم الحادي عشر لرمضان المعظم عام التاريخ وفرح المسلمون بما منحهم الله وفتح عليهم فرحا شديداً فأقام الامير بها الى الثامن عشر من رمضان المذكور عام التاريخ ثم نادى مناديه في كافة أهل غرناطة من خاص وعام وكبيرهم وصغيرهم

---

(١) كذا ولعل أصله تحصن لانه متعلق حين ومابعد ان ولا يعمل فيما قبلها ، اه مصححه الطبع

(٢) يقال هدم البناء وهدمه بالتشديد ولم ينقل وأهدمه فلعله تحريف (٣) وفي نسخة ويهلكون

أمرهم بالاستعداد والخروج الى مدينة المنكب يريد فتحها فخرج بعد صلاة الجمعة من ذلك اليوم بمحلته فجاز على قرية البذول فأمر بهدم برجها ثم سار نحو الساحل فاجتاز حصن شلوبانية فتحصن من بها من النصارى والمرتدين بحصنهم وقاتلوا المسلمين فزحفت اليهم جموع المسلمين وقاتلوهم قتالا شديداً حتى دخلوا الحصن والجئوهم الى القصبة فتحصنوا بها ودار بهم المسلمون من كل جانب ومنعوا لهم(١) الماء وضيقوا عليهم في الحصار حتى نفدت الخيل والدواب من شدة ما لحقهم من العطش فأقام عليهم المسلمون بقية رمضان وهم طامعون في فتح الحصن واذا بخبر جاء الامير أن طاغية الروم خارج بمحلته نحوهم يريد غرناطة في ثالث شوال عام تاريخه فأقاموا بها نحو ثلاثة أيام أو أربعة واذا بملك النصارى أقبل بمحلته ونزل مرج غرناطة ومعه طائفة من المرتدين والمدجنين يدلونه على عورات المسلمين ويعينونه عليهم فجعلوا يقطعون الذرة والكرمات ويفسدون، والمسلمون على قلتهم وضعفهم صابرون على القتال محتسبون لله تعالى، يقتلون من الكفار خلقا كثيراً حتى منعوهم عن فساد كثير من الذرة والكرمات التي بالفحص (٢) فأقام نازلا عليهم نحو ثمانية أيام وأمر باخلاء برج الملاحة وبرج رومة وهدمهما وارتحل يريد بلاد قشتالة فمر في سيره على برج اللوزات فأمر بهدمه ثم انطلق الى مدينة وادي آش فاخرج من كان بها من المدجنين ولم يترك بها ولا في ارباضها أحداً منهم فخرجوا من مدينتهم

«١» لعل أصله ومنعوهم فانه يقال منعه الشيء ومنعه منه وعنه . اهمصحح الطبع

(٢) الفحص الربض

تزداد ضعفا والمدد يأتيه من بلاده ونحن لامدد لنا وهذا فصل الشتاء قد دخل ومحلة عدونا قد تفرقت وضعفت وهو قد قطع عنا الحرب وان تكلمنا معه الآن قبل منا واعطانا كل مانطلب منه وان بقينا حتي يدخل فصل الربيع تجتمع عليه جيوشه مع مايلحقنا نحن من الضعف والقلة فلن يقبل منا مانطلبه منه ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ولا على بلدنا فانه هرب من بلدنا ناس كثير يدلونه على عوراتنا ويستعين بهم علينا. فقال الامير محمد انظروا مايظهر لكم وما تتفقون عليه من الرأي الذي فيه صلاحكم، فاتفق رأي الجميع من خاصة وعامة أن يبعثوا لملك الروم من يتكلم معه في أمرهم وأمر بلادهم ،وزعم كثير من الناس ان أمير غرناطة ووزيره وقواده كان تقدم بينهم وبين ملك الروم النازل عليهم الكلام في اعطاء البلد الا انهم خافوا من العامة وكانوا يحتالون عليهم بلاطفونهم فخين أوهم بما أضمروا عليه عنوهم من حينهم ولاجل ذلك قطع الحرب بينهم في تلك المدة المذكورة حتى وجدوا لذلك الكلام مسلكا مع العامة فلما بعثوا لملك الروم بذلك وجدوه راغبا فيه فانعم لهم بجميع ما طلبوا منه وما شرطوا عليه

ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك الروم: يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون الا الزكاة والعشر لمن اراد الاقامة ببلدة غرناطة، ومن اراد الخروج منها يبيع اصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع اصله ويحمل امتعته ويحمله في مراكبه الى اي ارض اراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة من ثلاث سنين، ومن اراد الاقامة من

المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ما ذكر. وكتب لهم بذلك كتابا وأخذوا عليه عهودا ومواثيق في دينه مغلظة على ان يوفي لهم بجميع ما شرطوه عليه

فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على اهل غرناطة فلما سمعوا ما فيها اطمأنوا اليها وانقادوا لطاعته وكتبوا ببيعتهم وارسلوها لملك الروم صاحب قشتالة وسمحوا له في الدخول الى مدينة الحمراء والى غرناطة فعند ذلك امر امير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازهها واقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة اقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء واقام ببقية الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر وكان طلب من اهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من اهل البلد ليطمئن بذلك فاعطوا خمسمائة رجل منهم واقعدهم بمحلته فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما اطمأن من اهل البلد ولم ير منهم غدراً سرح جنوده لدخول البلد والحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقي هو خارج البلد واشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائداً من قواده وانصرف راجعا الى محلته وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والعارفات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج اليه وقدم في البلد قواداً وحكاما وبوابين وما يحتاج البلد اليه من الامور وصار المسلمون يختلفون الى المحلة للبيع والشراء والنصارى كذلك ولما سمع أهل البشرة ان أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا ببيعتهم الى ملك النصارى ودخلوا في ذمته ولم يبق للمسلمين موضع بالاندلس فانا لله وانا اليه راجعون

ثم ان ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ومؤمنين في اموالهم وانفسهم مكرمين واقبل في جيوشه حين اطمأن فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه وبقي الجند خارج البلد وبقي يتنزه في الحمراء في القصور والمنازه المشيدة الى آخر النهار ثم خرج بجنوده وصار الى محلته فمن غد أخذ في بناء الحمراء وتشييدها وتحصينها واصلاح شأنها وفتح طرقها وهو مع ذلك يتردد الى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته فلم يزل كذلك الى ان اطمأنت نفسه من غدر المسلمين حينئذ دخل البلد ودار فيه في نصر من قومه وحشمه فلما اطمأن في البلد سرّح لهم الجواز واتاهم بالمراكب الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنانه وارض حرثه وكرمه وفدانه باقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والامتعة، وأمرهم بالمسير الى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى في البحر محترمين مكرمين مؤمنين

وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ملكنا أعز وأكرم منا، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيداً ليقرهم بذلك وليثبطهم عن الجواز، فوقع الطمع الكثير من الناس وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وامتعة وعزموا على الجلوس مع النصارى

ثم إن ملك الروم أمر الامير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى بقرية اندرش من قرى البشرة فارتحل الامير محمد بعياله وحشمه وأمواله

واتباعه فنزل قرية انذرش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ،ثم ان الطاغية ظهر له أن يصرف الامير محمدا الى العدوة فامره بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمربى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الامير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة سبتة ليلة من عدوة العرب ثم ارتحل الى مدينة فاس حرسها الله، وكان من قدر الله تعالى لما جاز الامير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر ورجع بعض ناس من الذين جازوا الى الاندلس فاخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الاقامة والدجن ولم يجوّز النصارى أحداً بعد ذلك الا بالكراء والمغرم وعشر المال

فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا (١) الى ان نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وادركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الاذان من الصوامع وامرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى فخرجوا اذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصر واكرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ،

١) وهذه أيضا من الامور التي لها نظائر كثيرة في تاريخ الاستعمار .

وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الاذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلا غزيراً، وينظرون اولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للاوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أتم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم، ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، وعذب بأشد العذاب، فيالها من فجعة ما أمرها، ومصيبة ما أعظمها، وطامة ما أكبرها، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجاً انه على كل شيء قدير

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية ونجر والبشرة وأندرش وبلفيق فجمع عليهم ملك الروم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم، ونصرهم واستعبدهم، الا أن ناساً في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل وعر منيع فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقناد.

فلما رأى انه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الامان ويجوزهم لعدوة الغرب مؤمنين فانعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئاً من

أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا عليه ، ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى والبلدان ، وانطفي من الاندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا فليبك الباكون وينتحب المنتحبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، لا راد لامره ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الي يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين

نجز كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة
بني نصر يوم الثلاثاء الرابع
والعشرين من جمادي
الثانية من
عام ٩٤٧

اثارة تاريخية

فى

أربعة مراسيم سلطانية

صادرة

عن أبي الحسن علي بن ابي النصر بن ابي الاحمر

الى بعض فرسان الاسبانيول وزعمائهم

بين سنتى ١٤٧٠ و ١٤٧٥

طبعت عن نسخة مطبوعة بباريس سنة ١٨٦٣

*

المرسوم الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الامير المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيده الله بنصره، وأمده بيسره، إلى الفارسين المكرمين الزعيمين الحسيبين المشكورين الوفيين ذوي دياقه هرّ ذرس المرشكال ومرتين الهنشه ذي منت ميور صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه، وأسعدهما بهداه، سلام يراجع سلامكم كثيرا أثيراً، كتبنا اليكم من حمراء الملية بغرناطة حرسها الله عن الخير والعافية والحمد لله

وإلى هذا فاعلموا أيها الفارسان المكرمان انه وصل كتابكم وفهمنا جميع ماذكرتم فيه فشكرنا تعريفكم وقصدكم وأثنينا على محبتكم ومودتكم وشكرناكم على وصولكم للقبذيق، وعلى إظهار المحبة التي لاشك فيها فأنتم علم الله عندنا من أحبابنا الاوفياء، وأصدقائنا الاصفياء، وبسبب انه وصلنا التعريف ان ذوي الهنشه والفرسان جازوا على توجه وزيرمقامنا الجهة وادي آش ولأجل انه توجه سريعا ولم يصح عندنا من الاخبار شيء بصحيح ماعرفكم بشيء فنريدكم ان لاتزالوا تعرفونا بمايزيد عندكم وكذلك نحن نعرفكم بمايزيد عندنا، وجميع حوائجكم عندنا مقضية والله يعمل كرامتكم بتقواه

كتب في (التاسع) عشر لربيع الاول عام خمسة وسبعين وثمني ما(يه) صح هذا؟

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. ليعلم من يقف على هذا المكتوب الكريم أو يسمعه اننا عبدالله امير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين ابي النصر ابن الامير المقدس ابي الحسن ابن امير المسلمين أبي الحجاج ابن امير المسلمين ابي عبدالله ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن أمير المسلمين ابي الوليد بن نصر ايدنا الله بنصره .. وأمدنا بيسره ..

كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الاوفى ذون دياقه هرّ ندس ذي قرطبة قند قبره بن قند حصن اشر صاحب بيانه وقائد القلعة والفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور مرتين الهنشه ذي منت ميور صاحب القبذيق والفارس المكرم الحسيب الزعيم المشكور ييغش بنيغش صاحب لك والبندين اكرمهم الله بتقواه صلح ثابت، ومحبة صادقة، ومودة خالصة، منعقدة لامد معلوم ، ولاجل أن هذه المحبة التي بين مقامنا وبين الفرسان المذكورين هي تزداد في كل يوم وفي كل حين ونحن نريد أن تزيد اكثر من ذلك وانا نجددها الآن، وان ندخل في الصلح والمحبة الفرسان المكرمين ييغش بنيغش صاحب لك والبندين وذون دياقه هر ندس المرشكال بقشالة والوزير الكبير بقرطبة وذون مرتين قنددور استبه اولا القند ذي قبره فلاجل ذلك تعلمون ايها الفرسان المكرمون والاحباب المشكورون ذون ذون دياقه هر ندس ذي قرطبة قند قبره وبن قند حصن اشر وصاحب بيانه وقائد

القلمة ومرتين الهنشه ذي بنت بيور صاحب القبذيق و يبغش بنيغش صاحب لك والبندين وذون دياقه هرندس الرشكال بقشتالة الوزير الكبير بقرطبة وذون مرتين قنددوراستبة اكرمكم الله بتقواه ان مقامنا الكريم يعقد ويجدد معكم صلحا صحيحا ومحبة ثابتة خالصة لهذه من عشرة اعوام اعجمية متوالية يكون اولها اول يوم من شهر يناير الاعجمي مفتتح عام اثنين وسبعين واربعمائة والف لتاريخ المسيح ويكون تمامها آخر يوم من شهر ذجنبر الاعجمي عام احد وثمانين واربعمائة والف لتاريخ المسيح المذكور على ان نكون احباب احبابكم واعداء اعدائكم وان ننيكم في جميع الامور التي تحتاجون اليها في وطنكم بقدر جهدنا على جميع اعدائكم من اي صنف كانوا للمدة التي تريدونها وفي الوقت الذي تعرفونا بحاجتكم في الاعانة او توجهوا رسولكم في طلب ذلك نعينكم بقدر جهدنا، وكذلك نعرفكم ايها الفرسان المكرمون بجميع ما نعلمه أو نتعرفه من سر أو غيره مما لا يكمل لحرمتكم نعرفكم بذلك سريعا مع رسول صادق معروف لاجل ان تجعلوا خلاصا في أرضكم قبل وقوع الفساد، واذا تبين ضررا لجهتكم نجتهد في تبعيده عنكم، وان تبين فائدة أو مصلحة لجهتكم نجتهد في تقريبها لكم، ونحفظ المودة والصحبة المنعقدة بيننا وبينكم في الاقوال والافعال،

واعلموا أيها الفرسان المكرمون المذكورون أن أولادنا الامراء أسعدهم الله يحفظون لكم هذا الصلح وهذه المحبة والصحبة مثلما نحفظها نحن بخاصة مقامنا الكريم فانكم من أجل أحبابنا الاوفياء، وأصدقائنا الاصفياء، ومن أهل رأينا الكبراء، فجانبكم عندنا محفوظ ومحبتكم صحبة ثابتة، لا نشك في صدق محبتكم ولا في خلوص مودتكم، ونحن نعاهدكم على صحة جميع ما ذكرنا

لكم ونحلف لكم بالله الواحد الحق على أن كل ما ذكرنا لكم نوفي به ونحفظه ونحرزه بالقدر والوفاء فى كل وقت من غير غدر ومن غير خداع. ولأجل أن يكون هذا العقد صحيحا وثابتا ختمناه بعلامتنا السعيدة الصادرة من يدنا الكريمة وجعلنا عليها طابعنا العزيز المعهود عن مقامنا الكريم. فى أوائل رجب الفرد المبارك عام ستة وسبعين وثمانمائة عرف الله بحكمته. صح هذا ؟

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الامير المقدس أبي الحسن ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيده الله بنصره، وأمده بيسره، إلى الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الاوفى دون دياقه هرندس ذي قرطبة قند قبره بن قند حصن أثر صاحب بيانه وقائد البلغة أكرمه الله بتقواه وأسعده بهداه.

سلام يراجع سلامكم كثيرا أثيرا كتبناه اليكم من الحمراء العلية بغرناطة حرسها الله عن الخير والعافية والحمد لله والى هذا فاعلموا أيها الفارس المكرم والقند المرفع انه وصلنا كتابكم صحبة القائد جوان يناذه واستوفينا ما ذكرتم فيه وأمرنا وزير مقامنا الكريم أسعده الله أن يتحدث معه ويقرر

له قصد مقامنا العلي أعلاه الله حسبما يخبركم به وما ذكرتموه عن وجهتكم وسفركم لسلطان قشتالة صديقنا أكرمه الله بتقواه فاذ مصلحتكم في ذلك فتتوجهوا ان شاء (الله) بالسلامة واعلموا أيها القند المرفع أن حبيبنا ولدكم المرشكل أكرمه الله بتقواه وأرضكم تكون منا ببال ومايعملهم الا مايرضيهم والذي وقع ما وقع الا بأسباب يقررها لكم المذكور ولا نشك ان فرساننا اخطأوا في بعض ما نضر ولاكن محبتكم عندنا معلومة فلا تشكوا في ذلك ولا تعتقدوا خلافه ، ويريد منكم ان توصوا اهل القلعة ان لا يخرجوا عن الواجب وكل مالكم من الحوائج نعمل فيها مايرضيكم ، والله يعمل كرامتكم بتقواه

كتب في الرابع والعشرين من الربيع الاول عام ثمانين وثمني مايه ، صح هذا

Adresse au verso :

الفارس المكرم الزعيم الحسيب الاوفى

ذون دياقه هرندس ذى قرطبة قند قبره

بن قندحصن أشرصاحب بيانه وقائدالقلعة

أكرمه الله بتقواه

٤

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من عبد الله امير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا امير المسلمين ابي النصر ابن الامير المقدس ابي الحسن ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين ابي عبد الله ابن امير المسلمين ابي الحجاج ابن امير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيده الله بنصره وأمده بيسره الى الفارسين المكرمين الزعيمين المشكورين الوفيين الاحبين ذوق دياقه هرندس المرشكال بقشتالة ومرتين الهنشه ذي منت ميور صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه ، ووفقهما بهداه سلام يراجع سلامكم كثيرا أثيرا كتبناه اليكم من الحمراء العلية بغرناطة حرسها الله عن الخير والعافية والحمد لله والى هذا فاعلموا أيها الفرسان المكرمون انه وصلنا كتابكم واستوفينا ماذكرتم فيه فشكرنا قصدكم ومحبتكم والامان الذي طلبتموه يعملكم كرامة لكم وقد أمرنا وزير مقامنا العلي أسعده الله بكتب لكم بالذي حسبما يعملكم فاعلموا هذا وكل ما لكم من الحوائج نعمل فيها ما يرضيكم والله يعمل كرامتكم بتقواه وكتب في الرابع عشر لجمادى الآخر عام ثمانين وثمنى مايه، صح هذا ؟

adresse au verso :

الفارسان المكرمان الزعيمان

ذوق دياقه هرندس المرشكال ومرتين الهنشه

ذي منت ميور صاحب القبذيق أكرمهما الله بتقواه

التعريف بكتاب

أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر

والمراسيم الاربعة التي تليه

بينما نحن في تجديد طبع هذا الكتاب « آخر بني سراج » مع ذيله في أخبار الانداس لاسيما حادثة سقوط غرناطة اذ ظفرنا بنسخة من كتاب « أخبار العصر في أخبار دولة بني نصر » مطبوعة حديثة منيعة عاصمة بافاريا سنة ١٨٦٣ وقد عنى بطبعها وتعليق بعض حواش عليها ونشر ترجمة ألمانية للاصل العربي في آخرها مستشرق يقال له « مارك يوس مولر » ولم يرد في هذه النسخة اسم مؤلف الكتاب . فأثرنا ضم هذا التأليف أيضاً الى آخر بني سراج وذلك لما يأتي :

أولا لان جل غايتنا من البداية هو التقريب والاحفاء في قص آثار العرب الاخيرة في ديار الانداس

ثانياً لكون الكتب العربية المصنفة في هذا الموضوع نزراً جداً كما أشرنا اليه في مقدمة الذيل وكما قال المستشرق مولر المار الذكر في المقدمة الوجيزة الالمانية التي صدر بها طبعة « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » المذكورة فانه قال : انه في العربية لا يوجد الا مناثر قليلة جداً لاخبار مصيبة مسلمي غرناطة وان خلاصة المقري (صاحب نفح الطيب) في هذا الصدد واضحة النقص والآن عندنا خلاصة اخرى مخطوطة وجدت في قصر الاسكوريال (الشهير الواقع على مسافة ٥٠ ميلا مترا من مجريط أو مدريد) ولم يرد ذكرها في فهرست « كزيري »

ثالثاً لان صاحب هذا التاريخ كان معاصراً للكائنة الاندلسية الاليمة فقد جاء في آخر الكتاب انه نجز يوم الثلثاء ٢٤ من جمادى الثانية من عام ١٤٧ ويظهر من روح الكتابة انها كتابة رجل معاصر ويلوح لي أن المقري أخذ عنا وقد أشار المستشرق مولر في صدر خطبته الى انه مع كل ما هو عليه هذ المخطوط من الوجازة فلا تخلو مطالعته من الفائدة لانه نص شاهد عيان كان في الحادثة بنفسه وروى أخبار بسالة بني حلدته وسياسة الخيانة والغدر التي سار عليها ملوك الاسبان رواية مرتعض محترق الفؤاد

ولاكمل الفائدة ألحقنا « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » بمجموعة صغيرة تحتوي على أربعة مراسيم سلطانية صادرة عن أبي الحسن علي بن أبي النعيم بن أبي الاحمر الى بعض عرب [illegible] وهذه قد رقمت لنا مطبوعة بالبرتغالية سنة ١٨٠٣ بعنوان المعنى هو نويغ ديرنورغ » وعنوانها (أربعة كتب مرسلة من أبي الحسن علي ملك آخر ملوك غرناطة) محررة بين سنتي ١٤٧٠ و١٤٧٥ ولقد اشتملت معها على ترجمتها مرسيه بقلم المسيو ديرنورغ المذكور مع مقدمة قيمة وحواش مفيدة يحذر منها بالذكر استشهاده في عدة مواضع بالمستشرق الالماني مولر صاحب كتاب (اخبار العصر) الذي طبعه بمنيخ سنة ١٨٦٠ واشارته الى [illegible] المذكور نقل من المخطوط سنة ١٧٥٨ من الاسكوريال تحت [illegible] الاندلسية وتاريخه سنة ٩٨٦ للهجرة (١٤٩١) في وصف الحالة التي آل اليها عرب غرناطة في أفريقية ومنها تحقيقه أن الامير محمد بن سعد الذي [illegible] مذكور بلسان

ومنها قوله ان ملوك غرناطة كانوا يلقبون بأمير المسلمين فتنفرد لاثر يوسف بن تاشفين لانه لقب به نفسه [illegible] على لقب أمير المؤمنين) لدى كافة [illegible] لقبت بهم ورأيا لحسن علياً بن الاحمر كان يقول [illegible] وتحت أرشم وسلطنة بني الاحمر كما هو مكتوب على جدران الحمراء على السكة المضروبة بغرناطة هو « لا غالب إلا الله » وانه يوجد في مخدع المسكوكات بمدريد قطعة ذهبية من الفضة على شكل دائرة في وسطها مربع مكتوب فيه هذا (عبد الله الغالب بالله علي ابن سعد بن علي بن يوسف بن محمد بن يوسف بن اسماعيل بن نصر أيده الله ونصره وفي أحد جوانب الدائرة مكتوب (لا غالب الا الله) ومن الوجه الآخر دائرة أيضا فيها مربع في ضمنه آية من القرآن وعلى جوانب الدائرة (طبع بمدينة غرناطة حرسها الله)

شكيب ارسلان

(تمت الرواية وتليها الخاتمة)

فهرس رواية اخر بني سراج

صفحه	
٢	مقدمة المترجم
٤	جلاء عرب الاندلس الى افريقيه
٤	بنو سراج في تونس
٨	ذهاب ابن حامد السراجي الى الاندلس يقتص آثار آبائه
٩	وصوله الى غرناطة ووصفها
١٣	تلاقي ابن حامد بحسناء اسبانية اسمها ادماء وهيامه بها
١٦	سماعه إياها تنشد أناشيد فيها ذكر حروب المغاربة وآل سراج
١٧	ظهور ان هذه الغادة الحسناء هي سلالة آل بيفار الذين منهم السيد بطل رواية الشاعر الفرنسي كورنايل
١٨	والدالأميرة الحسناء الدوق لذريق
١٩	أخوها الدون كارلوس أحد الابطال
٢٢	تعشق ادماء البيفارية لابن حامد
٢٣	تنزه الحبيبين في قصر الحمراء
٢٤	وصف الحمراء
٢٧	عزم ادماء على التزوج بابن حامد على شرط ان ينتصر
٣١	عزم ابن حامد على الزواج بادماء لولا شرطها تركه الاسلام
٣١	ورود كتاب من تونس الى ابن حامد بأن والدته على شفا الموت تريد أن تقبله قبلة الوداع
٣٢	وداع ابن حامد لحبيبته ادماء وسفره
٣٤	رجوعه الى الاندلس ونزوله بمالقة حيث كانت الاميرة في انتظاره
٣٦	الفارس لوترك الفرنسي الشهير
٣٩	ميل الدون كارلوس الى تزويج أخته من لوترك
٣٩	إصرار ادماء على التزوج بابن حامد ان تنصر
٤٠	مبارزة الدون كارلوس وابن حامد وتغلب هذا على قرنه وابقاؤه عليه حيا بشقيقته
٤٦	المأدبة التي اجتمع فيها الفرسان الثلاثة وادماء
٤٨	الاناشيد التي تغنوا بها وهم يعزفون بآلات الطرب
٥٢	معرفة السراجي من نشيد الدون كارلوس انه سلالة السيد العدو الأكبر لآل سراج
٥٣	معرفة الدون كارلوس وأخته والفارس لوترك ان ابن حامد هو آخر بني سراج
٥٤	عدول ابن حامد عن أخذ ادماء بسبب تذكاره مقتل السيد لاجداده وتأكيده للوترك انه مع غرامه بادماء لا يزاحمه عليها وتأكيد الفارس الفرنسي للفارس العربي انه لا يزاحمه على حبيبته مادام يهواها
٥٦	سفر ابن حامد قافلا الى إفريقية وانقطاع خبره
٥٧	بقاء الاميرة ادماء بدون زواج متيمة بحبيبها العربي هائمة أكثر الاحيان في جبال مالقة تنظر الى البحر الذي كان يطلع منه
٥٨	قبر آخر بني سراج في اطلال قرطاجنة

فهرس ملخص تاريخ الاندلس

صفحة

٦٠ قصور التواريخ العربية عن الوفاء بشرح كائنة الاندلس الاخيرة وانقراض ملك الاسلام منها
٦٣ ذكر بني سراج
٦٩ ذكر مملكة غرناطة
٧٢ ذكر أجل قواعد الاندلس
٧٧ ذكر فتح الاندلس
٧٨ عبد الرحمن الداخل و بنو أمية
٧٨ المنصور بن أبي عامر
٨٢ بنو حمود الحسنيون
٨٣ بنو عباد اللخميون و بنو ذي النون
٨٦ بنو هود و بنو الافطس و بنو صمادح
٩٢ واقعة الزلاقة الشهيرة
٩٥ استيلاء يوسف بن تاشفين على الاندلس ونكبة المعتمد بن عباد
٩٦ ظهور الموحدين
٩٩ واقعة الارك الشهيرة والسلطان يعقوب من بني عبد المؤمن الذي استجاشه صلاح الدين الايوبي على الافرنج
١٠١ واقعة العقاب الشهيرة التي محص بها المسلمون ودولة بني مرين
١٠٣ ملوك غرناطة بنو نصر الذين يقال لهم بنو الاحمر من الخزرج
١٠٤ اصهارهم بنو اشقيلولة
١٠٥ استشعار المسلمين قرب سقوط الاندلس
١٠٨ ـ ١١٩ قصائد الاستغاثة
١٠٨ سينية ابن الابار القضاعي
١١٦ نونية أبي البقاء الرندي

صفحة

١٢٠ ما قاله ضياء باشا كبير أدباء الترك عن الاندلس
١٢٥ استصراخ بني الاحمر السلطان يعقوب ابن عبد الحق المريني
١٢٦ مواقف هذا السلطان في الجهاد
١٣٦ واقتفاء ابنه السلطان أبي يعقوب أثره
١٤١ مواقف السلطان أبي الحسن المريني في الجهاد
١٤٢ ظهور أساطيل الاسلام على أساطيل الافرنج
١٤٢ تمحيص المسلمين في واقعة طريف
١٤٣ انكسار الاسطول الاسلامي في بحر الزقاق
١٤٦ أيام محمد الخامس واسطة عقد بني الاحمر ونكبته والتجاؤه إلى السلطان أبي سالم المريني
١٤٨ خبر لسان الدين بن الخطيب و زير غرناطة و رأس الادباء في عصره
١٥٦ ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ
١٦٦ اضطهاد الاسبانيول لمسلمي اسبانية ولليهود ها
١٦٧ خبر المدجنين اي المسلمين الذين تحت حكم ملوك الاسبانيول
١٧٥ خبر دول اسبانية المعاصرة لبني الاحمر
١٨٤ السيد اذريق بطل رواية كورنايل
١٩٤ فرديناند ملك اراغون وايزابلا ملكة قشتالة
٢١٨ ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية

To: www.al-mostafa.com

صفحة

عن مسلمي الاندلس لئلا يؤدي هذا التمادي في قهرهم الى الانتقام من مسيحيي الشرق
٢٩٥ ارسال فرديناند وايزابلا المؤرخ بطرومارتير بسفارة الى سلطان مصر واعمال الحيلة في صرف الدولة المصرية عن الاهتمام بأمر الاندلس
٣٠٠ تسليم بسطة بعد حصار ٦ أشهر و٢٠ يوما
٣٠٣ تنصر سيدي يحيى قائد بسطة سراً ودخوله في خدمة الطاغية واقناعه السلطان ابا عبد الله الزغل بالدخول في طاعة ملوك الاسبانيول
٣٠٥ دخول الزغل في طاعة الطاغية وتسليمه ما كان بيده من البلاد
٣٠٦ فرح ابن أخيه السلطان ابي عبد الله الملقب بالشقيتو بخبر تسليم عمه
٣٠٦ ارسال فرديناند الى الشقيتو النذير بوجوب تسليم غرناطة
٣٠٨ نشوب الحرب بين غرناطة والطاغية
٣٠٩ موسى بن ابي الغيسان روح الجهاد
٣١٢ استيلاء السلطان ابي عبد الله على حصن همدان وحصن مارشنة
٣١٣ حصار ابي عبد الله لمدينة شلوبانية
٣١٥ اخراج الطاغية اهالي وادي آش وبسطة والمرية من مساكنهم وجلاء اكثرهم الى افريقية
٣١٦ زحف الطاغية على غرناطة وتخريبه وعبثه في مروجها الخصيبة
٣١٨ وقائع بطل الابطال الامير موسى بن ابي الغيسان وهي من اعظم العبر
٣٢٤ احتراق معسكر الاسبانيول

صفحة

٣٢٧ بناء معسكر من الحجر صار مدينة اسمها «صنتافي» اي الايمان المقدس
٣٢٨ اشتداد الجوع بأهل غرناطة وخيبة آمالهم بوصول مدد من جهة ملوك الاسلام وعقد ابي عبد الله مجلسا حضره اعيان البلد واجماعهم على التسليم بسبب الجوع وخذلان المسلمين لهم
٣٢٩ يأس الغرناطيين الا موسى بن ابي الغيسان
٣٢٩ ارسال الوزير ابي القاسم عبد المالك الى فرديناند وايزابلا يطلب الصلح
٣٢٩ شروط الصلح وما فيها من الاعتدال في اول الامر لخداع المسلمين
٣٢٩ امهال الاسبانيول أهل غرناطة سبعين يوما على أن يسلموا ان لم يرد لهم في خلالها مدد من وراء البحر
٣٣١ ما يقال عن نهاية امر موسى بن أبي الغيسان بعد ان يئس من حمل الغرناطيين على متابعة الجهاد
٣٣٧ بث الطاغية جميع أساطيله وجيوشه على السواحل منعا لوصول أي مدد
٣٣٨ قيام مرابط اسمه حامد بن زاره باستنفار اهل غرناطة للدفاع حتى تأتيهم الامداد من جبال البشرات ومن بر العدوة
٣٣٨ ثورة عشرين الفا من اهل غرناطة للدفاع وبروز السلطان ابي عبد الله للملأ واقناعه اياهم بالتسليم لمشيئة الله
٣٣٨ امضاء المعاهدات في ٢٥ كانون الأول وفق ٢٢ المحرم سنة ٨٩٧

صفحة

٣٣٩ خروج ابي عبد الله وحرمه وحواشيه من الحمراء واعترافه بذنوبه
٣٤٠ تلاقيه مع فرديناند وايزابلا في الطريق وتسليمه مفاتيح البلد اليهما
٣٤١ الذروة المسماة بآخر حسرات المغربي التي منها نظر ابو عبد الله الى غرناطة نظرته الأخيرة
٣٤١ اجهاشه بالبكاء عند ماسمع دوي المدافع ورأى دخان البارود ايذانا بدخول الطاغية الى الحمراء وكلمة امه له
٣٤٢ تحويل مسجد غرناطة الأعظم الى كنيسة واستقرار فرديناند وامرأته في الحمراء ورؤيتهما اياها فوق ما كانا يتصوران
٣٤٧ اقامة ابي عبد الله باقطاعه في وادي برشانة ومحاولة فرديناند وايزابلا بكل وسيلة حمله على النصرانية
٣٤٨ مداخلة الطاغية يوسف بن كماشة وزير ابي عبد الله في حمله على الرحيل الى بر العدوة وشراؤه اراضيه
٣٤٩ اجازة ابي عبد الله ونزوله بعليانة واقامته بفاس حيث توفي سنة ٩٤٠
٣٥٠ نقض الاسبانيول معاهدة غرناطة عروة عروة واكراههم المسلمين على التنصر او الجلاء
٣٥١ الثورة في جبال البشرات وهزيمة الدون الونزو اغيلار البطل الشهير
٣٥٢ اكراه المسلمين على التزيي بالزي الاسبانيولي ومنعهم من التكلم بالعربي وهدمهم الحمامات لمنعهم من الغسل سنة ١٥٢٦ بأمر الامبراطور شرلكان

صفحة

٣٥٣ الثورة الثانية في جبال البشرات وقيام هرناندو دوفلور من سلائل خلفاء قرطبة تحت اسم محمد بن امية سنة ١٥٦٨
٣٥٣ قتل محمد بن امية وقيام عبد الله بن ابوه خلفا له وانتهاء الثورة سنة ١٥٧٠ الجلاء الاخير الذي لم يبق بعده مسلم واحد بالاندلس سنة ١٦١٠
٣٥٤ شدة الحروب بين المورسك اي المسلمين المتنصرين كرها وبين الجيوش الاسبانيولية
٣٥٤ قمع الثورة بأقصى الشدة واجلاء قسم كبير من المسلمين
٣٥٨ انشاء ديوان جديد للتفتيش وما قرره طرد اليهود من اسبانية وسلب اموالهم واكمال شرلكان مقصد فرديناند باكراه المسلمين على التنصر
٣٥٩ كلام المقري في نهاية الاندلس
٣٦١ الاعتذار بالقدر والاستسلام له (خاتمة الكتاب) في حضارة العرب وآثارهم بالاندلس

﴿فهرس كتاب اخبار المصر﴾

٣٧١ استواء الامير ابي الحسن علي بن سعد على الاندلس وحسن سيرته اولا
٣٧٢ عرضه الجيش في مدينة الحمراء بظلمة نادرة وما عرض له اثناءه من السيل الجارف الذي خرب غرناطة
٣٧٣ انتكاس ملكه وانتقاصه من ذلك التاريخ بانهماكه في الشهوات وافساده امر الجند ووضعه المغارم والمظالم على

صفحة	
	الناس ومساعدة وزيره له على ذلك
٣٧٤	طمع النصارى في ملكه وشروعهم في فتح البلاد وأخذ الحصون
٣٧٨	معركة عظيمة نصر فيها المسلمون
٣٧٩	رد الكرة للنصارى عليهم
٣٨١	ظهور المسلمين عليهم كرة أخرى
٣٨٢	استمرارهم على اخذ الحصون عنوة وصلحا لاجل الاحاطة بغرناطة
٤٠٠	ضعف غرناطة وقلة الطعام والرجال فيها شتاء سنة (٩٨٧) وشكوى الاهالي لامرهم محمد بن علي ذلك مع انقطاع المدد عنهم ورغبتهم في الصلح وهو ما كان يتمناه ويحاوله
٤٠١	مخاطبته لملك الروم بالصلح وبذل هذا الجميع شروطهم الحسنة خداعا
٤١٤	التعريف بكتاب اخبار العصر وبالمراسيم الاربعة التي تليه

صفحة	
٤٠٢	اخلاء مدينة الحمراء وتريث ملك الروم بدخولها حذراً من الكيد له، ودخول أهل البشرة في ذمة النصارى تبعا لغرناطة وبذلك لم يبق للمسلمين شيء من ملك الاندلس
٤٠٣	وفاء ملك الروم للمسلمين واحساته معاملتهم عقب الصلح
٤٠٤	شروعه في نقض الشروط فصلا فصلا الى آخرها وارهاقه للمسلمين بالظلم والمغارم والاكراه على التنصر الخ
٤٠٥	قتاله للذين امتنعوا من التنصر واجلاؤه من عجز عنهم لعدوة المغرب بثيابهم فقط وزوال الاسلام من الاندلس
٤٠٨	المراسيم السلطانية الاربعة

جدول اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	٩	سحرا	سخرا
٧	٩	لامثيل	لامثيل له
١٠	١١	إن	أن
١٨	٤	بسيدة	بسيد
٣٣	٤	حول	نحو
٤١	١	لحاه	لحاء
٤٥	١٢	للتفتيش على	للتفتيش عن
٥٥	٧	قوم	آخر قوم
٥٥	٩	نجدي	نجري
٦٨	٤	القسم	القاسم
٦٨	٦	بم	به
٦٨	٧	به	
٧٦	٢٠	بواسل	بسل (او) بسلاء
٨٥	١٢	مغلاة	مقلات
٨٦	١٣	الافسط	الافطس
٩٨	٢٠	فقفل الى المغرب	خصوصا لما بلغه من
		خصوصا لما بلغه من ثورة	ثورة ابن غانية الذي
		ابن غانية الذي	كان واليا في

صفحة	سطر	خطأ	صواب
		كان واليا في ميورقة فلم يتكد الخ	ميورقة فقفل الى المغرب فلم تكد الخ
١٠٨	١٩	وجال	وحال
١٠٨	٢٠	الدّبا	الدبى
١٠٩	١٨	لائبيه	لائبته
١٢٣	٢١	من	الى
١٢٥	١٣	عزائمهم	عزائمه
١٢٥	» »	جمته	حميته
١٣٤	١١	ونقل	ونقل
١٤٥	» »	وبقي مع	وبقي امر
١٤٨	١٥	الرجا	الرجال
١٥١	٥	والآصفاق	والاصفاق
» »	٨	بيتنا	مبيتنا
١٦٠	١٠	طليطلة	طليطليه
١٨٣	١	الى	الى فرديناند
» »	٩	النصرانية	ممالك النصرانية
» »	١٢	البحر مملكة	مملكة
٢٠١	٣	آلى	آلا
٢٠٥	١٦	وتفحه	ونفحه
٢٠٧	٢٠	فقد	فقد
٢١١	٢	نهاره	نهاه
٢١٢	١٧	فاستلم	فتسلم
٢١٦	١٤	ابيه	ابنه
٢٢٢	١٦	الارضي البطل	البطل الارضي
٢٢٦	٤	ويستنيب	ويستنيب
٢٢٩	١٩	جامع	غير جامع
٢٣٠	١٦	إصالة	أصالة
٢٤٠	٢١	دريا	دربا
٢٤٥	١٨	إمامهم	أمامهم
٢٤٩	٥	الكنز	الكر والفر
٢٥٣	٧	وصل	ووصل
٢٥٥	٥	اخير	اخيراً
٢٥٦	١	فتازوا	فتاروا
٢٥٦	٤	الآخرة	الآخر
٢٥٧	١٦	الزغل	للزغل
٢٦٤	٣	وتحصين	وتحسين
٢٦٨	١٨	اعداء	اعداد
٢٧٦	٢	آخر	آخراً
٢٧٩	١	ابا	ايام
٢٨٣	١٦	رعد	وعدد
٢٩٦	١٥	اختاط	اختطاط
» » »	١٨	الهلالا	الهلاك
٣٠١	٧	يستلمها	يتسلمها
٣٠٦	١٨	الحمراء من	من الحمراء
٣٠٩	٨	وحدتهم	وحدتهم
٣١٠	٥	فاغنم	فاعتم
٣١٤	١٢	لسيدي	بسيدي
٣١٦	١٣	استصفى	واستصفى
٣١٨	٢	نختار	نحار
٣٢٧	١	حتى ولا	ولا
» » »	٤	المصر	ذلك المصر
» » »	٤	غرناطة ذلك	غرناطة
٣٢٨	٨	وفقهائه	وفقهاؤه
٣٢٩	٩	فلما	فلم
٣٣١	١٧	فمن العجزان تموت جبانا	فاذا لم يكن من الموت بد

صفحة	سطر	خطأ	صواب
» »	١٨	محل	من محل
٣٣٢	١	لها	له
٣٤٠	•	واستلم	وتسلم
٣٤١	١	التى	والتي
٣٤٢	١٣	كان	كانا
٣٥٢	٧	و يعاونوهم	ويعاونونهم
٣٩٤	١٨	وما بعد أن و	وما بعد الفاء
٣٧٥	١٩	الرم	الروم
٣٧٢	٥	العد »	العد
٣٧٣	١٣	الرافير	القرافير
٣٧٣	١٧	يسع	يسمع
٣٧٤	٣	المذ كو	المذكور
» » »	١٩	نتل من نفذ	قتل من نفد
٣٧٨	٨	يردن	يريدون
٣٧٨	١٨	اللغة	ألفة
٣٧٩	١٣	هلاك	في هلاك
٣٨٠	١١	غيرقتال من	من غير قتال
٣٨٥	٢	اغرناطه	غرناطة
٣٨٧	١٩	بلش	مدينة بلش

(وليعلم ان في كتاب أخبار العصر والمراسيم التى تليه اغلاطا بعضها من الاصل و بعضها من الطبعة الاولى تركت على حالها)

تنبيه

إنه لما كان هذا الكتاب قد انطبع بمطبعة المنار بمصر ، وكنا نحن بمكان والمطبعة بمكان ، رجونا حضرة الاستاذ العلامة صاحب المنار أن يشرف على طبع الكتاب و بتولى تصحيح مسوداته — وهل يفتى ومالك في المدينة — فعلق الاستاذ اثناء تصحيح المسردات بعض ملاحظات عنت له ، ومنها ما هو شبه اعتراض على المؤلف ولكن بعض هذه الملاحظات غير معلم عليها بامضائه فخشية ان يختلط الحابل بالنابل وحب التنبيه على الحواشي التي علقها الاستاذ فهى الواردة في صفحات ٨ و ٢٧ و ٦٣ و ٦٥ و ١١٣ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٩٠ و ٣٤٧ والحاشية الثانية من ص ٣٧٠ الاولى من ص ٣٧٥ وسائر حواشيه معزوة الى مصحح الطبع وما بقي من الحواشي فهو من قلم مؤلف الكتاب شكيب ارسلان

﴿ اعتذار ﴾ انا لم نعتمد الاعتراض بما ذكر على امير البيان بل جرى به القلم كعادته لزيادة الفائدة كمطلع سينية ابي تمام ذكرنا نص الديوان المطبوع ولا نجزم بأنه الصواب لكثرة غلط الديوان وكالاستدراك في مسألة الجوهري والبرامكة فانه في المتن لا ينافيه وكذلك حاشية الغدير في ص ٣٦١ وأما حاشية ص ٣٦٧ ففيها حمل كلام المتن على اصل بليغ مع مخالفة ظاهره لمورد الحديث

رشيد رضا